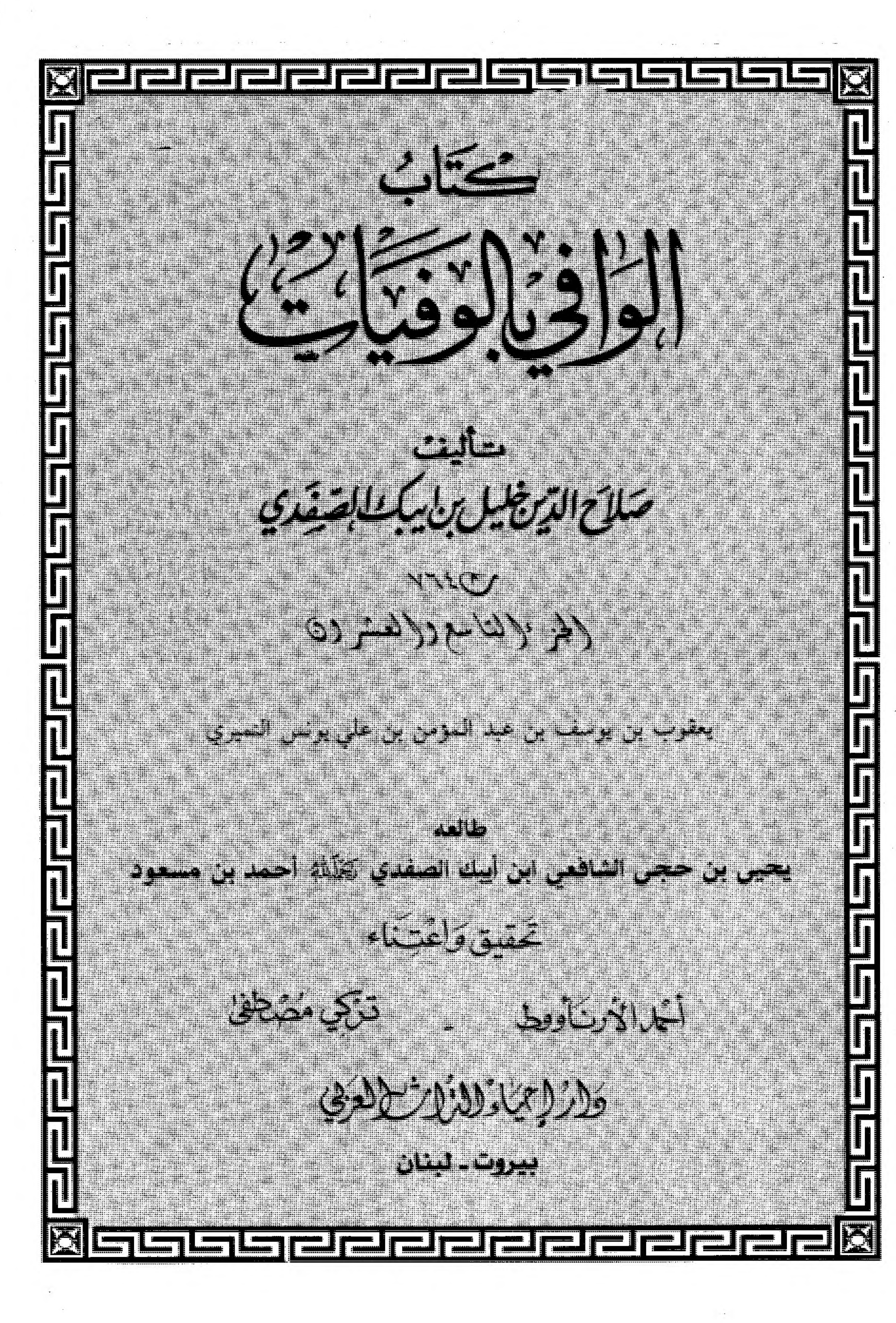


كتاب

الوافي بالوفيات

تأليف

صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي

ت ٧٦٤ هـ

الجزء التاسع والعشرون

يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي يونس النميري

طالعه

يحيى بن حجي الشافعي ابن أيبك الصفدي رحمه الله أحمد بن مسعود

تحقيق واعتناء

أحمد الأرناؤوط - تركي مصطفى

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

الطبعة الأولى

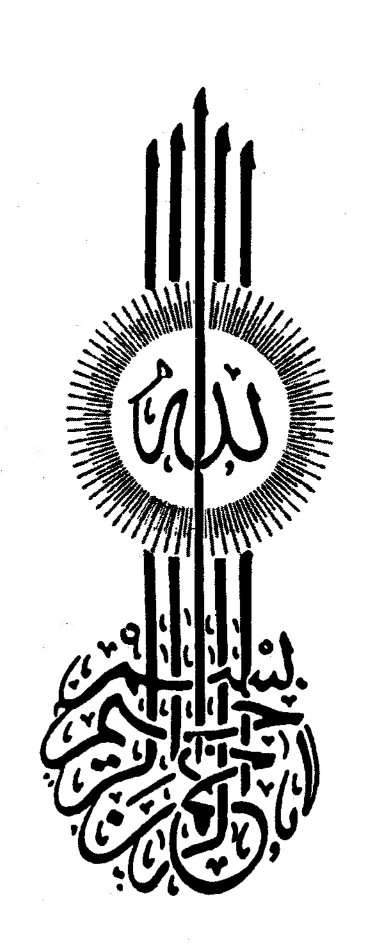
دار إحياء التراث العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

DAR EHIA AL-TOURATH AL-ARABI
Publishing & Distributing

بيروت - لبنان - شارع دكاش - هاتف: ٢٧٢٦٥٢ - ٢٧٢٦٥٥ - ٢٧٢٧٨٢ - ٢٧٢٧٨٣ فاكس: ٨٥٠٧١٧ - ٨٥٠٦٢٣ ص.ب: ١١/٧٩٥٧

Beyrouth - Liban - Rue Dakkache - Tel. 272652 - 272655 - 272782 - 272783 Fax: 850717 - 850623 P.O.Box; 7957/11

كتاب
الوافي بالوفيات


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يعقوب بن يوسف[1]

١ - «المنصور المراكشي» يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، الملقّب بالمنصور أمير المؤمنين، أبو يوسف القَيْسي المراكشي سلطان المغرب، أمُّه أمُّ ولد. ملك وعمرُه اثنتان وثلاثون سنة. وعَمَّر بمراكش[2] بيمارستاناً[3] غريباً أجْرى فيه مياهاً كثيرةً، وغرسَ فيه من جميع الأشجار وزَخْرفه، وأمر له في كلِّ يومٍ بثلاثين ديناراً للأدوية، وكان يعودُ المرضَى فيه في كلِّ جمعة.

وكتب إليه صلاح الدين بن أيوب يستنجدُه على الفرنج، وخاطبه بأمير المسلمين ولم يخاطبه بأمير المؤمنين، فلم يُجبه إلى ما طلب.

ووقع بين المنصور هذا وبين الأذفونش ملحمةٌ هائلة قَلَّ أنْ وقع مثلها، قُتِلَ فيها من الفرنج مائة ألف وستة وأربعون ألف نفس، وقُتِلَ من المسلمين نحو من عشرين ألف نفس، وحُمِلَ من دروعهم لبيت المال ستّون ألف درع، وأمّا الدَّواب فلم يُحْصَ عَدَدُها[4].

وكان قد أمر أن لا يُفْتى بفروع الفقه، وأنْ لا يفتى إلاّ بالكتاب والسُنَّة، وأنّ يجتهدَ الفقهاءُ على طريقة أهل الظَّاهر. وإليه تُنْسَبُ الدنانيرُ اليعقوبيَّة، وأمر بقراءة البَسْملة في أوّل

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٣١١).
أخباره في التواريخ المستوعبة لعصره ولا سيما التواريخ المعنية بالمغرب والأندلس مثل «البيان المغرب» و«الحلل الموشية» و«روض القرطاس» و«أعمال الأعلام» و«الاستقصا» و«نفخ الطيب» وغيرها. ومن التواريخ المشرقية: «الكامل» لابن الأثير، و«المرآة» لسبط ابن الجوزي، و«تاريخ الإسلام» للذهبي، وغيرها وقد ترجم له السبط في المرآة ترجمة جيدة: (٨/ ٤٦٤) فيما بعد وابن خلكان في «الوفيات» (٧/ ٣ - ١٩) انظر التعليق على «وفيات الأعيان» و«الأعلام» للعلامة المرحوم الزركلي (٩/ ٢٦٧)، وقد نقل الذهبي معظم الترجمة من كتاب «المعجب» لعبد الواحد المراكشي: (٣٣٦) فيما بعد.

(٢) مراكش: أعظم مدينة بالمغرب وأجملها، وبها سرير ملك بني عبد المؤمن، أول من اختطها يوسف بن ساسفين اهـ «معجم البلدان» (٥/ ٩٤).

(٣) البيمارستان: هو المستشفى وهو فارسي معرب اهـ «المعجم الوسيط» (١/ ٧٩).

(٤) واسم هذه الوقعة «الأرك» انظر «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» لابن عذاري طبعة دار الثقافة بيروت (٣/ ١٩٥).

الفاتحة في الصلوات، وأرسل بذلك إلى سائر بلاد المسلمين فأجاب قومٌ وامتنع آخرون، وكان يشدّد على الرّعية بإقامة الصلوات الخمس ويعاقبُ على تركها، ويأمر بالنّداء في الأسواق بالمبادرة إليها، فمن غَفَلَ عنها أو اشتغل عنها بمعيشة عَزَّره، تعزيراً[١] بليغاً، وقَتَل في بعض الأحيان على شُرْب الخمر، وقتل العُمّال الذين تشكو الرّعيةُ منهم.

وقال القاضي شمس الدين أحمد بن خلكان ـ رحمه الله تعالى ـ: وصل إلينا جماعةٌ من مشايخ المغرب وهم على تلك الطريق، مثل أبي الخطاب ابن دِحْية، وأخيه أبي عمر، ومحيي الدين بن العربي نزيل دمشق[٢].

وكان محبّاً للعلماء، محسناً إليهم، مُقرِّباً لهم وللأدباء، مُصْغياً إلى المديح مُثيباً عليه. وله ألّفَ أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي «صفوة الأدب وديوان العرب» من مختار الشعر. ومن شُعراء دولته أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن مُجَبَّر الأندلسي، وقد تقدم ذكره في مكانه ودخل عليه الأديبُ أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكانِمي الأسود الشّاعر المشهور فأنشده: [من الوافر]

أزالَ حجابَه عنّي وعَيْني ... تراه من المهابة في حجابِ
وقرّبني بفضلٍ منه لكن ... بَعُدْتُ مهابةً عند اقترابي[٣]

وكان يعقوب هذا صافي السمرة جداً، إلى الطول ما هو، جميلَ الوجه، أعينَ شديدَ الكحل، ضخمَ الأعضاء، جهوريَّ الصَّوتِ، جدلَ الألفاظ، أصدقَ النّاس لجهةً وأحسنَهم حديثاً، وأكثرَهم إصابةً بالظنّ، مجرّباً للأمور. وَلِيَ وزارةَ أبيه فبحث عن الأحوال بحثاً شافياً، وطالع مقاصدَ العمّال والولاة وغيرهم مطالعةً أفادته معرفةً بجزئيات الأمور. ولمّا مات أبوه اجتمع رأيُ أشياخِ الموحدين وبني عبد المؤمن على تقديمه، فبايعوه وعقدوا له البيعة ودعوه أمير المؤمنين كأبيه وجدّه، ولقّبوه المنصور، فقام بالأمور أحسنَ قيام وهو الذي أظهر أُبَّهةَ ملكهم ورفع رايةَ الجهاد ونصب ميزانَ العدل، وأقام الحدود حتّى على أهله وعشيرته. وخرج عليه علي بن إسحاق بن محمد بن علي بن عائشة المُلثّم من جزيرة ميورقة[٤] في شعبان سنة ثمانين، وملك بجّاية وما حولها، فجهّز إليه المنصور يعقوب عشرينَ ألفَ فارس وأسطولاً في البحر، ثم خرج بنفسه في أوّل سنة ثلاث وثمانين وخمس

(١) التعزير: هو تأديب دون الحد وأصله من العزر وهو المنع. اهـ «التعريفات» (٨٥).

(٢) وقبره فيها مشهور ويزار.

(٣) انظر البيتين في «وفيات الأعيان» (٧/ ١٥).

(٤) جزيرة في بلاد الأندلس في الشرق منها بالقرب من جزيرة يقال لها منورقة اهـ. «معجم البلدان» (٥/ ٢٤٦).

مائة فاستعاد ما أخذ من البلاد ثم عاد إلى مراكش.

وفي سنة ستٍ وثمانين بلغه أنَّ الفرنَج ملكوا مدينة شِلْب[١]، وهي في غرب جزيرة الأندلس، فتجهَّزَ إليها بنفسه، وحاصرها وأخذها وأنفذ في الوقت جيشاً من الموحّدين ومعهم جماعةٌ من العرب ففتحوا أربعَ مدنٍ من بلاد الفرنج كانوا قد أخذوها من المسلمين قبل ذلك بأربعين سنة. وخافه صاحبُ طليطلة وصالحه خمسَ سنين، وعاد إلى مراكش. ولما انقضت الهدنة ولم يبق منها إلا القليل، خرجت طائفة من الفرنج في جيش كثيف إلى بلاد المسلمين، فنهبوا وسبوا وعاثوا عَيْثاً فظيعاً، فتوجه لقصدهم، وذلك في سنة إحدى وتسعين وخمس مائة، وجمع جيوشه من أطراف البلاد واحتفل احتفالاً عظيماً، وخرج إلى مدينة سلا[٢] ليكونَ اجتماعُ العساكر بظاهرها فاتّفق أنّه مرض مرضاً شديداً، إلى أنْ يئسَ أطباؤه فتوقَّف الحالُ عن تدبير الجيوش، فحُمِلَ إلى مراكش، وطمع المجاورون له من العرب وغيرهم وعاثوا في البلاد وأغاروا على النواحي. وكذلك فعل الأذفونش فيما يليه من بلاد الأندلس وتفرّق الجيوش شرقاً وغرباً وزاد طمع الأذفونش، وبعث رسولاً إلى الأمير يعقوب يتهدَّده ويتوعَّدُه ويطلب بعضَ الحصون المتاخمة له وكتب إليه رسالةً من إنشاء وزير له يعرف بابن الفَخّار وهي:

باسمك اللّهم فاطر السماوات والأرض وصلى الله على السيّد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح. أمّا بعدُ، فلا يخفى على ذي ذِهنٍ ثاقب، ولا ذي عقل لازب، أنك أميرُ الملة الحنيفيّة كما أني أميرُ الملّة النصرانية، وقد علمتَ ما عليه رؤساءُ الأندلس من التَّخاذل والتّواكل وإهمالِ الرّعيّة، وإخلادِهم إلى الرّاحة، وأنا أسومُهم بحكم القَهْر وخلاء الدّيار، وسبي الذراري، وأمثّل بالرجال، ولا عُذرَ لك في التُخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يَدُ القدرة. وأنتم تزعمون أن الله فرض عليكم قتالَ عشرةٍ منّا بواحدٍ منكم فـ **﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾** [الأنفال: ٨/ ٦٦]، ونحن الآن نقاتلُ عشرةً منكم بواحدٍ منّا، لا تستطيعون دفاعاً ولا تملكون امتناعاً، وقد حُكي لي عنك أنّك أخذتَ في الاحتفال، وأشرفتَ على ربوة القتال، وأنت تماطلُ نفسَك عاماً بعد عام، وتقدّم رِجْلاً وتؤخر أخرى، فلا أدري أكان الجبنُ أبطأ بك أم التكذيبُ بما وعدك ربُّك، ثمّ قيل لي إنك لا تجد إلى

(١) شلب: مدينة بغربي الأندلس بينها وبين باجة ثلاثة أيام وهي غربي قرطبة، وهي قاعدة المجد، ليس بعد إشبيلية مدينة مثلها، اهـ «معجم البلدان» (٣/ ٣٥٧).

(٢) سلا: وهي في أقصى بلاد المغرب ليس بعدها معمورة إلا مدينة صغيرة يقال لها غرنيطوف، وهي متوسطة في الصغر والكبر موضوعة في زاوية من الأرض حاذاها البحر والنهر اهـ «معجم البلدان» (٣/ ٢٣١).

جواز البحر سبَيلاً لعلّةٍ لا يجوز لك التَّقحُّم معها، وها أنا أقولُ لك ما فيه الراحة لك وأعتذر لك وعنك، على أن تفيَ بالعهود والمواثيقِ والاستكثار من الرَّهن، وترسلَ لي جملةً من عبيدِك بالمراكب والشّواني[1] والطرائد والمسطّحات، وأجوز بجملتي إليك، وأقاتلك في أعزِّ الأماكن إليك، فإنْ كانت لك فغنيمةٌ كبيرة جُلَبتْ إليك وهديةٌ عظيمة مَثُلَتْ بين يديك، وإنْ كانت لي كانت يدي العليا عليك واستحقيت إمارة المِلَّتَيْن، والحكم على البَرَّيْن، والله يُوَفِّق للسعادة، ويسهّل الإرادة، لا ربَّ غيرُه، ولا خيرَ إلاّ خيرُه إنْ شاء الله تعالى.

فلما وصل كتابُه إلى الأمير يعقوب مزّقه وكتب على ظهر قطعةٍ منه **﴿أرْجِعْ إليهِم فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بجنودٍ لا قِبَلَ لَهُم بها ولَنُخْرِجَنَّهم منها أَذِلَّةً وهم صاغِرون﴾** [النمل: ٢٧/ ٣٧] الجواب ما ترى لا ما تسمع.

ولا كُتْبَ إلاّ المشرفيةَ عنده ولا رُسُلٌ إلاّ الخميسُ العرمرم[2]

ثم استدعى الجيوشَ من الأمصار، وضرب السّرادقات بظاهر البلد من يومه، وجمع العساكَر وسار إلى البحر المعروف بزُقاق سَبْتة، فعبر فيه إلى الأندلس، ودخل بلاد الفرنج وقد اعتدّوا واحتشدوا وتأهبوا، فكسرهم كُسْرَةً شنيعةً في سنة اثنتين وتسعين وخمس مائة، ولم ينجُ منهم ملكُهم إلاّ في نفرٍ قليل، وكان ما ذكرته في أوّل هذه الترجمة. وأخلى الفرنج قلعةَ رَباح لِما داخلهم من الرُّعب، فملكها الأميرُ يعقوب وجعل فيها والياً وجيشاً. ولكثرة ما حصل له من الغنائم لم يمكنه الدخولُ إلى بلاد الفرنج فعاد إلى طليطلة وحاصرها وقطع أشجارها، وأخذ من أعمالها حصوناً كثيرةً، وقتل رجالَها وسبى حريمها وهدم مبانيها، وترك الفرنج في أسوأ حال. ثمّ رجع إلى إشبيلية وأقام إلى أثناء سنة ثلاث وتسعين وخمس مائة وعاد إلى بلاد الفرنج مرة ثالثةً وفعل كفعله المتقدِّم، فلم يبق للفرنج قدرةٌ على لقائه وسألوا منه الصلح فأجابهم، وصالحهم لمدة خمس سنين، وعاد إلى مراكش. ولمّا وصل إليها أمر باتخاذ الأحواض والرّوايا وآلات السفر إلى بلاد إفريقية، فاجتمع إليه مشايخُ الموحدين وقالوا: قد طالت غيبتُنا بالأندلس فمِنّا من له خمسُ سنين ومِنّا من له ثلاثُ سنين، فأنْعِمْ علينا بالمهلة هذا العام، وتكون الحركةُ أوّلَ سنة خمس وتسعين، فأجابهم وانتقل إلى مدينة سلا، وشاهد ما فيها من المتنزهات المُعَدَّة له، وكان قد بنى بالمدينة المذكورة، قريباً منها، مدينةً سمّاها رباطَ الفتح، على هيئة الإسكندرية، وبناها على البحر المحيط، وهي على نهر سلا مقابله من البرِّ القبلي، وتنزّه فيها وعاد إلى مراكش.

---

(١) الشواني: جمع شَونَة: وهي المركب المعد للجهاد في البحر اهـ «قاموس» (مادة/ شون).

(٢) انظر البيت في «ديوان المتنبي» (٤٤٠) للواحدي.

ثم إنّ النّاس اختلفوا في أمره من هنا، فقالوا: إنّه ترك ما كان فيه وتجرّد وساح في الأرض وانتهى إلى بلاد الشّرْق وهو مُسْتَخْفٍ لا يُعْرفُ ومات خاملاً، ويقال: إنّ قبرَه بالقرب من المجدل، قريةٍ من البقاع العزيزي عند قرية يقال لها حَمّارة، وإلى جانبها مشهدٌ يُعرفُ بقبر الأمير يعقوب ملك الغرب، كلُّ أهلِ تلك النواحي متفقون على ذلك؛ وقالوا: مات بمدينة سلا في غرّة جمادى الأولى، وقيل: في شهر ربيع الآخر في سابع عشرة، وقيل: في غرّة صفر سنة خمس وتسعين وخمس مائة بمراكش، ومولده سنة أربع وخمسين وخمس مائة، وأمر ليدفنَ على قارعة الطريق ليترحَّمَ الناسُ عليه.

وبايع الناسُ ولدَه أبا عبد الله محمد بن يعقوب، وقد تقدّم ذكرُه في المحمدين.

ومن حكايات الأمير المنصور يعقوب، أنّ رجلاً من المشارقة وصل إليه في زِيّ رسولٍ وزعم أنّه من الهند يذكر أنّ ذلك الملك رأى في كتابِ ملحمةٍ عنده، أنَّ أبا يوسف هذا يصل بجيوشه من المغرب ويملك بلاد المشرق ثم يفتح الهند. وما أشبهَ ذلك، وطلب الاجتماع به فقال المنصور: «العاقل الكريم ينخدع في ماله ولا ينخدع في عقله، وأمر بإنزاله وإجراء الضيافة عليه حتى ينفصل، وأمّا الاجتماع به فلا سبيل إليه».

ورفع إليه صاحبُ شرطته أنّ رَجُلاً من العامَّة ممن ابتلاه الله بحبِّ الخمر اشتاق إلى عادته فقالت له زوجته: قد علمتَ أن الخليفةَ يقتل على الشّرب، وأنت فيك عربدة[1] وقِلَّةُ صمتٍ إذا شربت، فقال لها: أنا أحسم المادة؛ فقيَّد نفسَه بقيد حديد ثم اشتغل بشرابه وأغلق بابه، فَنَمَّ به أحدُ أنذال جيرانه إلى صاحب الشرطة، فأمر المنصورُ أنْ يضربَ السكران الحدَّ الخفيف، ويؤخذ القيد من رجله ويوضع في رِجْل الغمّاز[2] بعد أن يضربَ على تجسُّسِهِ ويودعَ السجنَ حتى يستريح الناسُ منه.

واحتاج لأحد أولاده عالماً وأميناً، فطلبهما من القاضي، فاختار له القاضي رجلين وصف أحدهما في رقعته أنه عالم بحر، والآخر أنّه أمين برّ، فاستنطقهما المنصور، فعلم أنّهما [مقصرين] فوقَّع في الرقعة ﴿**ظهر الفساد في البر والبحر**﴾ [الروم: ٣٠/ ٤١].

واشتهر له من قوله شعر أفسد به العرب على قراقوش أحد مماليك صلاح الدين وكان قد استولى على طرابلس وقابس وعظم أمره بالغرب: [من البسيط]

يا أيّها الرّاكبُ السّاري لَطِّيتِه ... على عُذافرة تشقى بها الأكمُ

---

(١) عربدة: سوء الخلق اهـ «قاموس» (مادة/ عربد).

(٢) الغماز: من غمز بالرجل: أي سعى به شرّاً. اهـ «قاموس» (مادة/ غمز).

بَلِّغ سليماً على بُعْدِ الدِّيار بها ... بَيْني وبينكُمُ الرّحمٰنُ والرَّحِمُ
يا قومنا لا تَشُبّوا الحربَ إن خَمَدَتْ ... واستمسكوا بعُرى الإيمان واعتصموا
حاشى الأعاريبَ أن ترضى بمنقصةٍ ... يا ليتَ شعريَ هل ألبابهم عدموا
يقودهم أرْمَنِيٌّ لا خَلاقَ له ... كأنّه بينهُمْ من جهله عَلَمُ
اللّهُ يعلمُ أنّي ما دعوتكُمُ ... دُعاء ذي تِرة يوماً فينتقم
ولا التجأتُ لأمرٍ يُستعانُ به ... من الأمور وهذا الخلقُ قد عَلموا
لكن لأجزي رسولَ الله عن رَحِم ... تُنْمي إليه وتُرْعى تلكم الذِّمَمُ
فإنْ أتيتم فحبلُ الوَصْل متَّصِلٌ ... وإن أبيتم فَعِنْدَ السَّيْفِ نَحْتكِمُ

فلما وقفوا على الشعر مالوا إلى المنصور وانحرفوا عن قراقوش.

وله مُوَشَّحاتٌ حَسَنة عملها في جارية له يهواها تسمى ساحر، وقيل إن هذه الموشحة لابن زهر المغربي:

هل ينفعُ الوجدُ أو يفيدْ ... أو هل على من بكى جناحْ
يا شقَّةَ القلب غِبْت عني ... فالليلُ عندي بلا صباحْ[1]

٢ - «المُقْرِىء»[2] يعقوب بن يوسف بن عمر بن الحسين بن المُعَمر، أبو محمد المقرىء البغدادي. كان من أعيان القرّاء المجوّدين الضّابطين، وكان الله تعالى قد يسّر عليه التّلاوة حتى إنّه كان إذا ركع ركعتي تحيّة المسجد قرأ فيهما سبعاً من القرآن أسرعَ من قراءة غيره جزءاً واحداً. قرأ بالروايات على الحسين بن محمد بن عبد الوهاب الدّباس، ومحمد ابن الحسين المَزْرَفي، ومحمد بن خضر خطيب المحوّل وغيرهم. وسمع الكثير من ابن الحصين، وابن كادش، ومحمد بن محمد بن الحسين بن الفرّاء، وأحمد بن علي بن المُجْلي، وغيرهم؛ وحدّث بالكثير وأقرأ كثيراً من الناس.

قال محب الدين ابن النجار: وكان صدوقاً تغيَّر واختلَط في سنة ثمانين وخمس مائة، وتوفي سنة سبع وثمانين وخمس مائة، رحمه الله تعالى.

٣ - «المعزّ بن صلاح الدين»[3] يعقوب بن يوسف الملك المعزّ، ويقال الأعزّ، شرف

(١) انظر «الموشح في ميزان الذهب في صناعة شعر العرب»(١٥٦).

(٢) انظر ترجمته في «التكملة لوفيات النقلة» (١/ ١٦٠)، و«غاية النهاية» (٢/ ٣٩١).

(٣) انظر ترجمته في «النجوم الزاهرة» (٦/ ٦٢)، و«مفرج الكروب» (٣/ ٢٧٤)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٦٢٤ - ٦٢٧)، و«التكملة الوفيات النقلة»، و«ترويح القلوب» (٩٤).

الدين أبو يوسف بن السلطان صلاح الدين الناصر بن أيوب. ولد سنة اثنتين وسبعين وخمس مائة وتوفي سنة أربع وعشرين وست مائة. وسمع من عبد الله بن بَرّي وابن أسعد الجواني، وقرأ القرآن على الأرتاحيّ وكان متواضعاً كثير التلاوة ديِّناً. حدث بالحرمين ودمشق وكان صدوقاً؛ وتوفي بحلب رحمه الله تعالى.

٤ ـ «ابن الدّقاق»(١) **يعقوب بن الدقّاق أبو يوسف.** كان مستملي أبي نصر صاحب الأصمعي. قال: كُنّا يومَ جمعة بقُبَّةِ الشُّعراء في رحبة مسجد المنصور نتناشد، وكنت أعلاهم صوتاً، إذ صاح بي صائح من ورائي: يا منتوف! فتغافلتُ كأنّي لم أسمع فقال: ويلك يا أعمى، يا أعمى لما لا تتكلم؟ فقلت: من هذا؟ قال: أبو دانق المُوَسْوَس، فالتفت إليه فقال: ويلك هل تعرف أحسن من هذا البيت أو أشعر من قائله: [من المنسرح]

ما تنظرُ العينُ منه ناحيةً ... إلاّ أقامت منه على حَسَنِ

فقلت كالمحاجز له: لا، فقال: لا أمَّ لك، هلاّ قلت: نعم، قولُه: [من الهزج]

يزيدُك وجهُهُ حسناً ... إذا ما زُدْتَه نَظَرا

ثم وثب وثْبَةً إلى جانبي وأقبل عليّ وقال: يا عميّ، صِفْ لي صورَتك الساعة على البديهة وإلاّ أخرجتك من بزّتك، ثم أقبل على من كان حاضراً فقال: طلمناه ظلمناه، هو ضرير لم يرَ وجهَه فمن أحسن مِنّا أن يصفه فليصفه، وكان على الحقيقة أقبحَ الناس وجهاً، وكان يحلق شعر رأسه وشعر لحيته وشعر حاجبيه ويدّهن، قال: فلم يتكلم أحد، فقال: اكتبوا صفته في رأسه وأنشد: [من الوافر]

أشَبِّهُ رأسَه لولا رجارٌ ... لعينيه ونَضْنضةُ اللسانِ
بأضخم قرعةٍ عظُمت وتمّت ... فليس لها لدى التمييز ثاني
إذا عليت أسافلُها أنالت ... دعائمُ رأسها نحو اللبان
فكان لنا مكانُ الجيد منها ... إذا اتصلت بممسكة الجران
لها في كلِّ شارقةٍ وبيصٌ ... كأن بريقَها لمعُ الدهان
فلا سُلِّمْتَ من حذري وخوفي ... متى سَلِمَتْ صفاتُك من بناني

ووثب إليّ فحالت الأيدي بينه وبيني.

٥ ـ «الجبان»(٢) **أبو يعقوب الجبان.** قال ياقوت: لم يقع إليّ اسمُه ووجدتُه مذكوراً في

---

(١) انظر ترجمته في «عيون التاريخ» (٦/ ٤٩).

(٢) لم أعثر على ترجمته.

«كتاب إصبهان» ولا شكَّ في كونه من إصبهان. قال حمزة بن الحسن في «كتاب إصبهان»: أبو يعقوب الجبان مُؤَدِّب المكتفي، قال: [من المتقارب]

إذا المشكلاتُ تَصَدَّيْن لي ... كشفتُ حقائِقَها بالنظرْ
وإن بَرَقَتْ في مَخِيلَ الصَّوا ... بِ عمياءُ لا يجتليها البَصَرْ
مقنَّعةٌ بظلام الغيوب ... سَلَلتُ عليها حُسَامَ الفِكَرْ
ولستُ بإِمَّعةٍ في الرِّجال ... أُسائل هذا وذا ما الخبرْ
ولكنني وافرُ الأَصْغَرَيْن ... أقيسُ على ما مضى ما حَضَرْ

وقال أيضاً: [من الطويل]

لقد ساء أقواماً بقائي لِعِلْمِهم ... بعلمي بآباءٍ لهم سلفوا قبلي
وسَرَّ بقائي آخرين لعلمِهم ... بأن ليس عن أحسابهم ذائدٌ مثلي

وقال أيضاً: [من الكامل]

دُنيا دَنَتْ من جاهلٍ وتباعدتْ ... عن كلِّ ذي لُبٍّ له حِجْرُ
سَلَحَتْ على أربابها حتى إذا ... صارتْ إليَّ أصابها حَصْرُ

«الألقاب» اليعقوبي: اسمه محمد بن يعقوب بن عبد الله.

يَعْلَى

٦ - **«أبو المنذر العروضي» يَعْلى بن عَقيل، أبو المنذر العروضي العَنَزيّ**[(١)]. كان من العلماء أصحاب الرواية وكان يؤدّب أبا عيسى ابن الرشيد. قال: كنت أطلب فصاً أكتب عليه «أبو المنذر يعلى بن عقيل يشهد ألاّ إله إلاّ الله مخلصاً»، واشتهيت أن أجعَله حديداً؛ فدخلت على أبي عيسى ابن الرشيد وكان في حجري، يعني أؤدِّبه، فرأيت في يده فَصّاً أحمرَ كبيرَ المقدار يسع ما أريده من الكتابة، فسألته عنه، فأعلمني أنّ الرشيدَ دعا به واستنشده وسأله عن أشياء فأجابه فأنشده وأحسن فأعجبه، فأحمد أثري وأمر لي بالفص وخلعة وفرس وعشرة آلاف درهم، وأمر لأبي عيسى بثلاثين ألف درهم، وصرف أبو عيسى كلَّ ذلك إليّ، فكرهتُ الفَرَسَ، فاشتراه أبو عيسى منّي، فبلغ ذلك الرشيد فاستحسنه، وأمر له بمائة ألف درهم وأمر لي بخمسين ألفاً، وأوصى أبو المنذر أن يُدْفَنَ الفصُّ معه ففُعل ذلك.

ومن شعره يمدح أبا دُلَف: [من الطويل]

(١) انظر ترجمته في «تاريخ بغداد» (١٤/ ٣٥٤)، و«الأنساب» (٨/ ٤٣٨).

إذا خفتَ من أمْرٍ عداء وصولةً — فنبِّه لها ذا المكرُمات أبا دلف
تُنَبِّه فتىً قد زيّن اللّهُ أمرَه — وقدَّمه في البأس والحمد والشرف
ليفدك من أصبحت إن ذكر الندى — أقرّ على رغم بفضلك وٱعْتَرَفْ
ومن لم تزل تكفيه كلُّ عظيمة — وتدفع عنه ما يخافُ من التَّلَفْ
فعِشْ سيداً وانعم كريماً ولا — تزل رجاء لمن ناداك باسمك أَوْ هَتَفْ

٧ - «الصحابي»[١] **يَعْلى بن أمية بن أبي عبيدة بن همام بن الحارث بن بكر بن زيد بن مالك، أبو صفوان الحَنظلي**، وأكثرهم يقول: أبو خالد. أسلم يوم الفتح وشهد حُنيناً والطائف وتبوك. وقيل: أبو أميّة، وأمّه مُنْيَة، وقيل: أُميّة أمُّهُ واختُلِف في ذلك كثيراً. استعمله أبو بكر على بلاد [خَوْلان] في الرّدة؛ ثم عمل لعمر على بعض اليمن فحمى لنفسه حمىً، فبلغ ذلك عمر فأمر أن يمشي على رجليه إلى المدينة، فمشى خمسة أيام أو ستّة إلى صعدة، وبلغه موت عمر فركب وقدم المدينة على عثمان فاستعمله على صنعاء؛ ثم وفد على عثمان، فمر عليٌّ على بابِ عثمانَ فرأى بغلةً جوفاءَ عظيمة هائلة فقال: لمن هذه؟ فقيل: ليعلى فقال: ليعلى والله. وكان عظيم الشأن عند عثمان. وله يقول الشاعر: [من الطويل]

إذا ما دُعي يعلى وزيدُ بن ثابتٍ — لأمرٍ ينوبُ النَّاسَ أو لخطوبِ

وكان على الجَنَد فلما بلغه مقتل عثمان أقبل ينصره، فسقط بعيره في الطريق فانكسرت فخذه، فأقبل مكة بعد انقضاء الحج فخرج إلى المسجد وهو كسير على سرير، فاستشرف إليه الناس واجتمعوا فقال: من خرج يطلب بدم عثمان فعليَّ جهازُه. وقيل: أعان الزبير بأربع مائة ألف وحمل سبعين رجلاً من قريش، وحمل عائشة رضي الله عنها على جمل يقال له عسكر وكان اشتراه بمائتي دينار.

قال ابن عبد البر: كان يعلى بن أمية سخياً معروفاً بالسخاء وقتل بصفين مع علي بن أبي طالب سنة ثمان وثلاثين بعد أن شهد الجمل مع عائشة.

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٣/ ١٠٠)، و«طبقات ابن سعد» (٥/ ٤٥٦)، «طبقات خليفة: ت ٢٩»، «التاريخ الكبير» (٨/ ٤١٤)، و«المعرفة والتاريخ» (١/ ٣٠٨)، «الجرح والتعديل» (٩/ ٣٠١)، «جمهرة أنساب العرب» (٢٢٩)، «الاستيعاب» (١٥٨٤)، «الجمع بين رجال الصحيحين» (٢/ ٥٨٦) «أسد الغابة» (٥/ ١٢٨)، «تهذيب الأسماء واللغات» (١/ ٢/ ١٦٥) و«تهذيب الكمال» (١٥٥٤)، و«تاريخ الإسلام» (٢/ ٣٢٦)، و«تهذيب التهذيب» (٤/ ١٨٧أ)، «العقد الثمين» (٧/ ٤٧٨) «الإصابة» (٣/ ٦٦٨)، «تذهيب التهذيب» (١١/ ٣٩٩)، «خلاصة تذهيب الكمال» (٣٧٦) «أمالي اليزيدي» (٩٦) «أسماء الصحابة الرواة» (٢٨١)، «الوسائل إلى مسامرة الأوائل» (٣٤، ١٢٩)، «ذيل المذيل» (٤٠).

ويقال إنّه تزوّج بنتَ الزبير وبنتَ أبي لهب.

وروى له الجماعة عن عبد الرحمن بن عبيد، قال: قال علي بن أبي طالب عليه السلام، منيت بأطوع الناس في الناس: عائشة، وبأدهى الناس: طلحة، وبأشجع الناس: الزبير، وبأكثر الناس مالاً: يعلى بن مُنية، وبأجود الناس: عبد الله بن عامر؛ فقام إليه رجل من الأنصار فقال: يا أمير المؤمنين والله لأنت أشجعُ من الزبير وأدهى من طلحة وأطوع فينا من عائشة وأجود من ابن عامر، ولمالُ الله أكثر من مال يعلى، وليكوننَّ كما قال الله عزَّ وجلَّ ﴿**فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون**﴾ [الأنفال: ٦/٣٦] فَسُرَّ علي بقوله.

قال أبو مخنف: أقرض يعلى بن منية الزبير بن العوام حين خرج إلى البصرة في وقعة الجمل أربعين ألف دينار فقضاها ابن الزبير بعد ذلك لأن أباه قتل يومئذٍ ولم يقضها.

ولما صاروا إلى البصرة تنازع طلحة والزبير في الصلاة فاتّفقا على أن يصلّي ابنُ هذا يوماً وابنُ هذا يوماً؛ فقال شاعرهم في ذلك: [من المتقارب]

تبارى الغُلامان إذْ صلّيا ... وشحَّ على المُلاك شيخاهُما

وما لابن طلحة وابن الزبير ... وهذا بذي الجزع مولاهما

فأمُّهما اليوم غرَّتهما ... ويعلى بن منية دلَّاهما

٨ - «**العامري الصحابي**»[١] **يَعْلى بن مُرَّة بن وُهَيْب بن جابر العامري**. أمه سَيَّابة وربما نسب إليها. ويكنى أبا المرزام. شهد مع رسول الله ﷺ، الحديبية وخيبر والفتح وحنيناً والطائف. وروى عنه ابنه عبد الله بن يعلى، والمنهال بن عمرو وغيرهما. يُعَدُّ في الكوفيين، وقيل إنّه بصري وله دار بالبصرة.

وروى له الترمذي والنسائي وابن ماجه.

٩ - «**الهاشمي الصحابي**»[٢] **يعلى بن حمزة بن المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي**. قال مصعب: لم يعقب أحد من بني حمزة بن عبد المطلب إلاّ يعلى وحده فإنه ولد له خمسة رجالل لصلبه وماتوا كلهم عن غير عقب فلم يبق لحمزة عقب.

١٠ - «**الصحابي**»[٣] **يعلى بن حارثة الثقفي حليف لبني زهرة بن كلاب**. قتل يوم

---

(١) انظر ترجمته في «أسد الغابة» (٥/١٢٨)، «تهذيب التهذيب» (١١/٣٩٩)، «أسماء الصحابة الرواة» (٢٨١)، «الأعلام» (٨/٢٠٤)، و«الإصابة» (٦/٣٥٣)، و«طبقات ابن سعد» (٦/٢٦).

(٢) انظر ترجمته في «أسد الغابة» (٥/٥٤٣).

(٣) انظر ترجمته في «الإصابة» (٦/٣٥٣)، و«أسد الغابة» (٥/٥٤٢).

اليمامة شهيداً، كذا قاله أبو معشر، وقال ابن إسحاق: حُيَي بن حارثة.

١١ ـ «الأَرْبُسي»[1] **يعلى بن إبراهيم الأَرْبُسي، تأدّب بالقيروان. قال ابن رشيق في الأنموذج:** كان شاعراً مجوداً، مليحَ الكلام، حسن النظام، لألفاظه حلاوةٌ وعليها طلاوة، ويذهب إلى الفلسفة في شعره ويغرب في عباراته وربما تكلّف قليلاً، وكانت له مكانة من الخطّ والترسُّل وعلم الطب والهيئة.

قال: اجتمعت به مرّة وأنا حديثُ السِّن، لم أكن قبلها رأيته، فأخذ في ذكر الشعراء وغَضَّ من عبد الكريم، وقال: هو مؤلف كلام غير مخترع؛ فأغلظت له في الجواب، فالتفت إليّ مُنْكِراً عَلَيَّ، وقال: وأنت ما دخولك بين الشيوخ يا بُنَيّ؟ فقلت: ومن يكون الشيخ أبقاه الله؟ فعرّفني بنفسه ثم أخرج رقعة بخطه فيها من شعره: [من البسيط]

إياةُ شمس حواها جسمُ لؤلؤةٍ ... تغيب عن لُطُفٍ فيها ولم تَغِبِ

صفراءُ مثل النُّضار السَّكْبِ لابسةٌ ... درعاً مكللةً دُرّاً من الحَبَبِ

لم يتركِ الدهرُ منها غيرَ رائحةٍ ... تضوّعت وَسَناً ينساحُ كاللَّهَبِ

إذا النديمُ تلقّاها ليشربَها ... صاغت له الراحُ أطرافاً من الذَهَبِ

فقال: كيف رأيت؟ فقلت وأردت الاشتطاط عليه: أمّا البيتُ الأوّل فناقصُ الصنعة، مسروقُ المعنى، فيه تنافر. قال: وكيف ذلك؟ قلت: لو كان ذكر الياقوتة مع اللؤلؤة كما قال أبو تمام: [من الكامل]

أو دُرَّةٌ بيضاءُ بكر أطبقت ... حبلاً على ياقوتةٍ حمراء

لكان أتمَّ تصنيعاً وأحسنَ ترصيعاً، ولو ذكرتَ روحَ الخمر مع جسم الكأس لكان أوفقَ للمعنى، ولو قلت مع قولك: «إياة شمس حواها نهار» وعنيت به الكأس، كما قال ابن المعتز، ويُروى للقاضي التنوخي: [من المتقارب]

وراحٍ من الشمس مخلوقة ... بدت لك في قدحٍ من نهارِ

لكنت قد ذهبت إلى شيء غريب عجيب.

وأمّا قولُك «تغيب من لطف فيها ولم تغب»، فمن قول البحتري: [من الكامل]

تخفي الزجاجةُ لونَها فكأنّها ... في الكأس قائمةٌ بغيرِ إناءِ

وأمّا البيتُ الثاني فأكثر من أن ينبّه عليه. وأمّا البيتُ الثالث فمن قول ابن المعتز: [من

(١) انظر ترجمته في «معجم البلدان» (١/ ١٣٦).

البسيط]

أبقى الجديدان من موجودها عدما　　لوناً ورائحة من غير تجسيم

وأما البيت الأخير فمن قول مسلم بن الوليد: [من الطويل]

أغَارتْ على كفّ المُديرِ بلونها　　فصاغَتْ له منها أنامل من ذَبْلِ

وقوله أيضاً: [من الطويل]

إذا مسّها الساقي أعارت بنانه　　جلابيب كالجاديّ من لونه صُفرا

وفيه عيب يقال له: التوكؤ، وهو تكريرُك ذكر الراح وهو مُستغنى عنه قال: فبماذا كنت تسدّ مكانه؟ قلت: كنت أقول:

«صاغت ليمناه أطرافاً من الذهب»

وأنشدتُه لنفسي دون أنْ أعلمه: [من الطويل]

معتقة يعلو الحباب جنوبها　　فتحسبه فيها نثير جمان

رأت من لجين راحة لمديرها　　فجادت لها من عسجد ببنان

ثم أنشد يصف بُستاناً: [من البسيط]

يفيض بالماء منه كلُّ فوَّهَةٍ　　لكل فوّارة بالماء تنذرف

كأنها بين أشجار منوّرة　　ظلّت بمستجلس اللبلاب تستجف

مجامر تحت أثواب مخَلَّبَةٍ　　على مساحيها دُخانُها يَهِفُ

وقال: هل تعلم في هذه الأبيات شيئاً؟ ولم أُرِدْ بعدُ مكاشفَتَه فأضربتُ عن أبياتِ علي بن العباس الرّومي تشبيهه المجمرة بالفوارة وإنما عَكَسَهُ يعلى؛ وقلت قريباً منه وأنشدته لنفسي: [الخفيف]

وكأنَّ الأشجارَ في حُلَلِ الأنـ　　ـوار والغيثُ دمعُه غيرُ راقِ

غانياتٌ رُششنَ من ماء وردٍ　　فَخَبَأْنَ الوجوهَ في الأطواقِ

فقال: لمن أنشدتني بدءاً وعودة؟ قلت: لمن أنكرت عليه أنْ يدخلَ بين الشيوخ، وعُرِّفَ بي فاستصحبني من ذلك اليوم.

١٢ ـ «الطنافِسي»[١] **يعلى بن عُبَيْد، أبو يوسف الطنافسي العابد**، أحد الإخوة؛ عن

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٩/٤٧٦)، «طبقات ابن سعد» (٦/٣٩٧)، «تاريخ خليفة» (٤٧٣)، «طبقات خليفة» (٣١٢)، «التاريخ الكبير» (٨/٤١٩).

ابن معين: ثقة. وقال أبو حاتم: هو أثبت أولاد أبيه في الحديث. توفي، رحمه الله تعالى، لخمس خلون من شوال سنة تسع ومائتين. وروى له الجماعة كلُّهم.

١٣ ـ «الأحول»[1] يعلى بن مسلم بن أبي قيس، أحد بني يشكر بن عمرو. شاعر إسلامي لصّ من شعراء الدولة الأموية، وكان أحول، وكان خليعاً يجمع صعاليك الأزد وخلعاءهم فيغير بهم على أحياء العرب، ويقطع الطريق على السَّابلة، فشكا الناسُ أمرَه إلى نافع بن علقمة والي مكة، وهو خال مروان بن الحكم، فلم يزل يراصده إلى أن أُتي به فقيَّده وحبسه فقال في مَحْبَسِه: [من الطويل]

أَرِقْتُ لبرقٍ دونَه شدوانِ ... يمانٍ وأهوى البرقَ كلَّ يمانِ
فبتُّ لدى البيتِ الحرام أشيمُهُ ... ومطوايَ من شوقٍ له أرِقان
إذا قلت شِيماهُ، يقولان والهوى ... يصادف مِنّا بعضَ ما تريانِ

منها:

ألا ليت حاجاتي اللواتي حَبَسْنني ... لدى نافعٍ قُضِّين منذ زمانِ
وما بيَ بُغْضٌ للبلاد ولا قلىً ... ولكنَّ شوقاً في سواه دعاني[2]

يَعْمُر

١٤ ـ «الصحابي»[3] يَعْمُر السَّعدي، والد أبي خُزامة؛ حديثه عن ابن شهاب. سمع أبو خزامة ابن يعمر عن أبيه أنه قال: «يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقي بها هل تردّ من قدر الله؟ فقال النبي ﷺ: إن ذلك من قدر الله عزّ وجلّ»[4].

يعيش

١٥ ـ «الصحابي»[5] يعيش بن طِخفة الغفاري الصحابي. حديثه عند ابن لهيعة، وهو

---

(١) انظر ترجمته في «الأغاني» (٢٢/١٤٧) (٢/٣١٤)، «المعارف» (٥١٧)، «الجرح والتعديل» (٩/٣٠٤)، «مشاهير علماء الأمصار» (ت١٣٨٢)، «تهذيب الكمال» (لوحة: ١٥٥٥). «تذهيب التهذيب» (٤/١٨٨/١)، «العبر» (١/٣٥٧)، «تذكرة الحفاظ» (١/٣١٤)، «الكاشف» (٣/٢٩٥)، «دول الإسلام» (١/١٢٩)، «شرح العلل» لابن رجب (٢/٦٦٩)، «تهذيب التهذيب» (١١/٤٠٢)، «طبقات الحفاظ» (١٤٠)، «خلاصة تذهيب الكمال» (٤٣٨)، «شذرات الذهب» (٢/٢٣).

(٢) الأبيات: في «الأغاني» (٢٢/١٤٨).

(٣) انظر ترجمته في «الإصابة» (٦/٣٥٤)، و«أسد الغابة» (٥/٥٤٥).

(٤) لم أعثر عليه.

(٥) انظر ترجمته في «الإصابة» (٦/٣٥٤)، و«أسد الغابة» (٥/٥٤٦)، و«الجرح والتعديل» (٩/٣٠٩).

شامي. قال: سمعت عبد الرحمٰن بن جُبَيْر بن نُفَير يحدّث عن يعيش بن طخفة الغفاري: أنّ رسول الله ﷺ، أُتي بناقة فقال: من يحلبها؟ فقام رجل فقال: أنا، فقال: ما اسمك؟ قال: مُرّة، فقال: اقعد، ثم قام الآخر فقال: ما اسمك؟ فقال حمزة، قال: اقعد، قال يعيش فقمت، فقال: ما اسمك؟ قلت: يعيش، قال: احلب[١].

١٦ ـ «الجُهني ذو الغُرّة»[٢] يعيش الجُهنيّ ذو الغُرَّة، يقال الطائي ويقال الهلالي. صحابي روى عنه عبد الرحمٰن بن أبي ليلى عن النبي ﷺ في النَّهي عن الصلاة في أعطان الإبل والأمر بالوضوء من لحومها، وقال: «لا توضؤوا من لحم الغنم وصلّوا في مراحها»[٣].

١٧ ـ «أبو البقاء الأسدي النحوي»[٤] يعيش بن علي بن يعيش بن أبي السرايا محمد بن علي بن المفضل، العلامة موفق الدين أبو البقاء الأسدي، الموصلي الأصل الحلبي النحوي، ولد بحلب سنة ثلاث وخمسين وخمس مائة، وتوفي سنة ثلاث وأربعين وست مائة. وسمع بها وبالموصل، وكان يعرف أولاً بابن الصائغ، وكان من كبار أئمة العربية، تخرج به أهل حلب وطال عمره وشاع ذكره. وأخذ النحو عن أبي السَّخاء الحلبي، وأبي العباس المغربي، وليسا بمشهورين. وقَدِم دمشق وجالس الكندي وسأل عن قول الحريري «حتى إذا لألأ الأُفق ذَنبُ السِّرحانِ»، فتوقَّفَ وقال: علمت قصدك، إنك أردت إعلامي بمكانك من النحو. وذكر ابن خلكان أنّه قرأ عليه معظم «اللّمع»[٥] لابن جني، وقال: حضرته وقد طوّل شرح هذا البيت وأوضح، والشخص الذي يشرح له ساكتٌ مُنصت إلى الأخذ؛ ثم قال: يا سيدي أَيْشٍ في المليحة ما يُشبِه الظبية؟ قال: قرونها وذنبُها، فضحك

---

(١) الحديث: ذكره ابن الأثير في «أسد الغابة» (٥/٥٤٦).

(٢) لم أقف على ترجمته.

(٣) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٢٥٠)، وأخرجه الطبراني في «الكبير» برقم (٥٥٨).

(٤) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٢٣/١٤٤)، «إنباه الرواة على أنباه النحاة» للقفطي (٤/ ٣٩ـ ٤٤) «الترجمة» (٨٢٣)، «عقود الجمان في شعراء هذا الزمان» لابن الشعار الموصلي (نسخة مكتبة أسعد أفندي) (٢٣٣٠) جـ ١٠، الصفحة (١٠٨أ) «وفيات الأعيان» (٧/٤٦ ـ ٥٣)، «الترجمة» (٨٣٣)، «صلة التكملة» للحسيني الورقة ٣١، «تاريخ أبي الفداء» (٢/١٧٤)، «تاريخ الإسلام» للحافظ الذهبي (٣٠١٣ أيا صوفيا) جـ ٢٠ الورقة ٤٦، «العبر للذهبي» (٥/١٨١)، «تلخيص أخبار النحويين واللغويين» لابن مكتوم النسخة التيمورية (ص ٢٧٤)، «النجوم الزاهرة» (٦/ ٣٥٥)، «بغية الوعاة» للسيوطي (٢/٣٥١ ـ ٣٥٢)، «الترجمة» (٢١٦٥)، «شذرات الذهب» (٥/٢٨).

(٥) اللمع: وهو «اللمع في النحو» لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي المتوفى سنة (٣٩٢) جمعه من كلام شيخه أبي علي الفارسي واعتنى به جماعة اهـ «كشف الظنون» (٢/١٥٦٢).

الجماعةُ وخَجِل الرَّجل، والبيت المذكور: [من الطويل]

أيا ظبيةَ الوعساء بين جُلاجلٍ وبين النقا آأنتِ أمْ أُمُّ سالمِ

وروى عنه الصاحب ابن العديم، وابن مجد الدين، وابن الخلوانية، وابن هامل، وبهاء الدين أيوب بن النحاس، وأخوه أبو الفضل إسحاق، وسنقر القضاي، والحافظ ابن الظاهري أبو العباس، وأبو بكر بن أحمد الدَّشْتي وهو آخر من حَدَّث عنه. وكان موفّق الدين ظريفاً مطبوعاً خفيف الروح مع سكينة ورزانة، وله نوادر كثيرة، وكان طويل الروح حسن التفهيم، وعامةُ فضلاء حلب تلامذته. شَرَح «المفصّل»[1] للزمخشري، و«التصريف»[2] لابن جنّي. وقال موفق الدين: وردت إلى حمص مرّةً فصنع لنا رجلٌ من أهلها طعاماً واحتفل به، وكان في جملته قرعٌ بلبن وكان إلى جانبي رجل انبسط عليه فجعل يأكل منه، ووافقه آخرُ إلى جانبه، فناديت صاحب المنزل: زِدْنا من الطّعام فإن أصحابنا يأكل بعضُهم بعضاً، فانقلب المجلس بالضحك. وقال: لا أعرف لنفسي شعراً إلاّ أبياتاً قلتها في السلطان الملك الظاهر غازي وهي: [من البسيط]

يا أيُّها الملكُ الميمونُ طائرُه ومن سحابِ نداهُ الدَّهر هَطَّالُ

ومَنْ صوارمُه في كلِّ معركة جوازمٌ وطلى أعداه أفْعَالُ

ما زال يَعْسِفُني دهرٌ حوادثُه حَوْلٌ لأهل النهى والفضل تَغتالُ

متى انضويتُ إلى أحشاءِ بِرِّك بي لما ظلمت ولما حالت الحالُ

وقُلْتُ من حيث آمالي مُهاجِرَةٌ إليك يا من له فضْلٌ وإفضالُ

لي حرمةُ الضيف والجارِ القديم ومن أتناكُمُ وكهولُ الحيِّ أطفالُ

وقال القاضي شمس الدين أحمد بن خلكان: وكُنّا نقرأ عليه يوماً بالمدرسة الرواحية فجاءه رجل من الأجناد وبيده مسطور بِدَيْن، وكان الشيخ له عادة بالشهادة في المكاتيب الشَّرعية، فقال له: يا مولانا اشهدْ عليّ في هذا المسطور، فأخذه الشيخ من يده وقرأ أوّله: «أقرّت فاطمة»؛ فقال له الشيخ: أنت فاطمة؟ فقال الجندي: يا مولانا السّاعة تحضر، وخرج إلى باب المدرسة وأحضرها وهو يتبسّم من كلام الشيخ. قال: وكنّا يوماً نقرأ عليه

---

(١) «شرح المفصل»: (المفصل في النحو) لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري اهـ، انظر «كشف الظنون» (٢/ ١٧٧٥).

(٢) التصريف: واسمه «التصريف الملوكي» لأبي الفتح عثمان بن جني النحوي، وهو مختصر لطيف أوله: هذه جمل من أصول التصريف شرحه يعيش بن علي اهـ. «كشف الظنون» (١/ ٤١٢).

في داره فعطش بعض الحاضرين وطلب من الغلام ماءً فأحضره، فلمّا شربه قال: ما هذا إلاّ ماء باردٌ، فقال له الشيخ: لو كان خبزاً حاراً أكان أحب إليك؟ قال: وكُنّا يوماً عنده بالمدرسة الرواحية فجاء المؤذِّن وأذّن قبل العصر بساعة جيدة، فقال له الحاضرون: أَيْش هذا يا شيخ وأين وقتُ العصر؟ فقال الشيخ موفق الدين: دعوه عسى أن يكون له شغل وهو مُسْتَعْجل. قال: وكان يوماً عند القاضي بهاء الدين المعروف بابن شدّاد قاضي حلب، فجرى ذكر زرقاء اليمامة، وأنها كانت ترى الشيءَ من المسافة البعيدة حتى قيل إنّها تراه من مسافة ثلاثة أيام، فجعل الحاضرون يقولون ما علموه من ذلك، فقال الشيخ: أنا أرى الشيء من مسافة شهرين، فتعجّب الكلُّ من قوله وما أمكنهم أن يقولوا له شيئاً، فقال له القاضي: كيف هذا يا موفق الدين؟ فقال: لأني أرى الهلال، فقال له: كنت تقول من مسافة كذا كذا سنة، فقال: لو قلت هذا عرف الجماعة الحاضرون غرضي وكان قصدي الإبهام.

١٨ - «أبو القاسم الشافعي»[١] **يعيش بن صَدَقة بن علي، أبو القاسم الفُراتي الضرير الفقيه الشافعي، صاحب ابن الخلّ.** كان إماماً صالحاً بارعاً في معرفة المذهب والخلاف سديد الفتاوى حسن المناظرة، توفي سنة ثلاث وتسعين وخمس مائة.

١٩ - «الحنبلي»[٢] **يعيش بن ريحان بن مالك أبو المكارم الأنباري الحنبلي، أبو محمد.** قدم بغداد واستوطنها وقرأ بها الفقه وبرع فيه وصار من المشايخ المشار إليهم، وسكن مدرسة الوزير ابن هُبَيْرة، وكان الفقهاء يقرؤون عليه. سمع الحديث من سعد الله بن نصر بن الدَّجاجي ومن الكاتبة شُهْدة ومن جماعة من المتأخرين. قال محب الدين بن النجار: كتبنا عنه، وكان صدوقاً رحمه الله تعالى؛ وتوفي سنة اثنتين وعشرين وست مائة.

يغمور

٢٠ - «ابن العُكْبَري الأمير»[٣] **يغمور بن عيسى بن العكبري الأمير.** قال العماد الكاتب: هو من أولاد الأتراك بدمشق وأمرائها، ذو فضائل مفرطة وشمائل حلوة وفطنة

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٣٠٠) ترجم له ابن الأثير في «الكامل» (١٢/ ٥٥) والمنذري في «التكملة» (٤١٠)، والنعال البغدادي في «مشيخته» (١٣٥) وهو الشيخ الرابع والأربعون فيها والذهبي في «تاريخ الإسلام» الورقة (٧٤) (باريس ١٥٨٢) و«المشتبه» (٥٠١)، والصفدي في «نكت الهميان» (٣١٢) والسبكي في «الطبقات» (٧/ ٣٣٨)، وابن الملقن في «العقد المذهب» الورقة (١٦٥)، والغساني في «العسجد» الورقة (١٠١) وابن عبد الهادي في «معجم الشافعية» الورقة (١١٢).

(٢) انظر ترجمته في «شذرات الذهب» (٥/ ١٠٦).

(٣) انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام (١/ ٣٥٤).

متيقِّظة، شاب من جملة الأمراء مُقدّم مِقْدام، خان أملُه وحان أجلُه وفلَّ الشبا الطرير من شبابه الطري؛ وجرى القدرُ بأفول كوكبه الدُرّي.

وأورد له من شعره: [من الطويل]

أَخٌ لي على جَوْر الزَّمانِ وعَذْله وعوني على اسْتهضامِه ونَوَالِه
إذا غالني خَطْبٌ وقاني بنفْسِهِ وإن نالني جَدْبٌ كفاني بمالِه
فلا زال معمورَ الجناب مُسَلَّماً ولا زالت الأقدارُ طوعَ مَقَالِه

الألقاب

اليغموري الحافظ: اسمه يوسف بن أحمد.

اليغموري: محمد بن إسحاق بن يغمور.

الأمير شهاب الدين أحمد بن موسى بن يغمور.

بنت يقطين الكاتبة: اسمها الرضا، تقدم ذكرها في حرف الراء.

يقطين

٢١ ـ «أحد دعاة العباسيين»[(١)] **يقطين بن موسى، أحد دُعاة بني العباس وممّن قرّر أَمْرَهم، وكان داهية حازماً شُجاعاً.** ولمّا حبس مروان بن محمد إبراهيمَ الإمام تحيّرت الشيعةُ لا يدرون مَنِ الإمام بعده. فقال لهم: أنا أخبركم؛ فغيّر زيّه وأتى حرّان فوقف لمروان فقال: يا أمير المؤمنين أنا رجل غريب تاجر قدمت بمتاع فبعث إليَّ إبراهيمُ فاشتراه مني ومطلني ثمنه، وقد حبسته، فإن رأيت أن تجمع بيني وبينه وتأخذ لي بحقي منه. فقال مروان لبعض خدمه: اذهب معه إلى إبراهيم وقل له يخرج من حَق هذا الرجل، فمضى معه فلمّا دخل عليه قال له: إلى متى تمطلني بدَيْني وإلى من أوصيتَ أن يَدْفَعَ إليَّ مالي؟ فقال: إلى ابن الحارثيّة. فعاد إلى الشيعة وأخبرهم أنّ أبا العباس هو الإمامُ بعده. وكان يقطين عظيماً عند بني العباس، ولاه العباس والمنصور والمهدي الولايات، واطّلع المهدي على ابنه علي ابن يقطين بالزندقة فقتله. وتوفي يقطين ـ رحمه الله تعالى ـ سنة ست وثمانين ومائة.

---

(١) انظر ترجمته في «البداية والنهاية» (١٠/ ١٨٨)، و«تاريخ الطبري» (٣/ ٣٩٠)، و«الأغاني» (٦/ ٢٨٥)، و«الكامل» (٥/ ٤٤ ـ ٦٠)

يلبغا

٢٢ ـ «يَلْبُغا اليحيوي نائب دمشق»[١] يَلْبُغا اليحيوي الأمير الكبير سيف الدين ابن الأمير سيف الدين طابطا الناصري نائب الشام وحلب وحماه. وقد تقدّم ذكرُ والده في حرف الطاء. كان من أكبر الخاصكيّة، ولم يكن في آخر الأمر عند السلطان الملك الناصر أعزّ منه. وهو شكلٌ حسنُ الوجه، مليح الثغر، أبيض اللون، طويلُ القامة، من أحسن الأشكال، قَلَّ أن ترى العيون مثله. كان ساقياً وكانت الأنعام التي تصل إليه من أُستاذه لم يفرح بها أحدٌ قبله، يُطْلِقُ له الخيل بسروجها وعددها وآلاتها، الزركش والذهب المصوغ، خمسة عشر فرساً خمسة عشر فرساً، والأكاديش مائتين مائتين رأساً يُنْعِم بها عليه جشارات؛ ويجهِّزُ إليه الخلع والحوايص وغير ذلك من التشاريف التي يعطيها هو من جهته لمن يحضر له الإنعامات، وبالجملة فكانت الإنعاماتُ التي يُرْسَمُ له بها خارجةً عن الحدّ. وبني له الإسطبل الذي في سوق الخيل تحت القلعة بالقاهرة، لم يُعَمَّر بالقاهرة مثله. وكان هو والأمير سيف الدين مَلَكْتَمُرْ الحجازي قد تولّيا تمريض السلطان لمّا مات. ثم إنّه سأل له في الأيام الصالحية أن يكونَ في حماه نائباً بها، فأُجيب إلى ذلك وجاء إليها عوضاً عن الأمير علاي الدين أَلْطُنْبُغا المارداني؛ وتوجه المارداني إلى نيابة حلب، وجاء الأمير سيف الدين طُقُزْتَمُر من حلب إلى دمشق نائباً في سنة ثلاث وأربعين وسبع مائة، ولمّا مات الأمير علاي الدين أَلْطُنْبُغا المارداني في حلب رسم للأمير سيف الدين طُقُزْتَمُرْ إلى مصر ورسم للأمير سيف الدين يلبغا بنيابة دمشق فدخل إليها يوم السبت ثاني عشر جمادى الأولى سنة ست وأربعين وسبع مائة، وتوجَّه الأمير سيف الدين أرقُطاي إلى حلب نائباً، فأقام الأمير سيف الدين يلبغا اليحيوي بدمشق على حاله، وأرجف الناسُ كثيراً بأنّ الملك الكامل يريد إمساكه بعد الأمير سيف الدين الملك والأمير سيف الدين قُماري، فاستوحش من ذلك وبرّز إلى الجسور بدمشق في خامس عشر جمادى الأولى سنة سبع وأربعين وأقام هناك أياماً، وحضر إليه الأمير حسام الدين طُرُنْطاي البَشْمَقْدار نائب حمص، والأمير سيف الدين أراق نائب صفد، والأمير سيف الدين أَسَنْدَمُر نائب حماه، والأمير سيف الدين بَيْدَمُر البدري نائب طرابلس واجتمع الكلُّ عنده بظاهر دمشق وعسكر دمشق بأجمعهم، وكاتبوا الكامل وخلعوه وظاهروه بالخروج عليه وعدم الطاعة، فكان ما كان من أمر الكامل وخلعِهِ وقتلِهِ على ما تقدّم في ترجمة شعبان الكامل. ولما تولّى المُلك السلطان الملك المظفر حاجي أقرّ الأمير

(١) انظر ترجمته في «البداية والنهاية» (١٤/ ٢٢٢).

سيف الدين يلبغا على حاله في نيابة دمشق، وجعل ابنه أمير محمد أميراً بطلبخاناه، وأمّر الأمير عز الدين طُقْطاي دَوَادَاره أمير طبلخاناه، وعمَّر هو قبة النصر عند مسجد القدم مكاناً كان به مبرزاً، وكان قد عمَّر قبل ذلك القيسارية التي هي برّا باب الفرج، وعمر الحمّامين اللذين بحكر العنابة برّا باب الجابية بدمشق. وشرع في عمارة الجامع الذي بسوق الخيل على نهر بردا في أول سنة ثمان وأربعين وسبع مائة. وفي ثامن عشرين شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وسبع مائة، ورد إليه الأميرُ شمس الدين آقْسنْقُر المُظفّري أمير خازندار وعلى يده كتاب السلطان الملك المظفر بإمساك الأمراء الستة الذين ذُكروا في ترجمة الأمير شمس الدين آقسنقر الناصري، وفيه إعلامه بالواقعة وإطابة خاطرِهِ وتسكينه. فكتب الجواب بالدُّعاء للسلطان وجهّز أستاذ داره سيف الدين آقسنقر معه، واستوحش كثيراً من الواقعة بالأمراء فاستدعىٰ بأمراء دمشق بعد ذلك بيومين وهو في دار السعادة وعرَّفَهم ما جرى، وكتبوا إلى نواب الممالك بالحال. وجهّز الأمير سيف الدين ملك آص إلى حمص وحماه وحلب، وجهّز الأمير علاي الدين طُنْبُغا القاسمي إلى طرابلس، وجاءَه ليلةَ الجمعة مَنْ زادَهُ وحْشَةً، فلم يصبح له بدار السعادة أثرٌ غير نسائه، وانتقل يوم الجمعة بكرة إلى القصر ونزل به، ونزل والدُه وإخوتُه وألزامه ومن معه ومماليكه بالميدان، وكان يركب وينزل إلى يوم الأربعاء، فجاءه الأمير سيف الدين أراي أمير آخور بكتاب السلطان الملك المظفر بطلبه إلى مصر ليكونَ رأسَ أمراء المشورة، وأن نيابة دمشق أنعم بها على الأمير سيف الدين أرْغون شاه نائب حلب. وقال سيف الدين أراي ذلك نِعْمةٌ لأمراء دمشق فتحلّلت عنه العزائم، وتجهّز وطلع إلى الجسور ظاهر دمشق على العادة التي فعلها في السنة الماضية وكان ذلك بعد العصر خامس عشر جمادى الأولى وأقام إلى بعد الصلاة من يوم الجمعة سادس عشر جمادى الأولى. وكانت الملطفات قد جاءت من السلطان إلى أمراء دمشق بإمساكه عشية الخميس، فأنزلوا الصنجق السلطاني من القلعة واجتمعوا بعسكر دمشق تحته وقصدوه. فلمّا علم بذلك ركب في سلاحه، ولما عاين أوائلهم هرب بمماليكه وأهله وهرب معه الأمير سيف الدين قلاوون والأمير ناصر الدين محمد بن جُمَقْ وتبعه الأمير علاي الدين طُغْريل ابن الايغاني الحاجب الكبير والأمير شهاب الدين ابن صبح وغيرهما من أمراء دمشق، فعادوا بعدما أوصلوه إلى خلف ضُمَيْر[1].

وقتل من العسكر جماعة. ثم إنَّ الأمير فخر الدين إياز، السلاح دار نائب صفد، وصل بعسكر صفد إلى دمشق بكرة الأحد ثامن عشر جمادىٰ الأولى وخرج العصر بعسكر

(١) ضمير: وهي موضع قرب دمشق في آخر حدودها تبعد عنها حوالي ثلاثين كيلو متراً وهي حالياً مدينة كبيرة.

دمشق أيضاً وصفد وتوجه بهم إلى حمص؛ وكان العرب قد أنكَوْه ومنعو ا منه الماء واقتطعوا بعض ثقله. وجدّ في طلبه سَلاَّر بن تتر البدري وأخوه بُرَيْد ومنعوه القرار والنوم. وكَلَّ هو ومن معه مَلَّ من حمل السلاح ليلاً ونهاراً وحَمِيَ الحديد عليهم وعاينوا الهلاك واختلف مماليكه عليه حتى تمنى الموت، وقال لهم: بالله وسِّطوني أو اضربوا عنقي؛ كلُّ هذا وهم ما بين القريتين إلى أمهين وصدد. ولما سمعت ذلك قلت: [من الطويل]

تفرَّقَ شملُ السَّعدِ عن يلبغا وقد ... بغى وغدا في عكسه متورطا
فقال له السيفُ الذي شُدَّ وسطه ... وقد بالغ الأعراب في الجور والسطا
تلذَّذ بقتلٍ فيه للنفس راحةٌ ... وإن رُمْتَ أهنا العيش فابغِ توسّطا

فقال له مماليكه: أنت قلت لنا إن نائب حماه معك، توّجه بنا إليه، فلم يرَ إلاّ المطاوعة فَعَبَرَ على ظاهر حمص، وتوجّه إلى حماه فخرج إليه الأمير سيف الدين قطليجا الحموي النائب بحماه وتلقّاه ودخل به إلى حماه. ثم إنه أمسكه وأمسك والده وأخويه قَراكُز وأَسَنْدَمُرْ، والدوادار عز الدين طقطاي وسيف الدين جُوبان والأمير سيف الدين قلاوون والأمير ناصر الدين محمد بك بن جُمَق، وقيّدهم وجهّز سيوفَهم إلى السلطان، ثمّ بعد ذلك جهز الأمير سيف الدين يلبغا ووالده مقيدين إلى السلطان. فلما وصل إلى قاقون، كان قد وصل إليها الأمير سيف الدين مَنْجَك فأطلعوه إلى القلعة ومعه والده، وحبسوهما في بيتين مفردين، ثمّ أنزلوا والده من قلعة قاقون وجُهِّز على البريد إلى السلطان آخر النهار. وطلع إلى سيف الدين يلبغا مَشَاعِلِيّان فأحسَّ بذلك، وسألهما الوضوء والصلاة ركعتين، ولمّا فرع قال لهما: بالله عليكما هَوِّناها عليّ، فقالا له: يا خوند إن أردت ذلك فدعنا ندير كتافك، فمكنهما من نفسه وخنقاه، فسمع الناسُ شهقتَه من أسفل القلعة، ثم حُزَّ رأسُه وَوُضِعَ في عَسَلٍ وجُهِّز إلى السلطان، ثم دُفنت جُثَّتَه بقاقون رحمه الله تعال وسامحه، وكان ذلك في العشر الأواخر من جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين وسبع مائة. ثم إنّ الأمير سيف الدين منجك تجهّز إلى حماه وجهّز أخويه سيف الدين قراكز وسيف الدين أسندمر وعز الدين طقطاي الدوادار وسيف الدين جوبان إلى مصر مقيّدين.

وخلّف الأمير سيف الدين يلبغا اثني عشر ولداً، أكبرُهم أمير محمد وعمره تقدير سبع سنين. وكانت له طبلخانه وكان له زوجتان: أخت صمغار وبُزْلار وكان يحبّها كثيراً، وأمّ محمد وهي أخت الست أردو والدة الملك الأشرف كُجُك. وكان يتلو القرآن جيداً ويلازم تلاوته في المصحف، ويحبّ أهل القرآن ويجالسهم، ويحب الفقراء، ولم يكن فيه شرّ ولا انتقام. وقبل خروجه من دمشق بأربعة أيام أحضر قاضي القضاة تقي الدين السبكي الشافعي

إلى القصر ووقف أملاكه وخصّ الجامع الذي أنشأه بدمشق بمبلغ ستين ألف درهم في كل سنة من صلب ماله، رحمه الله، ومضى كأنّه لم يكن. ولم أر مثل ما نال من السعادة التي فاضت عنه على والده ووالدته وإخوته وأقاربه ومماليكه، لأن والده سيف الدين طابطا كان أمير مائة مقدم ألف، وأخواه أميري طبلخاناه، وولده طبلخاناه، وذو قرابته الأمير شهاب الدين شعبان بطبلخاناه، ودواداره الأمير عز الدين بطبلخاناه، ومملوكه سيف الدين جوبان أمير عشرة، وبقية مماليكه، جماعة منهم، لهم الإقطاعات الفاخرة في الحلقة. واعتنى بجماعة من أهل حلب وحماه ودمشق وخلص لهم الطبلخانات وعلى الجملة، كانت سعادة زائدة عن الحدّ لكنها خُتِمت بهذا الشرِّ الكبير الذي فاض على ذويه وأهله؛ فلا قوّة إلاّ بالله العلي العظيم. [من المتقارب]

بقدر الصُّعُودِ يكونُ الهبوطُ فإيّاك والرُّتَبَ العاليَهْ

ومن جملة ما رأى من العزّ أنه كان قد توعّك وحصل له سوء مزاج، وكان عند السلطان الملك الناصر أستاذه في المرقد، وهو جالس ورجلاه في ركبتيه يكبسهما ويرش الماورد على وجهه، ويتولى تمريضه وخدمته وطبه بنفسه، وكان ولده إبراهيم، وهو أكبر من السلطان أبي بكر، قد مرض بالجدري ومات ودفن ولم يره ولا عاده شغلاً بتمريض يلبغا، فهذا نهايةٌ في العزِّ. ومن جملة الذل الذي رآه أن يتولى خنقه مشاعليّان من قاقون، ودفن في أرض قاقون جسداً بلا رأس، اللّهم خلّصنا من شرور هذه الدار الغرّارة.

وقلت في أمره والتَزَمْتُ تشديد الزاي: [من الطويل]

دعِ الدّهرَ يُعلي من أراد إلى السُّهى ودافعه من وقتٍ لوقت وَجَزِّه
فقَد نال منه يلبُغا فوق ما ابتغى وقِصَّتُه تُجْلى على المتنزِّه
وأُنزل من عند الثُّريا إلى الثَّرى وأمسكه صرفُ الرّدى في محزِّه
وألْحَفَه العيشُ الغليظُ رداءَهَ على لُطْفِ معناه ورقَّةِ بزِّه
فلا سعدَ إلا ما رأيناه نالَه ولا ذُلَّ إلا ما رأى بعد عِزِّه

وقلت أيضاً: [من الطويل]

إنّ في يلبغا لكلِّ لبيبٍ عبرةً أصبحت على الدهر تُتْلى
ما يساوي العزُّ الذي قد رآه في دمشق بذلِّ قاقون أصلا

وقلت أيضاً: [من الطويل]

ألا إنّما الدُّنيا غرورٌ وباطل فطوبى لمن كفّاه منها تفرَّغا

وما عجبي إلاّ لمن باتَ واثقاً بأيام دهرٍ ما رعى عهدَ يَلْبُغا

يَلْتِكين

٢٣ - «أمير دمشق»[1] **يَلْتِكِين التركي مولى هفتكين.** أهداه أمير دمشق للوزير ابن كِلِّس وعظم قدره، إلى أن جُرِّد إلى الشام في جيش وولي إمرة دمشق لخلفاء مصر.

وتوفي سنة ثلاث وسبعين وثلاث مائة.

الألقاب

اليلداني: تقي الدين عبد الرحمن بن عبد المنعم.

اليلداني: عبد الرحمن بن عبد المولى.

اليمان ويمن

٢٤ - **«أبو بشر البندنيجي»[2] اليمان بن أبي اليمان، أبو بشر البندنيجي. أصله من الأعاجم، من الدّهاقين،** ولد أكمه لا يرى الدنيا في سنة مائتين، وتوفي سنة أربع وثمانين ومائتين. نشأ بالبندنيجين وحفظ هناك أدباً كثيراً وأشعاراً كثيرة؛ وكان بها أبو الحسن علي ابن المغيرة الأثْرم، صاحب أبي عبيدة مَعْمر بن المثنى، يروي كُتُبَه كُلَّها ويروي عن الأصمعي وغيره. فلزم أبو بشر ذلك النمط وحفظ من كتب علي بن المغيرة علماً كثيراً، قال: حفظت في مجلس واحد مائة وخمسين بيتاً من الشِّعر بغريبه.

وخرج إلى بغداد وسُرَّ من رأى ولقي العلماء، وقرأ على محمد بن زياد الأعرابي وسمع منه، ولقي أبا نصر صاحب الأصمعي وهو ابن أخته، وحفظ كتاب «الأجناس الأكبر». وكانت لأبي بشر ضياعٌ كثيرة وبساتين خلّفها أبوه فباعها وأنفقها في طلب العلم. ولقي يعقوب بن السكيت، ولقي الزيادي والرياشي بالبصرة وقرأ عليهما من حفظه كتباً كثيرة. ومن تصانيفه: «كتاب التقفية»، «كتاب معاني الشعر»، «كتاب العروض».

ومن شعره: [من الرجز]

أنا اليمانُ ابن أبي اليمانْ أشعرُ من أبصرتَ في العميانْ

إن تَلْقني تلقَ عظيمَ الشّانْ تُلاقني أبلغَ من سحبانْ

في العِلْم والحِكمةِ والبَيَان

---

(١) انظر ترجمته في «مختصر تاريخ دمشق» (٢٨/ ٦٣) و«تحفة ذوي الألباب» (٢/ ٧).

(٢) انظر ترجمته في «نكت الهيمان» (٣١٢) و«بغية الوعاة» (٤٢٠)، و«الفهرست» لابن النديم (٩٠) و«إرشاد الأريب» (٧/ ٣٠٤).

وَمَرَّ يوماً بباب الطَّاق فسمعَ صوتَ قُمْريَّةٍ من حانوت خبّاز، فقال لقائده: مِلْ بي إليه، فأقامه عليه فقال: يا خبّاز أتبيع هذه؟ قال: نعم، قال: بكم؟ قال: بعشرة دراهم، ففتح منديله وعدّ له الدراهم ثم أخذ الحمامة فأطلقها وأنشأ يقول: [من الكامل]

ناحتْ مطوّقةٌ بباب الطّاقِ ... فجرت سوابقُ دَمْعِيَ المهراقِ
حَنَّتْ إلى أرض الحجازِ بحرقَة ... تسبي فؤادَ الهائمِ المُشْتاقِ
تَعِسَ الفراقُ وجُزَّ حَبْلُ وتينهِ ... وسقاهُ من سُمِّ الأَساوِدِ ساقِ
يا وَيْحَهُ ما بالُه قُمريّةٌ ... لم تدرِ ما بغدادُ في الآفاقِ
كانت تفرِّخُ في الأراك وربّما ... سكنت بنجدٍ في فروع السّاقِ
فأتى الفراقُ بها العراقَ فأصبحتْ ... بعد الأراك تنوحُ في الأسواق
إنّي سمعتُ حنينَها فابْتَعْتُها ... وعلى الحمامة جُدْت بالإطلاقِ
بي مثلُ ما بك يا حمامةُ فاسْألي ... من فكَّ أسْرَك أنْ يفكَّ وثاقي

ومن شعره: [من الوافر]

فديوانُ الضِّياع بفَتْح ضادٍ ... وديوانُ الخَراج بغَيْر جيمِ
إذا وَلِيَ ابنُ عباسٍ وموسى ... فما أمرُ الإمامِ بمُسْتقيمِ

٢٥ ـ **«أبو الخير الحبشي الخادم»**[١] **يُمْن بن عبد الله الخادم، أبو الخير الحبشي، خادم المُسْتَظهر الخاص.** كان جواداً مهيباً حسن التدبير، ذا رأي وفِطْنةٍ، تقلَّبت به الأمور حتى صار سفيراً بين الخليفة والسلطان، وبُعِث أمير الحاج في سنة عشر وخمس مائة. وتوفي رحمه الله بأصبهان وقد قَدِمها رسولاً في سنة إحدى عشرة وخمس مائة، وكان أميناً ثقةً.

الألقاب

يمن: جمال الدين العرضي، محمد بن أحمد. ابن اليمان: الجهني الصحابي، بشير ابن عقربة.

---

(١) انظر ترجمته في «البداية والنهاية» لابن كثير (١٢/ ١٨٢)، و«الكامل» لابن الأثير (١١/ ٤٢٠) و«النجوم الزاهرة» (٥/ ٢١٤).

يموت

٢٦ ـ «العبدي البصري»[(١)] يموت بن المُزَرَّع بن يموت بن عيسى بن سيّار بن حكيم بن جَبَلة العَبْدي البَصْري، هو أبو بكر، وكان قد سمّى نفسه محمداً، وهو ابن أخت الجاحظ أبي عثمان. قَدِمَ ابنُ المزرَّع بغداد سنة إحدى وثلاث مائة وهو شيخٌ كبير، وحدّث بها عن أبي عثمان المازني، وأبي حاتم السجستاني، وأبي الفضل الرياشي، ونصر بن علي الجهضمي، وعبد الرحمٰن ابن أخي الأصمعي، ومحمّد بن يحيى الأزدي وأبي إسحاق إبراهيم بن سفيان الزيادي وغيرهم.

وروى عنه: أبو بكر الخرائطي، وأبو الميمون بن راشد، وأبو الفضل العباس بن محمد الرقي، وأبو بكر بن مجاهد المُقْرىء، وأبو بكر بن الأنباري وغيرهم.

وكان أديباً أخبارياً، وله مُلَحٌ ونوادر، وكان لا يعود مريضاً خوفاً من أن يتطيّر من اسمه، وكان يقول: بليت بالاسم الذي سمّاني به أبي وإذا عدت مريضاً وقيل من هذا؟ قلت: ابن المزرع، وأُسْقِطُ اسمي.

وفيه يقول منصور الفقيه المصري الضرير: [مجزوء الرّمل]

أنت يحيى والذي ... يكره أن تحيا يموتُ

أنت صفوُ العَيْشِ بل ... أنت لروح النَّفس قوتُ

أنت للحكمة بَيْتٌ ... لا خَلَتْ منك البيوتُ

وكان ليموت ولدٌ اسمه أبو نضلة مهلهل بن يموت ـ وقد تقدم ذكره في حرف الميم في مكانه.

ولمّا دخل يموت مصر اتّصل بالطولونية؛ وناظر أحمد بن طولون يوماً يموتَ بن المزرع في مسألةٍ، فقامت بينهما، ففرح يموت، فجاء ابن بنت أبي العتاهية، فقام على رأس يموت وقال: [من السريع]

يموتُ يا من أمُّه نائمه ... ارجع فشَطْر نجُكما قائمهْ

فَرِحْتَ بالقائم فِعْلَ امرىء ... مُزَبّدٍ يَفْرَحُ بالقائمهْ

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٢٤٧/١٤) «طبقات النحويين واللغويين» (٢١٥ ـ ٢١٦)، «معجم الشعراء» (٥٠٥ ـ ٥٠٦)، «جمهرة أنساب العرب» (٢٩٨/٢)، «تاريخ بغداد» (٣٥٨/١٤ ـ ٣٦٠)، «نزهة الألباء» (٢٣٨)، «المنتظم» (١٤٣/٦)، «معجم الأدباء» (٥٧/٢ ـ ٥٨)، «الكامل في التاريخ» (٩٦/٨) و«إنباه الرواة» (٧٤/٤) و«وفيات الأعيان» (٥٣/٧)، و«العبر» (١٢٨/٢) و«مرآة الجنان» (٢٤١/٢)، و«البداية والنهاية» (١٥٧/١١).

فرفع يموت رأسه إليه، قال: أنت فما يدعوك أن توطىء في بيتين بسبب مسألةٍ قامت بيننا؟

وقدم يموت مصر مراراً، وتوفي بدمشق سنة أربع وثلاث مائة، وقيل كانت وفاته بطبرية.

ومن شعره يخاطب ابنه مهلهلاً: [من الوافر]

مهلهلُ قد حلبتُ شطورَ دهري ... وكافحني بها الزَّمنُ العنوتُ

وحاربتُ الرِّجال بكلِّ رَبْعٍ ... فأذعنَ لي الحثالةُ والرتوت

فأوجعُ ما أُجِنُّ عليه قلبي ... كريمٌ عقَّهُ زمن عنوت

كفى حزناً بضيعة ذي قديمٍ ... وأبناءُ العبيدِ لها التخوت

وقد أسهرتُ عيني بعد غُمضٍ ... مخافةَ أن تضيعَ إذا فَنيتُ

وفي لُطْفِ المهيمن لي عزاءٌ ... بمثلك إن فنيتُ وإن بقيت

فَجُبْ في الأرضِ وابغ بها علوماً ... ولا تقطعك جائحة سبوت

وإن بَخُل العليمُ عليك يوماً ... فَذِلَّ له ودينك والسُّكوتُ

وقُلْ بالعلمِ كان أبي جواداً ... فقال: ومن أبوك فقل يموتُ

تُقِرُّ لك الأباعد والأعادي ... بعلمٍ ليس يجحده البهوتُ

ينجوتكين

٢٧ - «العَزيزي أمير دمشق»[١] **ينجوتكين التركي العزيزي مولى العزيز.** ولي إمرة دمشق سنة إحدى وثمانين وثلاث مائة، وتوفي سنة سبع وثمانين وثلاث مائة، وبقي على ذلك مدّةً إلى أن عزله الحاكم وأرسل عوضه سليمان بن جعفر بن فَلاح، فنزع ينجوتكين الطاعة وسار إلى الرملة لحرب من يأتي من مصر، فتواقعوا في جمادى الأولى، وانهزم ينجوتكين ووصل إلى دمشق في يومين، وطلب النصرة من أهل البلد فلم يجيبوه ونهبوا داره، فهرب إلى أَذْرِعات ولجأ إلى ابن الجرّاح الطائي فلم يمنعه وأسلمه إلى الأمير سليمان بن جعفر، فبعث به إلى مصر فعفى عنه الحاكم.

(١) انظر ترجمته في «النجوم الزاهرة» (٤/ ١١٧) و«أمراء دمشق» (١٠٣)، و«مختصر تاريخ دمشق» (٢٨/ ٦٦).

ينغجار

٢٨ ـ «الأمير سيف الدين»[(١)] ينغجار الأمير سيف الدين الناصري، يقال إنّه أخو الأمير سيف الدين أرغون الدوادار الناصري. كان يسكن في حكر الخازن، وخرج إلى الشام في سنة ثلاثين وسبع مائة، فيما أظن، وولي نيابة قلعة دمشق مدة، وولي نيابة بعلبك مُديدة في أيام سيف الدين يَلْبُغا. وتوفي، رحمه الله تعالى، بدمشق في ثامن عشر جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين وسبع مائة.

الألقاب

ينال: السلطان إبراهيم بن ميكائيل. أبو الينبُغى: العباس بن طرخان.

يوحنا

٢٩ ـ «الطبيب»[(٢)] يوحنا بن بَخْتيشوع، كان طبيباً متميزاً خبيراً باللغة اليونانية والسريانية، ونقل من ذلك كتباً كثيرة. وخدم بالطب الموفق بالله طلحة بن جعفر المتوكل، وكان يعتمد عليه ويسميه: مُفَرِّجُ كَربي. وكان الموفق إذا جلس للشرب يقدم بين يديه صينية ذهب ومغسل مُذَهَّب، وخرداذي بلور وكوز، ويجلس يوحنا بن بختيشوع عن يمينه، وبين يديه كذلك، وبين يَدَيْ غالب الأطباء والجلساء صواني مدهون، وقناني زجاج ونارنج.

ابن ماسويه

٣٠ ـ «الطبيب ابن ماسويه»[(٣)] يوحنا بن ماسويه، كان طبيباً ذكياً فاضلاً، خبيراً بالطب وله كلام حسن وتصانيف مشهورة، وكان مُبجَّلاً حظياً عند الخلفاء والملوك. اكتسب من الطبّ ألف ألف درهم. وكان نصرانياً خدم الرشيد والأمين والمأمون وبقي على ذلك إلى أيام المتوكل. وكان الواثق مشغوفاً به فشرب يوماً عنده، فسقاه الساقي شراباً غيرَ صافٍ ولا لذيذ، فقال: يا أمير المؤمنين، أما المذاقات فقد عرفتها واعتدتُها ومذاقةُ هذا الشراب فخارج عن طبع المذاقات كلِّها، فوجد الواثقُ على السقاة وقال: أتسقون أطبائي في مجلس مثل هذا الشراب؟ وأمر ليوحنا في ذلك الوقت بمائة ألف درهم، ودعى بسمّانة الخادم وقال: احمل إليه الساعة المال، فلما كان وقت العصر سأل سمانة هل حُمِل المال إلى يوحنّا، فقال: لا بعد، فقال: يحمل إليه مائتا ألف؛ ثم سأله بعد ساعة أخرى، فقال: لا

---

(١) انظر ترجمته في «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» (٥/ ٢١٨).

(٢) انظر ترجمته في «طبقات الأطباء» (١/ ٢٠٢).

(٣) انظر ترجمته في «أخبار الحكماء للقفطي» (٢٤٨)، و«طبقات الأطباء» (١/ ١٧٥)، و«فهرست ابن النديم» (٢٩٥)، و«مفتاح الكنوز» (٢٥٤)، و«تذكرة النوادر» (١٨٣).

بعد، فقال يحمل إليه ثلاث مائة ألف درهم؛ فخرج سمانة وقال: احملوها إليه وإلاّ لم يبق في بيت المال شيء.

وكان الرشيد قد قلّده ترجمة الكتب القديمة. وانشدت به علّةٌ مَرِضَ بها حتى يئس منه أهله، فاجتمع عنده الأقساء وجماعة من الرهبان يقرون حوله من الإنجيل، فقال لهم: يا أبناء الفُسْقِ ما تصنعون؟ قالوا: ندعو لك، قال لهم: قُرصُ وردٍ أفضل من صلوات جميع أهل النصرانية منذ كانت وإلى يوم القيامة. وشكا إليه رجل أصابه جرب، فقال له: افصد الأكحل من اليمنى، فقال: قد فعلت، فقال: افصد الأكحل من اليسرى، فقال: قد فعلت، فقال اشرب المطبوخ، فقال: قد فعلت، فقال: اشرب ماء الجبن، فقال: قد فعلت، فقال: اشرب مخيض البقر أسبوعين، فقال: قد فعلت، فقال: اشرب الاصطخفيون، فقال: قد فعلت. فقال له: لم يبق شيء مما ذكره الأطباء إلاّ وقد ذكرته وقد بقي شيء لم يذكره أبقراط ولا جالينوس، فقال: ما هو؟ فقال: ابتغ زَوْجَيْ قراطيس وقطّعهما رِقاعاً صغاراً واكتب في كلٍّ واحدة: «رحمه الله من دعا لمبتلى بالعافية»، والقِ نصفَها في المسجد الشرقي، والآخر في المسجد الغربي وفرّقها يومَ الجمعة، فإني أرجو أن ينفعك اللَّهُ بالدعاء إذا لم ينفعك العلاجُ. وتوفي سنة ثلاث وأربعين ومائتين.

وليوحنا من الكتب: كتاب البرهان، كتاب البصيرة، كتاب الكمال والتمام، كتاب الحميات مُشَجَّر، كتاب الأغذية، كتاب الأشربة، كتاب المُنْجح في الصفات والعلاجات، كتاب في الفصد والحجامة، كتاب في الجذام لم يسبقه أحد إلى مثله، كتاب الجواهر، كتاب الرجحان، كتاب تركيب الأدوية المسهلة وإصلاحها، كتاب دفع مضار الأغذية، كتاب في غير ما شيء ممّا عجز عنه غيره، كتاب السرّ الكامن، كتاب دخول الحمام، كتاب الأزمنة، كتاب في الصداع وعلله وأدويته ألّفه لعبد الله بن طاهر، كتاب لِمَ امتنع الأطباءُ من علاج الحبالى في بعض شهور الحمل، كتاب محنة الطبيب، كتاب محنة الكحالين، كتاب مجسّ العروق، كتاب الصوت والبُحَّة، كتاب علاج النساء اللواتي لم يحبلن حتى يحبلن، كتاب المرّة السوداء، كتاب ماء الشعير، كتاب تدبير الأصمّاء، كتاب السنونات، كتاب في المعدة، كتاب في القولنج، كتاب النوادر الطبيّة، كتاب التشريح، كتاب ترتيب سقي الأدوية، كتاب تركيب خلق الإنسان وعدد أعضائه وعروقه وعظامه ومعرفة أسباب الأوجاع ألّفه للمأمون، كتاب الأبدال فصول كتبها لحنين بن إسحاق، كتاب المالنخوليا، كتاب جامع الطب، كتاب في الحيلة للبرء.

يوسف

٣١ ـ **«الشافعي»**[١] **يوسف بن آدم بن أبي عبد الله محمد بن آدم، أبو الحجّاج الشافعي الدمشقي.** أصله من مَراغة، وقدم بغداد سنة اثنتين وأربعين وخمس مائة، وحدّث بها «بصحيح مسلم» عن أبي عبد الله محمد بن المفضل الفَراوي؛ وسمعه أبو بكر عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلي، ومحمد بن المبارك بن محمد بن مشّق.

قال ابن النجار: كان كثير الشغب ومثير الفتن بين الطوائف. وذكر أبو الحسن ابن القَطيعي عنه أنه كان إذا بلغه أنَّ قاضياً على مذهب الأشعري قد عقد عقدة نكاح فسخ نكاحه وأفتى أنّ الطلاقَ لا يقع في ذلك النكاح، فأثار بذلك فتناً فأخرجه السلطان من دمشق، فمضى إلى حرَّان وسكنها. فلما ملكها العادل نور الدين محمود الشهيد سأله أن يعود إلى دمشق ليزور أمّه، فأذن له وشرط عليه ألا يدخل البلد، فعاد إلى دمشق ونزل كهف آدم بجبل قاسيون وخرجت أمّه إليه، فدخل إلى دمشق يوم الجمعة فخاف الوالي من تفاقم الأمر، فأمره بالعود إلى حرّان، فعاد إليها وأقام بها إلى أن مات سنة ستة وتسعين وخمس مائة.

ابن إبراهيم

٣٢ ـ **«أبو البرم»**[٢] **يوسف بن إبراهيم، أبو البرم.** خرج بخراسان على المهدي سنة ستين ومائة مُنكراً عليه سيرته، واجتمع إليه خلقٌ كثير. فبعث إليه المهدي يزيد بن مزيد فاقتتلا، فظفر به يزيد بن مزيد فأسره وحمله إلى المهدي، فلما قرب من بغداد ركب على بعير وحُوِّلَ وجهُه إلى ذنبه وفُعل ذلك بأصحابه. وكان أبو البرم قد قتل أخاً لهرثمة بن أعين بخراسان، فأمر المهدي هرثمة فقطع يدي أبي البرم وأيدي أصحابه وضرب أعناقهم وصلبهم.

الشاشي

٣٣ ـ **«الشاشي»**[٣] **يوسف بن إبراهيم بن سعيد، أبو يعقوب الشاشي،** قدم بغداد وحدّث بها عن أبي طاهر محمد بن علي بن بويه الزرّاد الحافظ البخاري، وعن أبي الحسن عبد الرحمٰن بن محمد بن المظفر الداوودي البوشنجي، حدّث عنه بمسند الدارمي سمعه منه وكتبه أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الباقي بن الخاضبة، في شعبان سنة تسع وستين وأربع مائة وسمع منه أيضاً ابنتُه كريمة بنت أبي بكر بن الخاضبة، وأبو القاسم بن السمرقندي، وأبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحُميْدي وروى عنه.

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٥٩٠).
(٢) انظر ترجمته في «الكامل» لابن الأثير (٦/ ١٥)، و«المجد» (٤٨٧)، و«النجوم الزاهرة» (٢/ ٢٧).
(٣) لم أعثر على مصادر ترجمته.

النجار المقرىء

٣٤ ـ «النّجار المقرىء»[(١)] يوسف بن إبراهيم بن صابر بن نائل بن محمد الربعي، أبو محمد النّجار المقرىء البغدادي. حفظ القرآن وتفقّه على مذهب الإمام أحمد، وانقطع في بيته يُقْرىء الصبيان ويكتب المصاحف. وتوفي سنة أربع وعشرين وست مائة بالبيمارستان العضدي وقد بلغ الستين أو جاوزها.

البابي

٣٥ ـ «البابي»[(٢)] يوسف بن إبراهيم بن نصر، أبو القاسم البابي. قدم بغداد حاجاً سنة خمس وسبعين وأربع مائة. وحدّث بكتاب «شرح الشهاب» من تصنيفه، سمعه منه أبو نصر أحمد بن محمد بن عبد القاهر الطوسي ورواه عنه. وقد روى عنه أبو منصور عبد المحسن بن محمد بن علي الشيحي «كتاب إصلاح أغاليط أصحاب الحديث» لأبي سليمان أحمد بن محمد الخطابي، فقال: أنا أبو القاسم يوسف بن إبراهيم بن نصر البابي ببغداد قدم علينا حاجّاً، أنبأنا الإمام أبو المعالي عبد الرحمٰن بن عبد الله المغربي نزيل الباب، أخبرنا أبو الحسين عبد الغافر بن محمد الفارسي، حدثنا الخطابي.

الكاتب

٣٦ ـ «الكاتب»[(٣)] يوسف بن إبراهيم الأنباري، أبو الحسن الكاتب، كان في خدمة إبراهيم بن المهدي. حكى عنه وعن إسماعيل بن نوبخت، وأحمد بن رشيد الكاتب مولى سلام الأبرش، وجبريل بن بختيشوع، وأيوب بن الحكم البصري الكسروي، وأحمد بن هارون الشَّرابي وغيرهم، وروى عنه ابنه أبو جعفر أحمد، ورضوان بن أحمد بن جالينوس الصَّيْدلاني، وسافر إلى الشام ودخل مصر وتولّى بها الأعمال، وكان من ذوي المروءات. وصنّف كتاب «أخبار المستطبّين»، وتولى الأعمال أيام أحمد بن طولون.

قال أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم المذكور: بعث أحمد بن طولون الساعة التي توفي فيها والدي يوسف بن إبراهيم جماعة فهاجموا الدار وطالبوا بكتبه مقدرين أن يجدوا فيها كتاباً من أحدٍ من بغداد فحملوا صندوقين وقبضوا عليَّ وعلى أخي وصاروا بنا إلى داره، وأُدخلنا إليه وهو جالسٌ وبين يديه رجل من أشراف الطالبيين الكبراء، فأمر بفتح أحد الصندوقين وأدخل خادم يده فوقع فيها دفتر جراياته على الأشراف وغيرهم، فأخذ

---

(١) لم أعثر على مصادر ترجمته.

(٢) لم أعثر على مصادر ترجمته.

(٣) انظر ترجمته في «طبقات الأطباء» (١/ ٧٧)، و«إرشاد الأريب» (٢/ ١٥٧)، و«الأعلام» للزركلي (٨/ ٢١٢).

الدفتر بيده وتصفحه فكان جيد الاستخراج، فوجد اسم الطالبيّ في الجراية، فقال له وأنا أسمع: كانت عليك جراية ليوسف بن إبراهيم، فقال: دخلت هذه الديار وأنا مُمْلِقٌ فأجرى عليّ في كلِّ سنةٍ مائتي دينار ومائتي إردب قمح إسوة بن الأرقط وابن العقيقي وغيرهما، ثم امتلأت يداي بطول الأمير فاستعفيته منها، فقال: نشدتك الله إن قطعت سبباً بي برسول الله، ﷺ، وتدمَّع الطالبي. فقال ابن طولون: رحم الله يوسف بن إبراهيم، ثم قال: انصرفوا إلى منازلكم لا بأس عليكم؛ فانصرفنا ولحقنا جنازة والدنا وحضر ذلك العلويُّ حقّنا.

٣٧ ـ **«الشاطبي المقرىء»**[١] **يوسف بن إبراهيم بن عُقاب، أبو يعقوب الجذامي الشاطبي المقرىء الزاهد** قرأ بالسبع على أصحاب ابن نوح الغافقي؛ وسمع منه أبو عبد الله الوادي آشي، وأكثر عن أبي الحسن علي بن قُطْرال. وتوفي سنة اثنتين وتسعين وست مائة.

٣٨ ـ **«شمس الدين بن قريش كاتب الدرج»**[٢] **يوسف بن إبراهيم بن قريش، . شمس الدين المصري الكاتب. استشهد على حمص وقد نيف السَّبعين، وكان من كُتّاب الدرج بمصر؛ كتب للصالح نجم الدين ولمن بعده. وكان وافر النِّعمة، كثيرَ الحُرْمة. توفّي سنة ثمانين وست مائة.**

٣٩ ـ **«أبو الفضائل الشيباني القفطي»**[٣] **يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد القاضي الأشرف، أبو الفضائل الشيباني التميمي القفطي، والد العزيز القاضي الأكرم أبي الحسن علي بن يوسف وأخيه القاضي المؤيد أبي إسحاق إبراهيم.** وقد تقدم ذكرهما في مكانيهما. وُلِدَ القاضي الأشرف في غرّة سنة ثمان وأربعين بقفط[٤]، وتوفي، رحمه الله، في جمادى الآخرة سنة أربع وعشرين وستمائة بذي جِبْلة ـ بكسر الجيم وسكون الباء ثانية الحروف ـ مدينة في بلاد اليمن.

وكان الأشرف قد خرج من قفط سنة اثنتين وسبعين وخمس مائة في الفتنة التي كانت بها بسبب الإمام الذي أقاموه وكان من بني عبد القوي الداعي للدين، ادعى أنّه داود بن العاضد، فأنفذ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أخاه الملك العادل أبا بكر فقتل من أهل قفط نحو ثلاثة آلاف وصلبهم على شجرهم بظاهر قفط بعمائمهم وطيالستهم. وخدم الأشرف في عدة خدم سلطانية منها بالصعيد ثم نظر بلبيس ونواحيها ثم نظر القدس ونواحيه،

(١) انظر ترجمته في «توضيح المشتبه» (٦/ ٣٠٣)، و«غاية النهاية» (٢/ ٣٩٢).
(٢) انظر ترجمته في «ذيل مرآة الزمان» (٤/ ١٣٣).
(٣) انظر ترجمته في «معجم البلدان» (٣/ ٥٥)، و«الأعلام» للزركلي (٨/ ٢١٢).
(٤) قفط: وهي مدينة في مصر سميت باسم قفط بن مصر بن بيصرم بن حام بن نوح عليه السلام اهـ «معجم البلدان» (٤/ ٣٨٣).

وناب عن الفاضل في كتابة الإنشاء بحضرة السلطان صلاح الدين، ثم إنّه استوحش من العادل ووزيره ابن شُكْر فقدم حرّان فاستوزره الملك الأشرف موسى بن العادل، ثم إنّه سأله الإذن في الحج فأذن له وجهزّه أحسن جهاز على أن يحجَّ ويعود، فلمّا حصل بمكة امتنع من العود ودخل اليمن، فاستوزره أتابِك سُنْقُر سنة اثنتين وستمائة، ثم ترك الخدمة وانقطع بذي جِبْلة ورزقه دارٌّ عليه إلى أن توفي رحمه الله في التاريخ المذكور أولاً. وكان أديباً فاضلاً مليح الخطّ محبّاً للعلم والكتب واقتنائها، ذا دين متين وكرم وعربية.

٤٠ ـ «قاضي القضاة ابن جملة»[١] يوسف بن إبراهيم بن جملة الحوراني المحجّي ثم الصالحي الشافعي الأشعري، قاضي قضاة الشام. الإمامُ الفاضل العالم العلامة الأصوليّ الفقيه النّحوي. ولد سنة ست وثمانين وستمائة، وتفقّه مدة لأحمد بن حنبل، ثم تحوّل شافعياً وتميّز وناظر الأقران وأخذ عن الشيخ كمال الدين بن الزملكاني، وصار من الأعيان، درّس بالدَوْلَعيّة وأعاد مدّة، وخرّج له الشيخ علم الدين البرزالي عن الفخر وجماعة. وناب لقاضي القضاة جلال الدين القزويني الشافعي بدمشق، ولمّا توفي قاضي القضاة علم الدين الإخنائي ولي هو القضاء بالشام في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين وسبع مائة بعناية الأمير سيف الدين تَنْكِز. وكان ذا مهابةٍ وسطوة وصولة، وفيه شدّة ووطاء على المريب، وكانت فيه ديانة وحُسْنُ عقيدة وعفة. فإنَّه باشر القضاء بصلف وأمانة. وفي أيام نيابته لقاضي القضاة علم الدين الإخنائي قام قياماً عظيماً في توبة الشيخ تقي الدين بن تيمية في مسألة الزّيارة، وعمل عملاً بالغاً إلى أن حُبس، ولمّا مات لم يصَلِّ عليه؛ وكان فصيحاً لَسِناً شديد العارضة في البحث. ثم إنّ حمزة التركماني حرف الأمير تَنْكِزْ عليه وأغراه به ولم يزل إلى أن حبسه. وقال إنه رشا ناصر الدين الدوادار بالذهب على القضاء، وهذا أمرٌ أستبعدُه من الجانبين. وكان نائب الشام قد حكمه في الشيخ ظهير الدين لأنّه لم يصحّ عنه ما نقله، فبالغ ابن جملة في تعزير ظهير الدين واستقصائه، والاستقصاء شُؤْمٌ؛ فعُقِد له مجلسٌ، ودخل وهو قاضي القضاة فخرج وهو فاسق قد حُكم بعزله وسجنه في القلعة. وكانت واقعة عجيبة لم يعهد الناس مثلها.

أنشدني لنفسه إجازةً، القاضي زين الدين عمر الوردي، ومن خطّه نقلت: [من المنسرح]

دمشقُ لا زال رَيْعُها أخضرا ... بِعَدْلِها اليومَ يُضْرَبُ المَثَلُ

فضامن المَكْسِ مطلقٌ فرحٌ ... فيها وقاضي القضاة مُعْتَقَلُ

---

(١) انظر ترجمته في «الدرر الكامنة» (٤/ ٤٤٣)، و«الأعلام» للزركلي (٨/ ٢١٢)، و«النجوم الزاهرة» (٩/ ٣١٧)، و«شذرات الذهب» (٦/ ١١٩)، و«توضيح المشتبه» (٢/ ٤٤٦).

وقلت أنا في ذلك: [من مخلع البسيط]

العفو يا ربِّ من بلاءٍ قوى الورى ما تطيقُ حَمْلَهْ
أمرٌ جرى في الوجود فرداً يا عجباً وهو لابن جُمْلَهْ

وأقام في الحبس خمسة عشر شهراً إلى أن شفع فيه موسى بن مهنّا، وولي بعده قاضي القضاة شهاب الدين بن المجد. ولما خرج من الاعتقال أُعطِيَ الدَّوْلعية، ثم تمرَّض وخلتِ المدرسةُ الشامية البرانية، فدرّس فيها أياماً بعد الشيخ زين الدين بن المرحّل. وكانت وفاته بالمسروريّة، رحمه الله تعالى، ودفن عند أهله بوادي العظام.

وكنتُ قد كتبتُ تقليدَه بالقضاء لمّا كُنتُ بالدِّيار المصرية وهو: الحمد لله الذي أعلى منارَ الشَّرع الشريف بجماله، وجلا دُجاه بمن تحسدُه البدور في الأفق لياليَ التمام على كماله، وشيّد ركنه بمن يقصرُ باعُ السَّيفِ في جِلاده عند جداله، وحَفِظَ قواعدَه بمن إذا أمسك قلمَ فتاويه تفيّأتِ الأحكامُ تحت ظلاله، وأحيى سُنَنَه بمن يتّضح به سنن حرامه وحلاله، ونشر لواءَ فضلِه بمن إذا طمى البحرُ المحيطُ فَقُلْ دعْ ذا فإنّك عاجز عن حاله؛ نحمده على نِعَمِه التي ادّخرت لأيامنا الشريفة حَبْراً عَزَّ بوجوده اجتماع المثلين، واقتطف ثمار العلوم فما داناه أحد في الفروع ولا وصل معه إلى الأصْلين، وطال بالعلم ثم بالحلم، وزاد في تطوّلاته ولم يتقصر على الطولين، وأجمعَ الناسُ على استحقاقه بما ولَّيناه فلم تكن المسألةُ فيه ذاتَ قولين؛ ونشهد ألا إلٰه إلاّ الله وحده لا شريك له شهادة ندّخرها ليوم القضاء والفصل، ونعلم أنّها أصلُ الإيمان وما سواها فرع، والقياسُ ردُّ فرع إلى أصل، ونعتمد على بركات فضلها في الأمر والنهي والقطْع والوصل، وننال بإخلاصها على أعداء الدين عزَّ العزم ونصر النَّصل، ونشهد أن محمداً عبدُه ورسولُه خَيْرُ من قضى ومضى وأعدلُ من مضى، وسيفُ شرعه إذا استقبله شكلٌ حَكَم فيه ومضى، وأشرفُ من ساس النَّاس بخلقه الرِّضى وحكمه المرتضى، وأعزُّ من أغضى الشيطان لظهور ملّتِه على جَمْرِ الغضى، صلى الله عليه وآله وصحبه، خير من اتّبع شرعه في أحكامه، وخاف مقام ربّه فشكر الله له حُسْنَ مقامه، وقصر خطاه على ما أمره ونهاه، فلم يكن له إقدام على حركة أقدامه، واستبرأ لدينه في قضاياه فما أخطأت سهامُه مرامي مرامه، صلاةً تتألّق بأنوارها البروقُ اللامعة، وتتعلّق بأستارها الخلائقُ في الواقعة، ما قبّلت ثغورُ الأقلام خدودَ المهارق السّاطعة، ورقّمت إِبَرُ الغمام بُرود الحدائق اليانعة، وسَلّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

وبعدُ، فإنَّ منصبَ الشَّرْع الشَّريف لا شكَّ في عمومِ نفعِه ولا مَرِيَّة في أنَّ السوابقَ جَرتْ لنصبِه والعوالي جرت لرفعه، ولا ريب في أن شَمَمَ كلِّ عِرْنين ينقادُ صاغراً لوضعه، ما

حَكَمْنا في شيء حتى نعودَ لأمره ونعوذ، ولا خرجنا في السّياسة عن حكمه لا على سبيل السَّهو ولا بحكم الشذوذ، ولا برز أمره بحكم إلاّ وقال: سيفنا المنصور دائم النفوذ، وكانت دمشق المحروسة كالشّامة في وجنة الشام وكالجوهرة التي أصبحت واسطة عقد الملك في الانتظام، هذا إلى ما جاء في فضلها من السُّنَّة وثبت لنا في الخارج أنّها أنموذج الجنّة؛ قد شَغَرَ منصبُ حكمِها الشافعيّ من قاضٍ يسوسُ الرّعايا، ويجتهد في أحكامه حتّى تدلَّه الألمعيَّةُ على المقاتل الخفايا، ويتوسَّم وجوه الخصوم وكلامهم فيكون «ابن جلا وطلاّع الثنايا»؛ أمْهلنا آراءنا الشريفة هذه الفترة واستخرنا اللَّهَ تعالى فيمن نُحلِّيه بهذا الطوق أو نخصّه بهذه الدرّة، وذُكرَ بين أيدينا الشريفةِ جماعةٌ كلّ منهم جلَّ إلاّ أنْ يكون قد حلّى، واستوعبَ الشروطَ المعتبرة فكان بذلك الاستيعاب مُجَلى، فيُشار من إشارته كالسهم الذي يصيب الإشارة، وبَرَكَة رأيه خالصة من حظوظ النفس الأمّارة، وعين من عزَّت به الشريعة الشريفة منالاً، وزان رتبتها الجليلة فازدادت به جمالاً، وحمى حوزتَها لأنّه فارسُ الكلام إذا التفّت عليه مضائقُ الخصوم فَرَّجَها عِلْمُهُ بمواقع الإصابة جدالاً، وجالد فوارس البحث وجدلهم فخذلهم، ونسف مغالط النَّسَفي ولو كانت جبالاً؛ ونقّى ونقَّح كلام من مضى، فكم قيَّدَ مُطلقاً يمرح وأطلق مقيّداً يَرْسُف، وجلس في حلقة دروسه فكأنما تطلّع من محراب داودَ يوسُفُ؛ يُغْرِقُ المُزَنيّ في وابل فضله الصَّيِّب، ويفوق عرف عرفانه على القاضي أبي الطَّيِّب، ويتلون ابن الصباغ في شامله من عجزه، ويعترف الغزالي بأنّه لم يكن من نسج طرزه؛ قد صاغ ذهب أصوله وابن الحداد في الفروع، والتذّ بِكَراه وصاحب «التنبيه» لا يطعم لذّة الهجوع، ونفق من «محصوله»، وابن الحاجب في «صيغة منتهى الجموع».

وكان المجلس العالي القضائي الجمالي وبقية ألْقابه ونعوته، هو مُظهر هذه الضمائر والمقصود بهذه الأدلّة والأمائر، لا تليق هذه الصفات إلاّ بذاته، ولا تحسن هذه النعوت إلاّ بأدواته، فلذلك رسم بالأمر الشّريف العالي المولوي السّلطاني الملكي النّاصري، لا زالت الرّعايا بعدله في أمان، ومواقع اختياره ترتادُ لهم الكافي الكافل من رَبِّ السّيف والطيلسان، أنْ يفوّضَ إليه قضاء القضاة الشافعية بالشام المحروس، ولايةً أُحكِمَ عَقْدُها، وانْتَظَمَ عِقْدُها، وتَبَلَّجَ عُرْفُها، وتأرّج عَرَفُها؛ فليأمر بالمعروف وينْه عن المُنْكَر، ويسير سيرة عُمَريّةً تُتْلَى محاسنها وتُشكَر، وليأخذ بحق المظلوم ممّن ظلمه، ويُجْرِ لسانَ قلمه بما قامت به البيِّنَةُ فعَلِمَهُ، وليتبع الحقَّ إنْ كان مع المشروف أو الشريف، ويطلب رضا الله في خذلان القوي ونصرة الضعيف، وليسوِّ بين المتخاصمين في موقفهما عنده، ويسمع الدعوى إذا تمّت والجواب إذا أكمل قصده، وليُلِنْ جانباً لمن حضره، ويتمسّك بآداب الشرع الذي حضّه عليها وأمره، وليحترز في أمر الشهود في كل شَيء وينقب عن أحوالهم فإنّ منهم من يموتُ

على الشهادة وهو حَيٌ، ويتبعهم بألمعِّيَتِهِ في كلِّ أمر، ويسمع شهادَتَهم بذكاء إياس وفطنة عمرو، والأيتام فليولِّ عليهم من يراقب الله في أموالهم، ويخشى اللّهَ في معاملاتهم فكفى ما بهم من سوءِ حالهم، ولا يركن في أمرهم إلاّ لمن اختبره المرة بعد المرّة، وعلم أنّ عفّته لا تسامحه في التماس الذرّة؛ والأوقاف فليجرِ أمورَها على النظام البارع ولا يتعدَّ بها شروط الواقفين فإِنَّ نصَّ الواقف مثلُ نصِّ الشارع، والأيامى فليزوجهنَّ من أكفائِهِنَّ شرعاً، ويمنع من يُلْبِسُهُنَّ من العِضْل دِرعاً، والأنكحة الأهلية يستوضح عقودها، والخلية يعتبر شهودها، ومال المحجور عليه يودعه حرزاً يحفظ فيه، ومال الغائب كذلك والمجنون والسفيه، ووقائع بيت المال فلتكن مضبوطة النظام محفوظة الزمام مقطوعة الجدَل والخصام، ونوابُه في البلاد والجهات والنواحي المتطرفات، هو المطلوب عِنْدَ الله بجنايتهم، والمحاسبُ على ما اجترحوه في ولايتهم، فلا يولِّ من يراه فقيهاً، ﴿**إذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها**﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٥]، ولا من اتّصف بالجهل ورأى زينتها الدنيا في المال والأهل، بل يتحرى في أمورهم ويتبع معاملتهم في غيبتهم وحضورهم، فأنت أدرى بما إليه الأمر يؤول، وكلكم راع وكلكم راع مسؤول؛ والوصايا كثيرة ومنك تُعرف وإليك ترجع وتُصْرَف «فما تُعَلَّم عَوانك الخِمْرة»، ولا تعرف صناعتك كيف تضع الشّذرة، فما نحتاج إلى أن نشردها بل نجمعها ولا نفردها، وهو تقوى الله عز وجل التي من تَمَسَّك بها فاز قدحه وأمن سرحه وتعيّن ربحه وتبيّن نجحه. والله تعالى يتولاّك ويعينك على ما ولاك ويزيدك ممّا أولاك. والخطُّ الشريفُ، أعلاه اللّهُ تعالى، أعلاه حجة في ثبوت العمل بمقتضاه، واللّهُ الموفِّق بمنّه وكرمه إنْ شاءَ اللّهُ تعالى.

ابن أحمد

٤١ ـ «الحافظ أبو يعقوب»[(١)] يوسف بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله، أبو يعقوب الحافظ؛ الشِّيرازي الأصل البغدادي. سمع الحديث في صباه، ثم طلبه بنفسه وبالغ وجدَّ فيه واجتهد، وسافر البلاد ما بين الحجاز والشام وفلسطين وديار مضر والجزيرة وبلاد آذربيجان والروم والعِراقَيْن ونواحي الأهواز وديار الجبل وإصْبهان وخراسان وبلاد الغُوْر

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٢٣٩) ترجم له المنذري في «التكملة، الترجمة» (٨٤)، وابن الدبيثي كما دل عليه «المختصر المحتاج إليه» (٣/ ٢٣١)، وابن النجار كما دل عليه «تلخيص» ابن الغوطي (٤) «الترجمة» (٦٥٣) في «الملقبين بعضد الدين» ترجم له ابن الغوطي مرة أخرى في الملقبين بمجيد الدين من تلخيصه (٥) «الترجمة» (٦٤٨)، ونقل هنا من تاريخ ابن الدبيثي. وترجم له أيضاً الذهبي في «تاريخ الإسلام» الورقة (٢٥ باريس ١٥٨٢)، و«التذكرة» (٤/ ١٣٥٦)، و«الإعلام»، الورقة (٢١١)، وابن تغري بردي في «النجوم الزاهرة» (٦/ ١١١)، وابن العماد في «شذرات الذهب» (٤/ ٢٨٤).

وسجستان وبلاد ما وراء النهر؛ وسمع هناك الكثير، وقرأ بنفسه وكتب بخطه، وحصّل الأصول والكتب الكثيرة. قال ابن النجار: وكان حسنَ المعرفة، سريعَ القلم، وافر الهمّة، شديد الحرص، جيّد الطلب. ولد سنة تسع وعشرين وخمس مائة وتوفي سنة خمس وثمانين وخمس مائة. ولم يكن في زمانه ولا من أقرانه أكثرُ طلباً منه، ولا أطول سفراً ولا أكثر تحصيلاً. جمع وخرّج، وحدّث باليسير لأنّه توفي في سنِّ الكهولة. وكان فاضلاً ثقة، صدوقاً، حسنَ المعرفة بالحديث. نفذ رسولاً من الديوان إلى بلاد الروم وغيرها، وتولّى مشيخة رباط أم الخليفة بدرب زاخي، ثم أُعطي دار ابن التلميذ بسوق العطر، وكانت من الدور المذكورات. وصارت له نعمةٌ وثروة وارتفاعُ قدرٍ، فأتاه حَيْنُه في أحسن أحواله.

٤٢ ـ **«الحنبلي الغوري»**[(١)] **يوسف بن أحمد بن صالح الغوري**، أبو القاسم المقرىء البغدادي. قرأ القرآن على أبي الحسن علي بن أحمد بن عمر بن الحَمَّامي. وسمع منه ومن أبي الفتح هلال بن محمد بن جعفر الحفّار، وأقرأ القرآن وحدّث باليسير. وتوفي سنة سبع وستين وأربع مائة. وكان حنبلياً؛ وحملوه لما مات في تابوت لئلاّ يُمزّق ما عليه من كثرة اللامسين له، ودفن بجانب قبر الإمام أحمد وكانت جنازته عظيمة.

٤٣ ـ **«ابن الخَرَزي»**[(٢)] **يوسف بن أحمد بن الخرزي**، أبو طاهر البغدادي، ولي النظر بالمخزن والصّدرية أيام المستظهر بالله مدّةَ حياتِه، وولي ولدُه المسترشد فأقرَّه على ولايته مُدَيْدَةً ثم عزله، قال أبو الفتوح بن طلحة صاحب المخزن: كنّا نخدم مع المسترشد وهو ولي عهد، وكان ابن الخرزي يُقَصِّر في حقِّه ويقفُ في حوائجه، فكتبتُ إليه ألومه وأقول: لا تفعل! فيقول: أنا أخدم شاباً في أوّلِ عُمُره ـ يشير إلى المستظهر ـ وما أبالي. وكان المسترشد حنقاً عليه ويقول: لئن وليت لأفعلنَّ به ولأفعلن. فلما ولي، خلا بي ابن الخرزي وأمسك ذيلي وقال: الصنيعة؟ فقلت له: الآن، وقد فعلت في حقِّه ما فعلت؟ فقال: انظر ما تفعل؛ فقلت: هذا رجل قد ولي ولا مالَ عنده فاشترِ نفسَك منه بمال؛ فقال: كم؟ قلت: تقدير عشرين ألفاً؛ فقال: والله ما رأيتُها قطُّ؛ قلت: لا تفعل، فلم يقبل. فجعل عليه المسترشد، ثم بعد أيام خلع عليه. وكتبت إلى المسترشد أقول: أليس هذا الذي فعل كذا وكذا؟ فكتب إليّ ﴿**خُلِقَ الإِنْسَانُ من عَجَل**﴾ [الأنبياء: ٢١/٣٧]، ثم عاد وجعل عليه، ثمّ تقدّم بالقبض عليه، فأخذنا من داره ما يزيد على مائة ألف دينار، وأواني الذهب والفضّة، ثم أخذنا له مملوكاً كان يعرف باطنه فضربناه، فأومأ إلى بيتٍ في داره، فاستخرجنا منه

(١) انظر ترجمته في «تاريخ الإسلام» (٤٦١ ـ ٤٧٠هـ)، و«طبقات الحنابلة» (٢/ ٢٥٣).

(٢) انظر ترجمته في «البداية والنهاية» لابن كثير (١٢/ ١٨٣)، و«عيون التواريخ» (١٢/ ١٢٨).

دفائن أربع مائة ألف دينار، ثم تقدّم إلينا بقتله. وتوفي سنة خمس عشرة وخمس مائة قتيلاً في محبسه.

٤٤ ـ **«ابن الدَّخيل»**[١] **يوسف بن أحمد بن يوسف بن الدخيل**، أبو يعقوب الصَّيدلاني. راوي «كتاب الضعفاء» لأبي جعفر العقيلي. توفي سنة ثمان وثمانين وثلاث مائة.

٤٥ ـ **«ابن كَجّ الشافعي»**[٢] **يوسف بن أحمد بن يوسف بن كَجّ** ـ بالكاف المفتوحة والجيم المشددة ـ القاضي أبو القاسم الدّينوري الشافعي. كان أحد الأئمة الشافعية. صحب أبا الحسن القطّان، وحضر مجلس أبي القاسم عبد العزيز الدّاركي، وجمع بين رئاسة العلم والدنيا، وارتحل إليه الناسُ من الآفاق للاشتغال عليه بالدينور رغبةً في علمه وجَوْدَة نظره. وله وجهٌ في المذهب، وصنّف كتباً كثيرة انتفع بها الفقهاء. قال أبو سعد بن السمعاني: لما انصرف أبو علي الحسين بن شُعَيْب السِّنْجي من عند الشيخ أبي حمد الإسفراييني، اجتاز به فرأى علمه وفضله فقال: «يا أستاذ الاسم لأبي حامد والعلم لك». فقال: «ذلك رفعته بغداد، وحطّتني الدينور».

وتوّلى القضاءَ ببلده، وكانت له نعمةٌ كثيرة. وقتله العيّارون بالدينور في شهر رمضان سنة خمس وأربع مائة، رحمه الله تعالى.

٤٦ ـ **«الطبيب»**[٣] **يوسف بن أحمد بن حسْداي بن يوسف الإسرائيلي المسلم الأندلسي**، أبو جعفر الطبيب. من أعيان الفضلاء في الطب وله مصنّفات. قدم مصر وكان خصّيصاً بالمأمون الوزير وشرح له بعض كتب أبقراط؛ وله «كتاب الإجمال» في المنطق. وهو من بيت طبّ وفلسفة، وأجداده من فضلاء اليهود. توفي في حدود الثلاثين وخمس مائة. وكانت فيه دعابة وله نوادر. قيل إنه اصطحب هو ورجل صوفي لما قدم من المغرب وكان الأنس بينهما قد تمكن، فلما وصلا إلى القاهرة قال له الصوفي: أين تنزل في القاهرة حتى أجيء إليك وأراك؟ فقال أبو جعفر: ما كان في خاطري أن أنزل إلاّ في حانة الخمار وأشرب فإن كنت توافق رأيي وتأتي إلى عندي فرأيك، فصعب رأيُه على الصُّوفي وأنكر هذا القول ومشى إلى الخانقاه. ولما كان بعد أيام وأبو جعفر في السوق وإذا بجمع من الناس

---

(١) انظر ترجمته في «تاريخ الإسلام» (٣٨١ ـ ٤٠٠هـ).

(٢) انظر ترجمته في «شذرات الذهب» (٣/ ١٧٧)، و«سير أعلام النبلاء» (١٧/ ١٨٣)، و«البداية والنهاية» (١١/ ٣٥٥)، و«مرآة الجنان» (٣/ ١٢)، و«تاريخ ابن خلدون» (٤/ ١٦٣).

(٣) انظر ترجمته في «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» (٤٩٩).

وفي وسطهم صوفي يعزّر وقد اشتُهر أمرُه بأنّه وُجد سكران، فلما نظره ابن حسداي عرفه فقال له: بالله قتلك الناموس.

٤٧ ـ **«أبو الحكم المِلْيانيّ»**[١] **يوسف بن أحمد بن عيّاد**، أبو الحكم التميمي المِلْياني. جال في الأقاليم ولقي السهروردي الفيلسوف بملطية وأخذ عنه، وسكن دانية. ونوظر عليه بها وكان شاعراً مُجوِّداً، غالياً في التَّشيُّع، قال الشيخ شمس الدين: له عقيدةٌ خبيثة، وفيها اتّحاد ظاهر. توفي سنة إحدى وعشرين وست مائة.

٤٨ ـ **«الحافظ اليَغْموري»**[٢] **يوسف بن أحمد بن محمود بن أحمد، الحافظ جمال الدين اليَغْموري، أبو المحاسن الأسدي الدمشقي**. ولد في حدود الست مائة وتوفي رحمه الله ثلاث وسبعين وست مائة. وسمع الكثير بدمشق والموصل والإسكندرية. وعني بالحديث، وتعب وحصّل وكتب الكثير من الحديث والأدب، وخطّه معروفٌ مشهور بين الفضلاء. وكان له فهم ومعرفة وإتقان ومشاركة في الآداب والتواريخ، وله مجاميع حسنة. وتوفي عند شهاب الدين بن يغمور، وكان والده يصحبه فَعُرِفَ به. كتب شهاب الدين بن الخيمي إلى الحافظ اليغموري، وكانا أرمدين: [من الوافر]

أُبـثُّـكَ يـا خـلـيـلـي أنّ عَـيْـنـي ... غَـدتْ رمـداءَ تـجـري مـثـلَ عـيـنِ
حـديـثـاً أنـت تـعـرفُـه يـقـيـنـاً ... لأنّـك قـد رَمِـدْتَ وأنْـت عـيـنـي

فأجاب الحافظ: [من الوافر]

كـفـاكَ الـلّـهُ مـا تـشـكـو وحـيـنـي ... مـحـاسـن مـقـلـتـيـك بـكـلِّ زيـنِ
فـإنـي مـن شـفـائـك ذو يـقـيـنٍ ... لأنّـك قـد شُـفـيـتَ وأنـت عـيـنـي

ومن شعر الحافظ قوله: [من الرمل]

رجـع الـودُّ عـلـى رغـم الأعـادي ... وأتـى الـوصـلُ عـلـى وفـق الـمـرادِ
مـا عـلـى الأيـام ذمّ بـعـدمـا ... كَـفَّـر الـقُـربُ إسـاءاتِ الـبـعـادِ

ومنه أيضاً: [من الرمل]

أنـا مـرآةٌ فـإنْ أبـصـرتُـمُ ... حَـسَـنـاً أنـتـمُ بـهـا ذاك الـحـسـنْ

---

(١) انظر ترجمته في «تاريخ الإسلام» (٦٢١ ـ ٦٣٠).

(٢) انظر ترجمته في «مجمع اللغة العربية» (٤٦/ ٨٠٧)، و«النجوم الزاهرة» (٧/ ٢٤٧)، و«عقود الجمان» (٣/ ٣٥٠)، و«الأعلام» للزركلي (٨/ ٢١٤).

أوتَرَوْا ما ليس يرضيكُم ... فقد صدئت إذْ لم تَرَوْها من زَمَنْ

٤٩ ـ «ابن قنّويه»[١] **يوسف بن أحمد بن قنّويه** ـ بالقاف والنون المشددة والواو والياء آخر الحروف وبعدها هاء ـ هو ممّن رثى أبا الطّيب المتنبي وحرّض عضدَ الدولة على فاتك ابن جهم وبني أسَد، فقال: [من الكامل]

من للطراد وللطّعان مباشراً ... بالنّفس قُدماً فوق كلِّ جواد

ما زلتَ تُعنى بالأسنّة والقنا ... وتُقِلّ لُبثَ السَّيف في الأغماد

ما زلت ترتبطُ الجياد وتتّقي ... صرفَ الزّمان بحكمةٍ وسداد

حتّى أتى الأمرُ المطاع فلم تُطِقْ ... رداً له بالأهل والأولاد

وجعلتَ تنظرُ هل لنفسك مُسْعِدٌ ... عند الممات وهل لها من فاد

فإذا العبيدُ عبيدُ سوءٍ كلُّهم ... إلاّ غُلاماً مُخلصاً بوداد

قلت يعني مُفْلِحاً عَبْدَ أبي الطيب الذي قتل معه.

لم يألُ جهداً في الجلاد بسيفه ... والضَّربِ للهامات والأعْضاد

طلباً لنفسك في الحياةِ بنفسِهِ ... والجودُ عند الموت بالإسْعادِ

فثوى خضيباً بالدماء وسيفُه ... مُلقىً بغير حمائلٍ ونجاد

وقال يرثيه أيضاً: [من الكامل]

فلئن حييتُ ولم أَمُتْ من بعده ... فلقد ألفتُ الحزنَ حتى أُحشرا

لم لا وقد قصدَ الزمانُ بصرفه ... جَبَلَ العلوم وكهفها والمُخْبرا

فإليه منّي بالسلام تحيةٌ ... يغدو إليه نسيمُها متعطّرا

لهفي عليك أبا المحسَّد والقنا ... تأبى طعانُك خِيفةً أن تَقْصرا

لهفي عليك وقد سقطت مكسَّراً ... من بعد ردِّك للوشيج مكسَّرا

قلت: شعر نازل.

٥٠ ـ «القِناوي علم الدين الخطيب الشافعي»[٢] **يوسف بن أحمد بن إبراهيم، علم الدين الخطيب القِناوي الشّافعي الأديب.** كان من الرؤساء الأعيان الكرماء الأجواد

---

(١) لم أعثر على مصادر ترجمته.

(٢) انظر ترجمته في «الطالع السعيد» (٧١٥) و«أعيان العصر» (٣/ ٣٣٨)، و«الدرر الكامنة» (٥/ ٢٢١).

الأذكياء. قرأ الفقه على جلال الدين أحمد الدِّشناوي. وكانت معرفةٌ جيدة بحلِّ الألغاز، ونظم فيها أشياء كثيرة، وتوفي في رجب سنة ثمان وعشرين وسبع مائة.

وله لغز في لابس، الثاني منه: [من السريع]

يبينُ إن صُحِّفَ مع قول لا ... ولا إذا صَحَّفْتَهُ لا يبين

وله لغز في معنى: [من مجزوء الرَّجز]

ما اسم إذا عكسته ... يُطْرِبُ إن سمعته

ينعم بالوصل متى ... صَحَّفْتَ ما عكسته

وله لغز في زغل: [من الوافر]

وما لغز إذا فتَّشت شِعري ... تراه مسطَّراً فيه مُسَمَّى

وإنْ تعكسه كان من التحريّ ... إذا حقَّقْته في البئر يُرمى

وفاعلُه إذا نمُّوا عليه ... فتخشى أن تزال يداه حَتْما

قال الفاضل كمال الدين جعفر الأدفوي: تولىٰ الخطابة ببلده، وناب في الحكم في مواضع شتّى، منها: دشنا وفاو من بلاد قوص، والمنشأة وطوخ من بلاد إخميم؛ وكان يكرم الوارد.

٥١ ـ «ابن قُطنة المصري الشاعر»(١) **يوسف بن أحمد بن قطنة المصري الشاعر.** مدح الصَّاحب تاج الدين بن فخر الدين بن جنالة بديوان شعر. توفي إلى رحمة الله تعالى سنة ثمانين وست مائة.

ومن شعره أيضاً: [من الطويل]

بمدحِك في الدُّنيا تنالُ المطالبُ ... وتُرجى لأصحاب الخمول [...]

لقد عُلمت منك الهباتُ وهكذا ... تكون بقدر الواهبين المواهبُ

أرى الجود مما تستحبُّ ولم تزل ... ترى أنّه فرضٌ عليك وواجب

فأنت الذي آوى الغريب لبابه ... فما ساقه أوطانه والحبائِب

فما أمّ هذا البابَ إلاّ مؤمِّلٌ ... ولا عاد عنه آملٌ وهو خائبُ

قلت شعر متوسط.

(١) لم أعثر على مصادر ترجمته.

٥٢ ـ **«المسند ابن غالية» يوسف بن أحمد بن أبي بكر بن علي بن إسماعيل بن عمر بن عبد المجيد**[(١)]، المسند المعمّر بقية الرواة، أبو علي الغسولي المعروف بابن غالية، ولد سنة اثنتي عشرة وست مائة بقاسيون؛ وتوفي رحمه الله تعالى، سنة سبع مائة.

وسمع من موسى بن عبد القادر، والشيخ الموفَّق. وتفرّد في وقته وسمع منه خلق، وسمع منه الشيخ شمس الدين، وكان شيخاً ساكناً فقيراً مُتَعفِّفاً؛ بدت منه هنات في وسط عمره، ثم إنّه كبر وصلُح أمرُه، وكان حجّاراً ثم عجز ولزم بيته. وسمع منه البرزالي والمِزي، والمقاتلي، وابن النابلسي، والمحبّ، والصدر أبو بكر ابن خطيب حماه، والشهاب ابن عُدَيْسة، والشيخ نجم الدين القحفازي، وخلق. وجُبيَ له الكَفن لمّا توفي رحمه الله تعالى.

٥٣ ـ **«صدر الدين الجذامي»**[(٢)] **[يوسف] بن أحمد بن محمد بن يوسف بن عبد الغني، صدر الدين الجذامي الإسكندري**، الفقهي المالكي، الأديب الشاعر يُعْرفُ بابن غنّوم بغين معجمة ونون مشددة وواو بعدها ميم موقع الثغر ـ كان فاضلاً ذكياً. كتب للقضاة زمناً طويلاً ثم انقطع في منزله. وخمَّسَ قصائد للصَّرصَري. ولد بالإسكندرية سنة ست وسبعين وست مائة؛ وتوفي رحمه الله تعالى سنة أربع وثلاثين وسبع مائة. قال الفاضل كمال الدين جعفر الأدفوي: أنشدني له وقد سألته أن يُنْشدَني شيئاً من شعره [من البسيط]:

يا من يسائلُ عن شِعري ليرويه ... مهلاً فليس شِعاري نظم أشْعاري

مُذْ حلَّ زائرُ هذا الشيب صَيَّرني ... بعد الصبا وإزاري ذكرُ أوزاري

قال وأنشدني له أيضاً: [من السريع]

وبي غريبُ الدار مستأنسٌ ... أسال دمعي منه خَدٌّ أسيلْ

فإن أمُتْ شوقاً إلى وصله ... ففي سبيل الله وابن السبيلْ

وأنشدني له أيضاً: [من الكامل]

قُمْ نَفْتَرِعْ بكرَ المُدامة بكرةً ... في روضةٍ حَسنَتْ وراقتْ مَنْظرا

فالراحُ سيفٌ قاطعٌ لهمومنا ... أو ما تراه بالحباب مُجَوهرا

قال: وأنشدني له: [من الوافر]

---

(١) انظر ترجمته في «شذرات الذهب» (٤/٤٥٨)، و«معجم شيوخ الذهبي» (٦٥٢).

(٢) انظر ترجمته في «الدرر الكامنة» (٥/٢٢٣)، و«أعيان العصر» (٣/٣٣٩).

جـلا مِـسْـواك ثـغـرك خـيـرَ دُرٍّ   فـجـلَّ بـذاك واكـتـسـب الـمـزايـا
وأنـشـد صـحـبَـه تـيـهـاً وفـخـراً   «أنـا ابـن جـلا وطـلاع الـثـنـايـا»

قلت: شعر جيّد.

٥٤ ـ **«ابن أسباط الزاهد»**[١] **يوسف بن أسباط الزاهد الصالح**، أحدُ مشايخ القوم، له مواعظ وحكم؛ وتوفي في حدود المائتين، رحمه الله تعالى.

ابن إسحاق

٥٥ ـ **«ابن أبي إسحاق السَّبيعي»**[٢] **يوسف بن إسحاق بن أبي إسحاق السّبيعي الهمداني الكوفي**. قال أبو حاتم: صدوق، لا يحتج به؛ وقال النسائي: ليس به بأس؛ وقال أحمد: حديثه مضطرب. وتوفي سنة سبع وخمسين ومائة. وروى له مسلم والأربعة.

٥٦ ـ **«صلاح الدين الدوادار» يوسف بن أسعد، الأمير صلاح الدين الدوادار**[٣]. كان في مبدأ أمره نصف عامل في بيروت على ما قيل، ثم بطل الكتابة وتوصّل بالجندية إلى أن صار دوادار الأمير سيف الدين قُجَقْ؛ ثم آل أمره إلى أن أخذ الإمرة بحلب وولي بها الحجوبية في أيام الأمير علاي الدين أَلْطُنْبُغا؛ ثم ولي بها شدّ الدواوين؛ ثم طُلب إلى مصر مرّات؛ ثم ولي نيابة ثغر الإسكندرية؛ ثم ولاية منفلوط بالصعيد؛ ثم إنّه جُعل مشدّ الدواوين بالقاهرة في أيام وزارة الأمير علاي الدين ألُطنبغا مُغُلْطاي الجمالي؛ ثم عُزِل وبقي بمصر أميراً؛ ثم جهّزه السلطان رسولاً إلى السلطان أبو سعيد فعاد وقد أشاع الناسُ أنّه يكون وزيراً، فلما وصل إلى مصر سُعِيَ عليه وأُبطل ذلك، فسعى له الأمير سيف الدين بَكْتَمُر السّاقي لمّا مات الأمير شهاب الدين أمير مهمندار، فرسم له السلطان الملك الناصر بالمهمندارية، فأقام بها قليلاً فلمّا توفي الأمير سيف الدين الجاي الدوادار جعله السلطان دواداراً. وكان القاضي شرفُ الدين بن الشهاب محمود قد رسم له بعدة بيوعات بكتابة السرّ

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٩/ ١٦٩)، «التاريخ» لابن معين (٦٨٤) «التاريخ الكبير» (٨/ ٣٨٥)، «التاريخ الصغير» (٢/ ٢٦٥)، «الضعفاء» للعقيلي لوحة (٤٧٢)، «الجرح والتعديل» (٩/ ٢١٨)، «مشاهير علماء الأمصار» (ت ١٤٩٠)، «حلية الأولياء» (٨/ ٢٣٧)، «ميزان الاعتدال» (٤/ ٤٦٢).

(٢) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٧)، «الطبقات» لابن سعد (٦/ ٣٧٤)، «التاريخ الكبير» (٨/ ٣٨٣)، «الجرح والتعديل» (٩/ ٢١٧ ـ ٢١٨)، «تهذيب الكمال» (ح ١٥٥٧)، «تذهيب التهذيب» (ح ٤/ ١٨٩)، «تاريخ الإسلام» (٦/ ٣١٧)، «عبر الذهبي» (١/ ٢٢٨)، «تهذيب التهذيب» (١١/ ٤٠٨)، و«شذرات الذهب» (١/ ٢٤٢).

(٣) انظر ترجمته في «الدرر الكامنة» (٥/ ٢٢٦).

في مصر، فقاسى شرف الدين منه شدائد وأنكاداً كثيرة، وتوجّها إلى الحجاز في رِكاب السلطان وهما في ذلك النكد والشرّ، فلما حضرا من الحجاز أقام القاضي شرف الدين قليلاً وهو يعمل عليه إلى أن عُزِلَ وأُخرجَ إلى دمشق. وبقي الأمير صلاح الدين المذكور في الدوادارية وقد استطال على الناس أجمعين، خصوصاً الكُتّاب فحسّنوا للسلطان أن يخرج كاشفاً الثغور الحلبية، فتعلل وانقطع في بيته مدة شهرين، ولما قام ودخل إلى السلطان عزله في ثاني شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين وسبع مائة ورسم أنْ يتوجّه إلى صفد أميراً، فتوجّه إليها وأقام بها قليلاً ونُقِل إلى طرابلس ثم نُقل إلى حلب وجُعِل والي البرّ، فيما أظن. ثم إنّه حجّ بعدما نُقِلَ إلى طرابلس، وورد الخبر إلى دمشق بوفاته بطرابلس في جمادى الأولى سنة خمس وأربعين وسبع مائة. وكان يكتب خطاً حَسَناً. وله مشاركة في تواريخ وتراجم النّاس. وكان فيه شُحٌّ مُفْرط، إلا أنّه وقف داره بحلب مدرسة على فقهاء الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة؛ ووقف كتّاب أيتام بالمدينة النبوية؛ وكان يدّعي النظم. وأُنْشِدْتُ له: [من البسيط]

ما اللّعْبُ بالنار في الميلاد من سَفَهٍ ... لكنّما هو للإسلام مَقصودُ

يراد كَتْبُ النصارى أنّ ربَّهُمُ ... عيسى ابنَ مريمَ مخلوقٌ ومولودُ

أنشدنيها صلاح الدين خليل بن رمتاس بصفد وقال: أَنشدنيها، وقال إنّهما له. واقتنى كتباً كثيرة.

ابن إسماعيل

٥٧ ـ «ابن اللَّمغاني الحنفي»(١) **يوسف بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن عبد السلام بن الحسن، أبو يعقوب اللَّمغاني الفقيه الحنفي البغدادي**، من أهل باب الطّاق، من بيتٍ مشهور بالفقه والعدالة. تقدم ذكر أبيه في مكانه. وتفقّه على أبيه وعمّه محمد حتى برع في المذهب والخلاف. وقرى كثيراً من مذهب الاعتزال وناظر المتكلمين في إثبات خلق القرآن. وقرأ عليه جماعة من الفضلاء وتخرجوا به. وولي التدريس بجامع السلطان بعد وفاة الأمير السيّد أبي الحسن علي العلوي، وناب في التدريس بمشهد الإمام أبي حنيفة؛ وانتهت إليه رئاسة أصحاب الرأي. وكان غزيرَ الفضل، حسن المناظرة، ذا أخلاق لطيفة وكيس وتواضع. سمع شيئاً من الحديث في صباه من أبي عبد الله الحسين بن الحسن المقدسي إمام مشهد أبي حنيفة، وأبي المعالي المبارك بن المبارك البزّار، وغيرهما. قال ابن النجار: كتبنا

(١) انظر ترجمته في «الجواهر المضية» (٣/٦٢٠)، و«التكملة لوفيات النقلة» (٣/٢٨٨)، و«البداية والنهاية» (١٣/٥٣) و«الطبقات السنية» برقم (٢٧٢٤).

عنه وكان صدوقاً. ولد سنة ثمان عشرة وخمس مائة، ومات سنة ست وست مائة.

٥٨ ـ «ابن نحرير الأُسواني»[١] **يوسف بن إسماعيل بن سعد الملك بن نحرير الأُسواني.** قارىء المصحف قراءة حسنةً صحيحة وله صوتٌ شَجٍ. وتوفّي بأسوان سنة أربع عشرة وسبع مائة. قال محمد بن العريف الأسواني: كنّا مجتمعين فأورد البيت الثاني من الأبيات فقال يصلح أن يكمل عليه ويجعل له أولاً، وأنشدنا ارتجالاً: [من الطويل]

شكوتُ إليه ما ألاقي من الهوى ... فما حَنَّ لي يوماً ولا رَقّ للشكوى

فلو أنني قاضي المحبين في الهوى ... حكمتُ لمن يهوى على كل

فيا مُهجتي ذوبي أسىً وصبابةً ... ويا عاذلي دعني فإنّي لا أقوى

٥٩ ـ «تاج الدين بن العجمي»[٢] **يوسف بن إسماعيل بن عبد الكريم بن عثمان، الشيخ الجليل المُسند تاج الدين أبو المحاسن بن العجمي الحلبي.** سمع من الضياء صقر الحلبي وغيره. وتوفي رحمه الله بكرة الخميس ثامن عشرين شوّال سنة تسع وعشرين وسبع مائة. أجاز لي بحلب سنة ثمان وعشرين وسبع مائة؛ وكتب عنه الشيخ تقي الدين محمد بن رافع السلامي.

٦٠ ـ «أبو يعقوب الهمداني الصالح»[٣] **يوسف بن أيوب بن يوسف بن الحسين بن وَهَرَة، أبو يعقوب الهمداني، الفقيه العالم الزاهد الربّاني صاحبُ المقامات والكرامات.** قدم بغداد في صباه بعد الستين وأربع مائة ولازم الشيخ أبا إسحاق الشيرازي وتفقه عليه، وبرع في الأصول والمذهب والخلاف. وسمع من القاضي أبي الحسين محمد بن علي بن المهتدي بالله، وأبي الغنائم عبد الصمد بن علي بن المأمون، وأبي جعفر محمد بن أحمد بن المُسْلِمة، وأبي محمد عبد الله بن الصَّريفيني، وأبي الحسين أحمد بن محمد بن النَّقور وغيرهم. وسمع بإصبهان وسمرقند وكتب أكثر ما سمعه، ثم إنّه زهد في ذلك ورفضه واشتغل بالزهد والعبادة والرياضة والمجاهدة إلى أن صار علماً من الأعلام الذين يَهْتدي بهم

(١) انظر ترجمته في «الطالع السعيد» (٧١٩).

(٢) انظر ترجمته في «الدرر الكامنة» (٥/ ٢٢٦)، و«مرآة الجنان» (٣/ ٢٦٥).

(٣) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٦٦)، «الأنساب» (٢/ ٣٣٠)، (البوزنجردي)، «المنتظم» (٩/ ١٧١ و١٠/ ٩٤، ٩٥، ٩٥)، «اللباب» (١/ ١٨٦)، «الكامل» (١١/ ٨٠)، «مرآة الزمان» (٨/ ١٠٩)، «وفيات الأعيان» (٧/ ٧٨ ـ ٨١) «العبر» (٤/ ٩٧)، «دول الإسلام» (٥٢/ ٥٥) «مرآة الجنان» (٣/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥)، «طبقات الإسنوي» (٢/ ٥٣١)، «البداية والنهاية» (١٢/ ٢١٨)، «ملخص تاريخ الإسلام» (ق: ٢١)، «النجوم الزاهرة» (٥/ ٢٦٨)، «طبقات الشعراني» (١/ ١٥٩) «شذرات الذهب» (٤/ ١١٠)، «هدية العارفين» (٢/ ٥٥٢)، «جامع كرامات الأولياء» (٢/ ٢٨٩ ـ ٢٩١).

الخلقُ. وعقد مجلس الوعظ بالنظامية وصادف بها قبولاً عظيماً. قال ابن السمعاني: سمعت أبا الفضل صافي بن عبد الله الصوفي الشيخ الصالح ببغداد يقول: حضرت مجلس شيخنا يوسف الهمداني في النظامية وكان قد اجتمع العالم، فقام فقيه يُعْرف بابن السَّقاء وآذاه وسأله عن مسألة، فقال له الإمام يوسف: اجلس فإنّي أجد من كلامك رائحة الكفر ولعلك تموت على غير دين الإسلام؛ قال أبو الفضل: فاتفق أن بعد هذا القول بمدّة قدم رسول نصراني من ملك الروم إلى الخليفة فمضى إليه ابن السّقاء وسأله أن يستصحبه، وقال له: يقع لي أن أتركَ دين الإسلام وأدخل في دينك، فقبله النصراني وخرج معه إلى القسطنطينيّة والتحق بملك الروم ومات على النصرانية. قال ابن النجار. سمعت أبا الكرم عبد السلام بن أحمد المقرىء يقول: كان ابن السّقاء قارئاً للقرآن مجوِّداً في تِلاوته؛ حدّثني بعض من رآه بالقسطنطينية مُلقىً على دكّة مريضاً وبيده خلق مروحة يدفع بها الذّباب عن وجهه، قال فسألته: هل القرآن باق على حفظك؟ فقال: ما أذكر إلا آية واحدة **﴿ربّما يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾** [الحجر: ١٥/٢] والباقي أُنسيته، نعوذ بالله من سوء قضائه وزوال نعمة الإسلام. ولما مات الشيخ، رحمه الله، سنة خمس وثلاثين وخمس مائة دفن بمرو، وكان قد مات ببعض قرى هراة؛ ومولده تقريباً سنة إحدى وأربعين وأربع مائة.

٦١ ـ «الناصر صلاح الدين الكبير»[1] يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب، السلطان العادل المؤيّد المجاهد المرابط المثاغِر، السلطان الملك الناصر أبو المظفر ابن الملك الأفضل نجم الدين الدُّويني ـ دُوِيْن بطرف بلاد آذربيجان. اختُلِفَ في نسبه، فقوم يقولون أموي الأصل، وقال الصاحب كمال الدين بن العديم في كتاب «الإِشْعار بما للملوك من النَّوادر والأشْعار»[2]: ينتسِبُ من العرب إلى مالك بن طوق صاحب الرَّحْبة؛ وقال قوم: هو من الأكراد، وهو الصحيح. لم يأتِ في ملوك الإسلام بعد نور الدين الشهيد مثلُه، فتح القدس الشريف وطهّر السواحل من الإفرنج. وكان شافعيَّ المذهب، أشعريَّ العقيدة يلقّن عقيدة الأشعري لأولاده ويلزمهم بالدرس عليها. وسمع الحديث وأسْمَعَه أولاده.

سمع من السِّلَفي الحافظ، والإمام أبي الحسن علي بن إبراهيم بن المسلم ابن بنت أبي

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٢١/٢٧٨)، سيرته مشهورة طبقت الآفاق لما له من الأيادي البيض على الإسلام وأهله ومنها فتح البيت المقدس وتخليصه من براثن الصليبيين، فرضي الله تعالى عنه وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء وقلما يخلو كتاب تاريخ من أخباره ممن تناولوا عصره.

(٢) ذكره في «كشف الظنون» (١/١٠٤).

سعد، وأبي طاهر عون، وعبد الله بن بَرِّي، والقطب مسعود النيسابوري، وجماعة؛ وروى الحديث، وملك البلاد فتوحاً.

ولد بتكريت، وأبوه واليها سنة اثنتين وثلاثين وخمس مائة؛ وأقام في الملك أربعاً وعشرين سنة؛ وتوفي بقلعة دمشق بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء سابع عشر صفر سنة تسع وثمانين وخمس مائة، وحضر القاضي الفاضل وفاته، وغسله الدَّوْلعي وأُخْرجَ في تابوته وصلّى عليه القاضي محيي الدين بن الزكي، وأُعيدَ إلى الدّار التي في البستان التي كان فيها مريضاً، ودفن في الصُّفَّةِ الغربية منها؛ وصلّى عليه الناسُ أرسالاً، وتأسّف الناسُ عليه، حتى الفرنج، لما كان من صِدْقه ووفائه إذا عاهدهم.

وبنى ولدُه الأفضل على شمالي الجامع الأموي قبّةً وهي التي شُبّاكُها قبلي الكلاسية، ونقله إليها يوم عاشوراء سنة اثنتين وسبعين وخمس مائة، ومشى بين يدي التابوت، وأراد العلماء حمله على رقابهم فقال الأفضل: «يكفيه دعاؤكم الصالح»، وحمله مماليكُه، وأُخْرِجَ إلى باب البريد وصُلِّيَ عليه قدّام النسر، وصلّى عليه محيي الدين ابن الزكي، ولحده ولده الأفضل وخرج وسدّ الباب وجلس للعزاء ثلاثة أيام.

وفتح القدس والبلاد الساحلية والشاميّة والفراتيّة والحصون الفرنجية، ولم يخلف إلاّ سبعة وأربعين درهماً وديناراً واحداً صورياً؛ ولم يخلف ملكاً ولا عقاراً، وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وابنة صغيرة: الملك الأفضل علي صاحب دمشق، والملك العزيز عثمان صاحب مصر، والملك الظاهر غازي صاحب حلب، والملك المعزّ فتح الدين إسحاق، والملك المؤيد نجم الدين مسعود، والملك الأعز شرف الدين يعقوب، والملك الظافر مظفر الدين خضر، والملك الزاهر مجير الدين داود، والملك المفضل قطب الدين موسى، والملك الأشرف عزيز الدين محمد، والملك المحسن ظهير الدين أحمد، والملك المعظم فخر الدين توران شاه، والجواد زكي الدين أيوب، والغالب نصير الدين ملكشاه، وعماد الدين شادي، ونصرة الدين مروان، والمنصور أبا بكر، ومؤنسة زوج الملك الكامل. وهؤلاء كلُّهم عاشوا بعده، وكان أكثرهم بحلب عند الظاهر، وآخرُهم موتاً توران شاه توفي بعد أخذ حلب، في قلعتها. وقد تقدّم في ذكر نجم الدين أيوب بن شاذي ذكر أصلهم وسبب اتّصالهم بنور الدين الشهيد، وتقدّم أيضاً في ترجمة أسد الدين شيركُوه بن شاذي سبب دخول شيركوه إلى مصر بحدّه في أيام العاضد، وفي ترجمة أيوب المذكور سبب وزارة صلاح الدين يوسف المذكور للعاضد خليفة مصر، وفي ترجمة القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي طرف من ذلك، فليكشف جميع ذلك من أماكنه المذكورة.

وأرسل العاضد خلع الوزارة إلى صلاح الدين، وكانت العادة في مثل ذلك، ما يُذكر: وهو عمامة بيضاء تنّيسي بِطُرُز ذهبٍ، وثوب دبيقي بطرازي ذهب، وجُبَّة تحتها سقلاطون بطرازي ذهب وطيلسان دبيقي بطراز ذهب رقيق، وعقد جوهر قيمته عشرة آلاف دينار، وسيف محلّى مُجوهر قيمته خمسة آلاف دينار، وفرس حجر صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار، ولم يكن بالديار المصرية أسبق منها، وطوق وتخت وسرفسار ذهب مجوهر وفي رقبة الحجر مشدة بيضاء وفي رأسها مائتا حبة جوهر، وفي أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر، وقصبة ذهب وفي رأسها طلعة مجوهرة وفي رأسها مشدة بيضاء بأعلام ذهب، ومع الخلعة عدّة بُقَج وعدّة من الخيل وأشياء أُخَر، ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض.

وكانت وزارة صلاح الدين يوم الإثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وخمس مائة. وجلس في دار الوزارة وحضر الأمراء والكبراء ووجوه البلد وأرباب دولة العاضد؛ وعمَّ الناسَ جميعَهم، المصريين والشاميين، بالهبات والصِّلات. ولما وزر صلاح الدين للعاضد شكر نعمةَ الله تعالى عليه وتاب عن الخمر وأقلع عن اللهو وأقبل على الجد والاجتهاد. وجرى له مع العاضد ما جرى من خلعه وإقامة الدعوة بمصر للعبّاسيين. ولم يزل يشنّ الغارات على الفرنج بالكرك والشوبك وبلادهما، وجعل الناس يهرعون إليه من كل جانب وهو يُفيض عليهم سحائبَ الإنعام إلى أن اشتهر ذكرُه وبَعُدَ صيتُه. ولمّا استقرّ أمرُه بمصر أخذ نور الدين الشهيد حمص من نوّاب أسد الدين، وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الإسْفِهْسَلار ويكتب علامته في الكتب تعظيماً أن يكتب اسمه، وكان لا يفرده بكتاب بل يكتب الأمير الإسْفِهْسلار صلاح الدين، وكافّة الأمراءُ بالديار المصرية يفعلون كذا؛ هذا قبل موت العاضد.

والتمس صلاح الدين من نور الدين أنْ يبعثَ إليه إخوته فلم يرسلهم وقال: أخاف أن يخالف أحدٌ منهم عليك فتفسد البلاد؛ ثم إنّه جهّزهم إليه، فلمّا تجمّع الفرنج وطلبوا المسير إلى مصر فتوجّه إليه والده نجم الدين ومعه بقية إخوته، وفي ذلك يقول عمارة اليمني من قصيدة: [من الكامل]

عجباً لمعجزةٍ أتت في عصره	والدّهرُ ولادٌ لكلِّ عجيبِ
ردَّ الإلٰهُ به قضيّة يوسفَ	نسقاً على ضَرْبٍ من التّقريبِ
جاءته إخوتُه ووالدُه إلى	مصر على التّدريج والترتيبِ

وكان وصولهم إليه سنة خمس وستين وخمس مائة، ولما أن توجه صلاح الدين مع

عمه أسد الدين شيركوه إلى مصر في المرة الثالثة، قال العِرْقِلة: [من السريع]

أقـــولُ والأتـــراكُ قـــد أزمـــعـــتْ ... مـــصـــرَ إلـــى حـــربِ الأعـــاريـــبِ

رَبِّ كـــمـــا مَـــلّـــكـــتـــهـــا يـــوســـفَ ... الـــصـــدّيـــقَ مـــن أولاد يـــعـــقـــوبِ

مـــلّـــكـــهـــا فـــي عـــصـــرِنـــا يـــوســـفَ ... الـــصّـــادقَ مـــن أولاد أيّـــوبِ

فكان ذلك فألاً جرى على لسانه.

ولما خلع العاضد وجرى له، أرسل صلاح الدين إلى نور الدين يعرّفه ذلك، فسيَّر نور الدين إلى أمير المؤمنين المستضيء يعرفه بذلك فحلَّ عنده مَحَلّاً عظيماً، وسَيّر إلى نور الدين الخِلَعَ الكاملة له ولصلاح الدين أيضاً، إلاّ أنّها أقلّ من خلع نور الدين، وسُيِّرت الأعلامُ السّود لتنصب على المنابر. ثم إنّ الوحشة حصلت بين نور الدين وصلاح الدين لأنّه طلب منه المسير إليه إلى الكرك بالعساكر المصرية لحصار الفرنج، فاعتذر باختلال البلاد وأنّه متى سار بالعساكر خاف لبعده عنها، فلم يقبل نور الدين عذره وعزم على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها، فبلغ الخبر صلاح الدين فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين وخاله شهاب الدين الحارِمي ومعهما سائر الأمراء، وأعلمهم بما عزم عليه نور الدين واستشارهم فلم يجبه أحدٌ منهم، وقام تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين وقال: إذا جاء قاتلناه وصدَدْناه عن البلاد، ووافقه غيرُه من أهله، فشتمهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه، وكان ذا رأي ومكر وعقل، وقال لتقي الدين: أقعد وسَبَّهُ، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذٰ شهاب الدين خالك، أتظنّ أن في هؤلاء من يحبك ويريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا، فقال: والله لو رأيت أنا وخالك هذا نور الدين لم يمكنا إلاّ أن نترجَّلَ له ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا فكيف يكون غيرنا؟ وكلّ من تراه من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه ولا وسعه إلاّ النزول وتقبيل الأرض بين يديه، وهذه البلاد له وقد أقامك فيها وإذا أراد عزلك فأيّ حاجة له في المجيء، يأمر بكتاب مع نجّاب حتّى تَقصدَ خدمته ويولي بلاده من يريد؛ وقال للجماعة كلهم: قوموا عنا فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل ما يشاء بنا. فتفرقوا على هذا وكتب بعضهم بالخبر إلى نور الدين. ولمّا خلا أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل تجمع هذا الجمع الكبير وتطلعهم على سرّك؟ وإذا سمع نور الدين أنّك تمنعه بلاده جعلك أهمّ أموره وأولاها بالقصد؛ ولو قصدك لم تر معك أحداً من هذه العساكر وكانوا أسلموك إليه؛ وأما الآن فسيكتبون إليه بهذا الذي جرى، وتكتب أنت إليه وتقول له أي حاجة إلى قصدي يجيء نجّاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي. فهو إذا

بلغه هذا رجع عن قصدك واشتغل بما هو الأهم عنده، والأيام تتدرج والله ﴿**كل يوم هو في شأن**﴾ [الرحمٰن: ٥٥/٢٩]. فكان الأمر كما قال نجم الدين ولم يقصده نور الدين بعد ذلك. وتوفي نور الدين، رحمه الله، بعدما سيّر إليه موفق الدين خالد بن القيسراني يطالبه بالمال والحساب على ما تقدم في ترجمته. وكان قد بلغ السلطان صلاح الدين أنّ في اليمن إنساناً اسمُه عبد النبي قد استولى عليها وملك حصونها؛ فجهّز إليه أخاه توارن شاه فقتله وأخذ البلاد منه. ثم إنّ صلاح الدين علم أن الصالح إسماعيل بن نور الدين الشّهيد لا يستقلّ بالأمر بعد والده، فقصد دمشق في جيش كثيف مُظهراً أنه يتولّى أمر الصالح فدخل دمشق بالتّسليم في يوم الثلاثاء سلخ شهر ربيع الأول سنة سبعين وخمس مائة وتسلّم قلعتها وكان أوّل دخوله دار أبيه وهي الدار المعروفة بدار العقيقي وفرح الناس به واجتمعوا إليه وأنفق في ذلك أموالاً عظيمة، وسار إلى حلب ونازل حمص وأخذ المدينة في جمادى الأولى من السنة وهي الوقعة الأولى. وأنفذ سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي صاحب الموصل عسكراً وافراً وقدّم عليه أخاه عز الدين مسعود، وساروا يريدون لقاء صلاح الدين ليردّوه عن البلاد، فلمّا بلغه ذلك رحل عن حلب وعاد إلى حماه ورجع إلى مصر وأخذ قلعتها؛ ووصل مسعود المذكور إلى حلب وأخذ عسكر ابن عمّه الصّالح ابن نور الدين وخرجوا في جمع عظيم، فلمّا علم بذلك صلاح الدين سار إليهم ووافاهم على قرون حماه، ثم إنّهم اجتهدوا أنْ يصالحوه فما اتّفق بينهم صلح وتلاقوا فانكسروا بين يديه وأسر منهم جماعة ومَنَّ عليهم، وذلك في تاسع عشر رمضان المعظم من السنة؛ وسار عقيب ذلك ونزل على حلب فصالحوه على أخذ المعرّة وكفر طاب وبارين، ثم إنّه تصافّ هو وسيف الدين غازي على تلِّ السلطان، وانكسرت ميسرةُ صلاح الدين ثمّ انتصر عليهم وفرّوا بين يديه فلم يتبعهم ونزل في خيامهم وفرّق اسطبلاتهم ووهب خزائنهم، وسار إلى منبج وتسلمها، وتوجه إلى عزاز وحاصرها في رابع ذي القعدة سنة إحدى وسبعين وخمس مائة، وعليها وثب جماعة من الإسماعيلية على صلاح الدين فنجاه الله منهم وظفر بهم، وملك عزاز في رابع عشر ذي الحجة. ثم سار ونزل حلب في سادس عشر الشهر وأقام عليها مدّة ثم رحل عنها. وكان قد أخرجوا له ابنةً صغيرة لنور الدين سألته عزاز فوهبها لها.

ثم إنّ صلاح الدين عاد إلى مصر في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وخمس مائة وكان أخوه توران شاه قد وصل من اليمن فاستخلفه بدمشق. وتأهب للغَزاة، وخرج يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرَّملة وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وخمس مائة، وكانت الكسرة على المسلمين فطلبوا مصر وضلّوا في الطريق وتفرَّق شملُهم، وأسر الفرنج الفقيه عيسى الهكاري وكان ذلك وهناً عظيماً في المسلمين جبره الله تعالى يوم

حطّين. ثم إنّ صلاح الدين أقام بمصر يلمّ شعثه وبلغه تخبط الشام فاهتم بالغزاة فوصل رسول قِلْج أرسلان صاحب الروم يلتمس الصلح ويتضوّر من الأرمن؛ فعزم على قصد بلاد ابن لاوون وهي بلاد سيس، فدخلها وأخذ في طريقه حصناً فسألوه الصلح فصالحهم ورجع عنهم؛ فدخل عليه قِلْج أرْسَلان في صلح الشرقيّين بأسرهم فأجابه. وحلف صلاح الدين في عاشر جمادى الأولى سنة ست وسبعين وخمس مائة ودخل في الصلح قلج أرسلان والمواصلة. ورجع بعد ذلك إلى دمشق وتوجه منها إلى مصر. وتوفي الصالح ابن نور الدين الشهيد واستخلف أمراء حلب وجندها لابن عمّه عز الدين مسعود صاحب الموصل فأتى إليها خوفاً من سبق صلاح الدين إلى حلب واستولى على الحواصل وتزوج أم الصالح؛ ثم إنّه قايض أخاه عماد الدين زنكي من حلب إلى سنجار؛ وخرج من حلب ودخلها عماد الدين زنكي المذكور فجاءه صلاح الدين وحاصره في سادس عشرين المحرم سنة تسع وسبعين وخمس مائة، فصالحوه على سنجار والخابور ونصيبين وسروج وما في قلعة حلب من الحواصل والأموال ويأخذ صلاح الدين حلب، فوافقهم على ذلك وأعطى الرّقة لحسام الدين طُمان لكونه دخل في الصُّلح؛ وكان صلاح الدين قد أخذ سنجار في ثاني شهر رمضان سنة ثمان وسبعين وخمس مائة وأعطاها لابن أخيه تقي الدين عمر. ثم إنّ صلاح الدين صعد إلى قلعة حلب يوم الإثنين سابع عشرين صفر سنة تسع وسبعين وخمس مائة ورتّب أمورها ورحل عنها في ثاني عشرين شهر ربيع الآخر، وجعل فيها ولده الظاهر غازي وولي القلعة سيف الدين يازكوج الأسدي، وجعله يرتِّب مصالح ولده الظاهر غازي. وعاد إلى دمشق، وخرج منها لقصد الكرك في ثالث شهر رجب من السنة، وسَيَّرَ إلى أخيه العادل أبي بكر ليحضر إليه، وكان بمصر، فسار إليه بجيش عظيم. وحشد الفرنج واجتمعوا وجاؤوا إلى الكرك، وخاف صلاح الدين على مصر فسيّر إليها ابن أخيه تقي الدين عمر ورحل عن الكرك في سادس عشر شعبان من السنة واستصحب العادل معه إلى الشام ودخل دمشق في رابع عشرين شعبان من السنة وأعطاه حلب ودخلها يوم الجمعة ثاني عشرين شهر رمضان. وخرج الظاهر ويازكوج ودخلا دمشق. وقيل إنّ العادل أعطاه على دخول حلب ثلاث مائة ألف دينار يستعين بها على الجهاد. ثم إنّه أعاد العادل إلى مصر والظاهر إلى حلب؛ ثم إنّه أعطى العادل حرّان والرّها وميافارقين. ثم كانت وقعة حطين المباركة على المسلمين في يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمس مائة وسط النهار يوم الجمعة؛ وكان كثيراً ما يقصد لقاء العدو يوم الجمعة عند الصلاة تبركاً بدعاء المسلمين والخطيب على المنبر. وكان العدوُّ قد اجتمع بمرج صَفُّورية، فسار صلاح الدين ونزل على بحيرة طبرية على سطح الجبل لينظر قصد الفرنج فلم يتحركوا فنازل طبرية وأخذها في ساعة واحدة،

ونهب الناس مالها وسبوا وقتلوا وحرّقوا، وبقية القلعة محتمية؛ وبلغ العدو ذلك فرحلوا نحوها فترك صلاح الدين على طبرية من يحاصرها والتقى العدو على سطح جبل طبرية الغربي وباتا على مصافّ إلى بكرة الجمعة وتصادموا والتحم القتال بأرض قرية لوبيا، وضاق الخناق بالعدو وحال اللَّيلُ بينهم فحملت أطناب المسلمين من سائر الجوانب وصاحوا صيحةَ رجلٍ واحدٍ فألقى الله الرُّعبَ في قلوب الفرنج، فهرب القومص وقصد جهة صور وتبعه المسلمون فنجا منهم، وهرب بعض الفرنج فتبعهم طائفة من المسلمين واعتصمت طائفة منهم بتلِّ حطّين، فضايقهم المسلمون وأشعلوا حولهم النيران فاشتدّ بهم العطشُ، فأُسر مقدموهم وقُتِل الباقون؛ وكان ممّن سلم [وأُسِرَ] من مقدمي الفرنج الملك جفري وأخوه والبرنس ارناط صاحب الكرك والشوبك. وابن الهنفري، وابن صاحب طبرية، ومقدم الديوية، وصاحب جُبَيْل، ومقدم الاسبتار.

قال القاضي ابن شداد: ولقد حكى لي من أثق به أنه رأى بحوران شخصاً واحداً معه نيف وثلاثون أسيراً قد ربطهم بِطُنُبِ خيمة لما وقع عليهم من الخذلان. وأمّا مُقَدَّمُ الاسبتار والديوية فإن السلطان قتلهما وقتل من بقي من صنفهما حياً، وأما ارناط البرنس فإن السلطان كان قد نذر دمه لأنه كان قد عبر به قوم من مصر في حالة الصلح فغدر بهم وقتلهم فناشدوه الصلح الذي بينه وبين المسلمين فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي ﷺ. فجلس في دهليز الخيمة وعرضت الأسرى عليه وصار الناسُ يتقرّبون إليه بمن في أيديهم من الفرنج وهو يفرح بما فتح الله عليه. واستحضر الملك الجفري وأخاه البرنس ارناط، وناول السلطان الملك جفري شربةً من جُلاب وثلج فشرب منها وكان على أشدِّ حالٍ من العطش، ثم ناولها للبرنس؛ وقال السلطان للترجمان: أنت الذي سقيته وإلاّ أنا فما سقيته؛ وكان من جميل عادات العرب وجميل أخلاقهم أنّ الأسير إذا أكل وشرب من مال من أسره أَمِن، ثم أمر بمسيرهم إلى موضع عَيَّنَهُ فمضوا بهم إليه وأكلوا شيئاً وعادوا بهم فاستحضرهم وأوقف البرنس بين يديه وقال: ها أنا أنتصر لمحمد منك، ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل فسَلّ النيمجاه وضربه بها، فَحَلَّ كتفه وتمّم قتله من حضر؛ فلما رأى جفري ذلك قال: لم تجرِ عادةُ الملوك بقتل الملوك، فقال السلطان: هذا تجرأ على الأنبياء وجاوز الحدّ. ثم نزل على طبرية وسلّم قلعتها ورحل طالباً عكا ونزل عليها وقاتلها وأخذها بُكْرَةَ الخميس مستهل جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وخمس مائة، واستنقذ من كان بها من الأسرى وأخذ ما كان فيها من الأموال. وتفرقت العساكر إلى بلاد الساحل فأخذوا نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة. وسار يطلب تبنين فنزل عليها يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى فنصب عليها المناجيق وضايقها بالزَّحف، وكان فيها أبطال معدودون فقاتلوا قتالاً شديداً

ونصر الله السلطانَ عليهم، وتسلّمها يوم الأحد ثامن عشرة عنوة وأسر من فيها بعد القتل ورحل عنها إلى صيدا وتسلمها في غد يوم نزوله وهو يوم الأربعاء عشرون يوماً من جمادى الأولى. وسار إلى بيروت ونازلها يوم الخميس تاسع عشرين جمادى الأولى وزحف عليها وتسلّمها وتسلّم أصحابُه جبيل؛ ولمّا فرغ من هذا الجانب رأى قصد عسقلان ولم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها، فأتى عسقلان ونزل عليها يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة وسلم في طريقه إليها مواضع كثيرة كالرملة والداروم، وقاتل عسقلان قتالاً عظيماً، ونصب عليها المناجيق وتسلّمها يوم السبت سلخ جمادى الآخرة، وأقام عليها إلى أن تسلّم أصحابُه غزّةَ وبيت جبريل والنطرون بغير قتال. ثم إنّه طلب القدس الشريف ونزل عليه يوم الأحد خامس عشر شهر رجب سنة ثلاث وثمانين وخمس مائة ونزل بالجانب الغربي، وقيل إنّ الذي كان في القدس من المقاتلة يزيدون على ستين ألفاً خارجاً عن النساء والصبيان، ثم انتقل إلى الجانب الشمالي ونصب المناجيق وضايق البلد، وأخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم، فأخذ أهل القدس في الأمان وتسلّمه يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب سنة ثلاث وثمانين وخمس مائة ليلة المعراج وكان فتحاً عظيماً شهده جماعةٌ من أهل العلم، ومن أرباب الخرق والزهد وعالمٌ كثير؛ وصلّى الجمعة فيه يوم فتحه وكان الصلح وقع على أنّ أهلَ القدس يَزِنون عن كلِّ رجلٍ عشرين ديناراً وعن كلِّ امرأة خمسة دنانير صورية، وعن كلِّ صغير ذكر أو أنثى ديناراً واحداً، فمن أحضر قطيعته نجى بنفسه وإلاّ أُخذ أسيراً؛ وأُفرِجَ عن من كان بالقدس من الأسارى وكانوا خلقاً عظيماً. وأقام يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والفقراء والفقهاء والعلماء والزهّاد والوافدين عليه، وكان ذلك يقارب مائتي ألف وعشرين ألف دينار، ولم يرحل عن القدس ومعه من المال شيء ورحل عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان وأتى عكا ونظر في أمورها وتوجّه إلى صور ونزل قريباً منها وسَيَّر لإحضار آلات الحصار فلما تكاملت عنده نزل عليها في ثاني عشر شهر رمضان وقاتلها وضايقها عظيماً، واستدعى أسطول مصر وقاتلها في البر والبحر وخرج أُسطول صور على أسطول مصر في الليل وأخذوا المقدّم والرايس وخمس قطع للمسلمين وقتلوا خلقاً كثيراً في سابع عشرين الشهر، فضاق صدر السلطان وكانت الأمطار قد توالت فرحل عن صور طلباً لراحة العساكر وحمل من آلات الحصار ما أمكنت وحرقوا ما عجزوا عن حمله للوحل، وكان رحيله يوم الأحد ثاني ذي القعدة، وتفرقتِ العساكرُ وأقام هو وجماعةٌ من خواصه بعكا إلى أن دخلت سنة أربع وثمانين وخمس مائة. وكان لمّا نزل على صور قد سيّر من حاصر هونين فسلمت في الثالث والعشرين من شوال سنة ثلاث وثمانين وخمس مائة. ثم إنَّ السلطان نزل على كوكب في أوائل المحرم سنة أربع وثمانين ولم يكن معه من العسكر إلاّ

القليل وكان حصناً حصيناً وفيه الأقوات والرجال وعلم أنه لا يؤخذ إلاّ بعد شدائد فعاد إلى دمشق ودخلها في سادس عشر شهر جمادى الأولى، فأقام في دمشق خمسة أيام فبلغه أن الفرنج قصدوا جُبَيْلاً فخرج مسرعاً، فلما علموا بحركته رجعوا، فصار نحو حصن الأكراد، وكان قد وصل إليه عماد الدين صاحب سنجار ومظفر الدين ابن زين الدين وعسكر الموصل، فوصل إلى أنطرسوس سادس جمادى الأولى، فلما رآها نزل عليها، وما لحق العسكر يضرب الخيم حتى تعلق المسلمون في الأسوار وأخذوها بالسيف وغنموا شيئاً كثيراً وأحرقوها، وأقام عليها إلى رابع عشر جمادى الأولى، ثم سار يريد جبلة فوصل إليها، وما تم نزوله إلا أن ملكها وكان فيه مسلمون مقيمون وقاضٍ يحكم فيهم، وسلمت القلعة بالأمان بعد قتال شديد في تاسع عشر جمادى الأولى وأقام عليها إلى الثالث والعشرين من الشهر، وسار إلى اللاذقية ونزل عليها الرابع والعشرين من جمادى الأولى، واشتدَّ القتال إلى آخر النهار فأخذ البلد دون القلعتين، وغنم الناس شيئاً كثيراً وجدّوا في النّقوب إلى أن كان النقب طوله ستين ذراعاً وعرضه أربعة أذرع، فطلبَ الفرنجُ الأمانَ والصلح على سلامة نفوسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم ما خلا الغلال والذخائر والسلاح وآلات الحرب، فأجابهم وأقام عليها إلى سابع عشرين جمادى الأولى؛ ورحل إلى صهيون ونزل عليها تاسع عشرين الشهر فأخذها يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة وقاتل القلعة قتالاً عظيماً، فطلب الفرنجُ الأمانَ بشرط أن يُؤخذَ من الرجل عشرة دنانير والمرأة خمسة دنانير ومن كلِّ صغير ديناران، الذكر والأنثى سواء، ثم إنّه أقام بهذه الجهة إلى أن أخذ عدَّة قلاع منها بلاطنس وغيرها. ثم رحل وأتى بكّاس فنزل عليها سادس جمادى الآخرة، وقاتلوا قتالاً عظيماً، ثم يسَّر الله فتحها وقُتِلَ أكثرُ من بها وأُسرَ الباقون وغنم الناس كثيراً، ثم إنّ قلعةَ الشُّغْر طلب أهلُها الأمان في ثالث عشر الشهر المذكور وسألوا المهلة ثلاثة أيام، وطلع العلم السلطاني إليها يوم الجمعة سادس عشر الشهر. ثم إنّ السلطانَ سار إلى برزية فنزل عليها يوم السبت رابع عشرين الشهر ثم أخذها عنوة يوم الثلاثاء السابع والعشرين من الشهر؛ ثم صار منها إلى دَرْبَساك ونزل عليها يوم الجمعة ثامن من رجب وتسلّمها يوم الجمعة ثاني عشرين الشهر المذكور وأعطاها للأمير علم الدين سليمان بن جندر؛ وسار عنها ونزل على بغراس وتسلمها بعد القتال في ثاني شعبان. وراسله أهلُ أنطاكية في طلب الصلح فصالحهم لشدَّةِ ضجر العسكر، وكان شرط الصُّلح على أن يُطْلق كلَّ أسيرٍ عندهم والصلح إلى سبعة أشهر فإن جاءهم من ينصرهم وإلاّ سلّموا البلد. ورحل السلطان فسأله ولده الظاهر غازي أن يجتاز به فأجابه ودخل حلب في حادي عشر شعبان وأقام بالقلعة ثلاثة أيام: وسار من حلب فاعترضه تقي الدين ابن أخيه وأصعده إلى قلعة حماه وعمل له طعاماً وسماعاً صوفياً، وبات فيها ليلة

واحدة وأعطاه جبلة واللاذقية، وسار على بعلبك ودخل دمشق قبل شهر رمضان بأيّام يسيرة. ثم خرج منها يريد منها صفد فنزل عليها ولم يزل القتالُ يعمل إلى أن تسلّمها بالأمان في سابع عشر شوال. وفي رابع شهر رمضان المذكور سلمت الكرك وسلّمها نوّابُ صاحبها وخلصوه بذلك من الأسر في نوبة حطين، كذا ذكره بعضهم. وقد تقدّم أن السلطان قتل البرنس صاحب الكرك بيده. ثم إنّه سار إلى كوكب وقاتلها قتالاً شديداً والأمطار كثيرة والرياح عواصف، فطلب أهلُها الأمان وتسلّمها نصف القعدة؛ ونزل إلى الغور وأقام بالمخيم بقيَّة الشهر وأعطى الناس دستوراً وسار مع أخيه العادل لزيارة القدس وصلّى به العيد. وتوجَّه في حادي عشر الحجة إلى عسقلان وأخذها من العادل وعوّضه عنها بالكرك؛ ثم مَرَّ على الساحل يتفقد أحواله ودخل عكا فأقام بها معظم المحرم سنة خمس وثمانين وخمس مائة ورتّب بها الأمير بهاء الدين قراقوش والياً وأمره بعمارة سورها، وعاد إلى دمشق فدخلها في مستهل صفر سنة خمس وثمانين وخمس مائة وأقام بها إلى شهر ربيع الأول، ثم خرج إلى شقيف أرنون ونزل إليه صاحب الشقيف بنفسه ولم يشعر به إلاّ وهو قائم على باب خيمته، فأذن له وأكرمه واحترمه وأكل معه الطعام وذكر له أنّه يعطيه المكان ويسلمه ويعطيه مكاناً يسكنه بدمشق لأنّه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الفرنج وأن يعطيه إقطاعاً يقوم به وبأهله فأجابه إلى ذلك. وفي أثناء شهر ربيع الأول جاء الخبر بتسليم الشوبك، وكان قد أقام عليه جمعاً يحاصرونه مُدَّةَ سنةٍ إلى أن نفد زاد من كان فيه وسلّموه بالأمان. ثم ظهر للسلطان أن جميع ما قاله صاحبُ الشّقيف كان خديعةً فرسم عليه؛ ثم بلغه أن الفرنج قصدوا عكا ونزلوا عليها يوم الإثنين ثالث عشر شهر رجب سنة خمس وثمانين؛ وفي ذلك اليوم سيّر صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة، وأتى عكا ودخلها بغتة ليقوي قلوب من بها، واستدعى العساكر فجاءته من كلِّ ناحية، وكان العدو مقدار ألفي فارس وثلاثين ألف راجل، ثم تكاثر الفرنجُ واستفحل أمرُهم وأحاطوا بعكّا ومنعوا الداخل والخارج، فضاق لذلك صدرُ السلطان واجتهد في حفظ الطريق ففتحه، وجرى بين الفريقين مناوشات في عدّة أيام، وتأخّر الناسُ إلى تلِّ العياضيّة، وبها توفي الأمير حسام الدين طمان وكان من الشجعان؛ وقيل للسلطان إنّ الوخم قد عظم بمرج عكا وإنّ الموتَ قد فشا بالطائفتين فأنشد السلطان: [من مجزوء الخفيف]

اقتلاني ومالكاً واقتُلا مالكاً معي

ثم إن الفرنج جاءتهم الأمداد من داخل البحر واستظهروا على المسلمين بعكّا، وكان فيهم الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري، وضايقوهم أشدّ مضايقة إلى أن

غلبوا عن حفظ البلد فلما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمس مائة خرج رجل عوّام ومعه كتب من المسلمين يذكرون أنّهم قد أيقنوا بالهلاك ومتى أخذ البلد عنوة ضُرِبَتْ رقابهم، وأنّهم صالحوا الفرنج على أنْ يُسلِّموا البلد وجميعَ ما فيه من الآلات والعدد والأسلحة والمراكب ومائتي ألف دينار وخمس مائة أسير مجاهيل ومائة أسير مُعَيَّنين من جهتهم وصليب الصَّلبوت، على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم وذراريهم ونسائهم سالمين، ويضمنوا للمركيس لأنّه كان الواسطة أربعة آلاف دينار. فلمّا وقف السلطان على ذلك عَظُمَ ذلك عليه وأَنكره وشاور أهل الرأي وتقسّم فكره، فهو في ذلك وإذا أعلام الفرنج قد ارتفعت وصلبانُه وذلك ظهيرة يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، وصاح الفرنج صيحةً واحدةً وعظمت المصيبة على المسلمين ووقع البكاء والعويل؛ ثم إنّ الفرنج، خرجوا من عكّا وقصدوا عسقلان والسلطان قبالتهم في عسكره ووصلوا إلى أرسوف، فكان بينهم قتال عظيم، ونال المسلمين منهم وهن عظيم. فأتى السلطان الرملة. وشاور السلطانُ أهلَ مشورته في أمر عسقلان وهل يخرّبها، فاتفقوا على أنْ يكونَ الملكُ العادل قبالةَ العدو يتوجّه هو بنفسه ويخربها، وأنّ حِفْظَ القُدْس أولى. فسار إلى عسقلان ثامن عشر شعبان. قال القاضي ابن شدّاد: وقد تحدّث معي في خراب عسقلان بعد أن تحدّث مع ولده الأفضل وقال: لئن أفقد ولدي جميعهم أحبُّ إليّ من أن أهدم منها حجراً ولكن إذا قضى الله تعالى ذلك وكان فيه مصلحة المسلمين فما الحيلةُ في ذلك. فوقع الخراب في عسقلان في تاسع عشر شهر شعبان، وقسم الخراب على الناس وحزن الناس على خراب عسقلان حزناً عظيماً، وعظم عويلُ أهلِه لتشتّتهم، وشرعوا في بيع ما لا يقدرون على حمله، فباعوا ما يساوي عشرة آلاف بألف، وابتيع اثنا عشر طير دجاجٍ بدرهم؛ وخرج النّاسُ بأهلهم إلى المخيم. ووصل من جهة العادل من أخبر أنّ الفرنج تحدّثوا معه في الصّلح وطلبوا جميع البلاد الساحليّة، فرأى السلطانُ ذلك مصلحةً، لما عَلِمَ من نَفَسَ النَّاس وضجرهم من القتال وكثرة ما عليهم من الدّيون؛ وأذن للعادل في ذلك وفوض الأمر إلى رأيه، وأصبح يوم الجمعة عشرين رمضان وهو مصِرٌّ على الخراب وأباح النّاسَ ما في الهري وأحرق البلد. وأتى الرملة وخرّبها وخرّب قلعتها. وتأخّر بالناس إلى جهة بلد الخليل، عليه السلام، وخرب قلعة النطرون. وطلب الانكتار من العادل، بعد اجتماعهما على مودّة، الاجتماعَ بالسلطان، فقال السلطانُ: إذا وقع الصّلحُ اجتمعنا. ثمّ إنّ الصلحَ تمَّ وكان يوم الأربعاء ثاني عشرين شعبان سنة ثمان وثمانين وخمس مائة؛ ونادى المنادي أنّ البلاد الإسلامية والنصرانية واحدة في الأمن والمسالمة من شاء من كلٍّ طائفة يتردَّد إلى بلاد الطائفة الأخرى من غير خوف ولا محذور؛ وكان يوماً مشهوداً حصل فيه

السرور العظيم للفريقين، وقد علم الله أنّ ذلك بغير رضى السلطان وكانت المصلحة في ذلك لأنّه توفي عُقَيْب ذلك. ثم إنّه أعطى النجدات دستوراً إلى بلادهم.

وعزم السلطان على الحج وأقام بالقدس يتأهب للمسير إلى مصر؛ وأقام لعمارة البيمارستان والمدرسة، ثم تفقّد البلاد والقِلاع البحرية ودخل دمشق بُكْرَةَ الأربعاء سادس عشر شوال، وفيها أولاده الأفضل والظاهر والظافر المشمّر، وأولاده الصغار. وجلس يوم الخميس سابع عشرين شوال بكرة النهار وأنشده الشعراء وَبَلَّ الناسُ شوقَهم منه ولم يتخلف أحدٌ من الخاص ولا العام عنه، وكشف مظالم الرّعايا وأنعم على الناس. ولمّا كان يوم الإثنين مستهلِّ ذي القعدة عمل الأفضلُ للظاهر دعوةً وحضرها السلطان واحتفل الأفضل بها وكان يوماً مشهوداً.

وعاد العادل بعدما تصفّح أحوال الكرك بقصد البلاد الفُراتية، وخرج السلطان إلى لقائه ودخلا حادي عشر الحجة إلى دمشق. وانشرح السلطان بدمشق وتفرّج بها وتَصَيَّد وروَّح بدنه وقلبه من الجهاد والسَّهر والتَّعب ونسي عزمه إلى مصر. ثمّ إنّه ركب يتلقى الحاج خامس عشر صفر سنة تسع وثمانين وكان ذلك آخر ركوبه. فلما كان ليلة السبت وَجَدَ كسلاً وما انتصف اللَّيلُ حتى غشيته حُمّى صفراوية، وقصد في الرابع واشتدَّ مرضُه وقلّت رطوباتُ بدنه، وكان يغلب اليُبسُ على مزاجه؛ واشتدّ المرض في السابع والثامن وحدث له غشي في التاسع وامتنع من المشروب، وحُقِنَ في العاشر دُفعتين. ثم إنّه اشتدّ به المرضُ، وشرع الأفضل في تحليف الناس له. وتوفي صلاة الصبح يوم الأربعاء سابع وعشرين صفر سنة تسع وثمانين وخمس مائة، كما تقدّم.

قال ابن الأثير عز الدين: ومن عجيب ما يحكى من التَّطَيُّر[1] أن السلطان لمّا برز من القاهرة أقام لتجتمع العساكر وعنده الأعيان من الدولة والعلماء والأدباء، وأخذ كلُّ واحدٍ يقول شيئاً في الوداع وفي الفراق، وفي الحاضرين معلِّم أولاده فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد: [من الوافر]

تمتَّع من شَميم عَرار نجدٍ ... فما بعدَ العشيَّة من عَرارِ

فانقبض السلطانُ والنّاسُ وتطيّروا من ذلك. وكان الأمرُ كذلك لم يعد إلى مِصْر بَعْدُ واشتغل بالبلاد الشرقية وفتوح القدس والساحل، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

---

(١) الطيرة: هو ما يتشاءم به من الفأل الرديء وتطير به ومنه اهـ «القاموس».

وكتب القاضي الفاضل إلى ولده الظاهر غازي يعزيه بطاقةً مضمونُها: **﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾** [الأحزاب: ٢١] **﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾** [الحج: ١]. كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر، أحسنَ اللَّهُ عزاءه وجبر مصابه، وجعل فيه الخلف، في الساعة المذكورة وقد زلزل المسلمون زلزالاً شديداً، وقد حفرت الدموع المحاجر، وقد بلغت القلوب الحناجر؛ وقد ودّعت أباك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعده، وقلبت وجهه عنك وعني، وأسلمته إلى الله تعالى مغلوب الحيلة، ضعيف القوة، راضياً عن الله عز وجل، فلا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم. وبالباب من الجنود المجندة والأسلحة المُعدَّة ما لم يدفع البلاء ولا يملك ردَّ القضاء؛ «وتدمع العين ويخشع القلب ولا نقول إلاّ ما يرضي الربّ وإنّا عليك لمحزونون يا يوسف». وأمّا الوصايا فلا تحتاج إليها، والآراء فقد شغلني المصاب عنها، وأما لائحُ الأَمْرِ فإنّه إنْ وقعَ اتّفاقٌ فما عدمتم إلاّ شخصَه الكريم؛ وإن كان غيره فالمصائبُ المستَقْبَلَةُ أهونُها موتُه، وهو الهول العظيم؛ والسلام.

ونُقِشَ على صندوق قبره من كلام القاضي الفاضل: «اللهم فارْضَ عن تلك الروح، وافتح له أبواب الجنة وهي آخر ما كان يرجوه من الفتوح». ولمّا كان الفاضل عنده في هذه المرضة قاله له: يا خوند أو يا مولانا: «وأرى أن تدفن سيفك معك فإنّه عكّازُك إلى الجنّة».

ذكر فتوحاته: الديار المصرية، فإنه فتحها وطهّرها من الرفض وتلك المقالات الرديّة؛ واليمن ودمشق وحمص وحماه والمعرّة وكَفَرْطاب وبارين ومنبج وعَزاز وحلب والموصل وسنجار والرقّة وجَعْبَر والرحبة والخابور ونصيبين والرها وميافارقين وسَروج والكرك والشوبك والقدس وغزة وعسقلان والرملة وطبرية وكوكب وصفد والطور وعكا وصيدا وبيروت ونابلس والداروم وحيفا وقيسارية وصَفّورِية والناصرة وتبنين وهونين وجبيل وحصن الأكراد وأنطرسوس واللاذقية وصهيون وبلاطُنُس وشُغْر وبَكاس وبرْزَيه وبغراس ودرب ساك وأنطاكية وحارِم وخِلاط.

وقال وجيه الدين بن المظفر منصور بن سليم في «تاريخ إسكندرية»: وبعث صلاحُ الدين ابنَ أخيه تقيّ الدين إلى المغرب ففتح طرابلس وقابِس وأكثر بلاد أفريقية؛ وبعث شمسَ الدولة إلى اليمن ففتح زبيد وعدن وتعزّ والجَنَد، انتهى.

وأما أوقافُه، وإن كانت غيرَ مشهورةٍ فمنها: المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي، رضي الله عنه؛ والمدرسة التي بجوار مشهد الحسين بن علي، رضي الله عنهما، بالقاهرة؛ ودار سعيد السعدا خادم المصريين وقفها خانقاه؛ ودار عباس والعادل بن سلار، مدرسة للحنفية وهي السيوفية؛ ومدرسة زين التجار بمصر؛ وبنى بالقاهرة داخل القصر

بيمارستاناً؛ وله بالقدس مدرسة؛ وله بمصر مدرسة للمالكية؛ ووقف بقرية حطين خانقاه؛ ووقف على الغزالية بالجامع الأموي بدمشق؛ ومدرسة بجانب البيمارستان النوري بدمشق تُعرف بالصلاحية ولا وقف لها؛ وله بدمشق مدرسة للمالكية؛ وهو الذي عَمَّرَ قلعة الجبل بالديار المصرية؛ وهو الذي أدار السور على القاهرة ووصله بمصر بتولّي بهاء الدين قراقوش. وقيل إنه أوّل ما ولي الوزارة بمصر للعاضد جلس في الدار التي هي الآن خانقاه بيبرس المظفر.

وكتب القاضي الفاضل، رحمه الله، مرسوماً بإسقاط مكوس[1] مصر والقاهرة عن السلطان صلاح الدين، قدّس اللّهُ روحَه، وجملة ذلك في كلِّ سنة مائة ألف دينار؛ تفصيل ذلك: مَكْسُ البهار وعمالته ثلاثة وثلاثون ألفاً وثلاث مائة وأربعة وستون ديناراً؛ مَكْسُ البضائع والقوافل وعمالتها تسعة آلاف وثلاث مائة وخمسون ديناراً؛ منفلت الصناعة عن عكس البَزِّ الوارد إليها والنّحاس والقصدير والمرجان والمفاضلات خمسة آلاف ومائة وثلاثة وتسعون ديناراً؛ الصادر عن الصناعة بمصر ستة آلاف وست مائة وستة وستون ديناراً؛ سمسرة التمر ثلاثة مائة دينار؛ الفندق بالمنية عن عكس البضائع ثمان مائة وستة وخمسون ديناراً؛ رسوم دار القَند ثلاثة آلاف ومائة وثمانية دنانير؛ رسوم الملح والخشب الطويل ست مائة وستة وسبعون ديناراً؛ رسوم القلب المنسوبة إلى بلبيس، والبوري المنسوب إلى قاقوس مائة دينار؛ رسوم التفتيش بالصّناعة عن البهار وغيره مائتان وسبعة عشر ديناراً؛ ختمة ارمنت عن الوارد إليها سبعة وستون ديناراً؛ فندق القطن ألفا دينار؛ سوق الغنم بالقاهرة وبمصر والسمسرة وعبور الأغنام بالجيزة ثلاثة آلاف وثلاث مائة وأحد عشر ديناراً؛ عبور الأغنام والكتّان والأبقار بباب القنطرة ألف ومائتا دينار؛ واجب ما يرد من الكتان الحطب إلى الصناعة مائتا دينار؛ رسوم واجب الغلات كالحبوب الواردة إلى الصناعة والمقس والمنية والجسر والتبّانين ومقالب جزيرة الذهب وطموه وبرّ الدوح ستة آلاف دينار؛ مكس ما يرد إلى الصناعة من الأغنام ستة وثلاثون ديناراً؛ الأغنام البيتوتية اثنا عشر ديناراً؛ العرصة والسرسناوي بالجيزة ومكس الأغنام مائة وتسعون ديناراً؛ منفلت الفيوم عمّا يرد من الكتان من القبلة من البضائع الواردة من الفيوم وغيره أربعة آلاف دينار ومائة وستون ديناراً؛ مكس الورق المجلوب إلى الصناعة ورسم التفتيش مائتا دينار؛ الجفنة بساحل الغلة والأقوات والرسائل سبع مائة وثمانية وستون ديناراً؛ فلت العريف بالصناعة الصادرة مائتا دينار؛ دار

---

(١) المكس: النقص والظلم ودراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية، أو دراهم كان يأخذه المصدق بعد فراغه من الصدقة، اهـ «القاموس» (مادة/ مكس).

التفاح والرطب بمصر والعرصة بالقاهرة ألف وسبع مائة دينار؛ ابن المليجي مائتا دينار؛ دار الجبن ألف دينار؛ مشارفة الجزارين مائتان وأربعون ديناراً؛ واجب الحلي الوارد من الوجه البحري والقطن ألف وعشرون ديناراً؛ رسم سمسرة الصفا ألف ومائتا دينار؛ منفلت الصعيد مائة وأحد وستون ديناراً؛ خاتم الشَّرب والدبيقي ألف وخمس مائة دينار؛ مكس الصوف مائتا دينار؛ نصف الموردة بساحل المقس أربعة عشر ديناراً؛ دكة السمسار ثلاث مائة وخمسون ديناراً؛ منفلت التعريف بالصناعة وجملة البهار والبضائع مائتان وستة عشر ديناراً؛ الحلفاء الواردة من القبلة مائة وخمسة وثلاثون ديناراً؛ الوتد والشرقية والطعم بدار التّفاح ومنفلت القبلة بالجسر والتبانين خمسة وثلاثون ديناراً؛ رسوم الصّفا والحمراء ورسوم دار الكتّان ستون ديناراً؛ حماية الغلات بالمقس ودار الجبن مائة وأربعون ديناراً؛ الحَلْفاء الواردة على الجسر ومعدية المقياس مائة دينار؛ خمس البرنية بالجيزة عشرون ديناراً؛ تل التعريف بالصناعة ثمانية وعشرون ديناراً؛ منفلت الغلات بمعدّية جزيرة الذهب عشرة دنانير؛ رسوم الحمام بساحل الغلة خمس مائة وأربعة وثلاثون ديناراً؛ واجب الحنّاء الوارد في البر ثمان مائة دينار؛ واجب الحلفاء والقضاب ثلاثة وستون ديناراً؛ مكس ما يرد من البضائع إلى المنية مائة وأربعة وثمانون ديناراً؛ مسلخة شطنوف البرانية مائتا دينار؛ سوق السكريين خمسون ديناراً؛ رسوم سمة الجمل بالشارع وسوق وردان تسعة عشر ديناراً؛ واجب الفحم الوارد إلى القاهرة عشرة دنانير؛ معدّية الجسر بالجيزة مائة وعشرين ديناراً؛ سمة البقري أربعون ديناراً؛ السمة بدار الدباغ تسعة عشر ديناراً؛ سمسرة الجبس الجيوشي ثلاث مائة واثنا عشر ديناراً؛ وكان الدهن ومعصرة الشيرج والخل الحامض بالقاهرة خمس مائة دينار؛ الخل الحامض وما معه أربعمائة وخمس دنانير؛ بيوت الغزل والمصطبة ثلاث مائة وخمسون ديناراً؛ وذبائح الدلالة ثلاث مائة دينار؛ سَمسَرَةُ الكتان ثلاث مائة دينار؛ رسوم حماية الصناعيين أربع مائة دينار؛ مربعة العسل مائتان واثنان وثلاثون ديناراً؛ معادي جزيرة الذهب وغيرها ثلاث مائة دينار؛ خاتم الشمع بالقاهرة ثلاث مائة وستون ديناراً؛ زريبة الذبيحة سبع مائة دينار؛ معديتا المقياس وانبابة مائتا دينار؛ حمولة السلجم ثلاث مائة وثلاثون ديناراً؛ مكس دكة الدباغ ثمان مائة دينار؛ سوق الرقيق خمس مائة دينار؛ معمل الطبري مائتان وأربعون ديناراً؛ سوق منبوبة ثمانمائة وأربعة وستّون ديناراً؛ ذبائح الضأن بالجيزة ورسوم ساحل الصنط عشرة دنانير؛ نخ السمك خمسة دنانير؛ تنور الشوي مائتا دينار؛ نصف الرطل من مطابخ السكر مائة وخمسة وثلاثون ديناراً؛ خاتم الحلي مائة وعشرون ديناراً؛ سوق الدواب بالقاهرة ومصر أربع مائة دينار؛ سوق الجمال مائتان وخمسون ديناراً؛ قبان الجنّاء ثلاثون ديناراً؛ واجب طاقات الأدم ستة وثلاثون ديناراً؛ منفلت الخام بالشاشيين ثلاثة

وثلاثون ديناراً؛ أنولة القصار والجير أربعون ديناراً؛ أعوان المراكب المنشأة والخضر والحلفا ستة وثلاثون ديناراً؛ بيوت الفروج ثلاثون ديناراً؛ الشعر والطارات أربعة دنانير؛ رسوم الصبغ والحرير ثلاث مائة وأربعة وثلاثون ديناراً؛ وزن الطفل مائة وأربعون دينار؛ معمل المزر أربعة وثمانون ديناراً؛ الفاخوريات بالقاهرة ومصر مائتان وستة وثلاثون ديناراً.

وقال أبو شامة في «الروضتين»، نقلاً عن ابن أبي طي: إنّ الذي أسقطه صلاح الدين، وإنّ الذي سامح به لعدة سنين متقدمة آخرها سنة أربع وستين خمس مائة مبلغه نيف عن ألف ألف دينار وألفي ألف إردب، سامح بذلك وأبطله من الدواوين وأسقطه من المعاملين.

ومن كرمه، قدّس الله روحَه، أنّه كان يهبُ البلادَ فضلاً عن الأموال؛ وجاد بآمد على ابن قرا رسلان؛ وكان يعطي في وقت الضائقة كما يعطي في وقت السَّعَة. وحضره وفودُ بيت المقدس ولم يكن في خزائنه ما يعطيهم فباع قريةً من قُرى بيت المال وقضى الثمن عليهم. وكان نوّابُ خزائنه يُخْفون عنه كثيراً من المال خوفاً أن يفرِّقَهُ. وقال مرّةً «يمكن أن يكونَ في الناس من ينظر إلى المال كمن ينظر إلى التراب»، وكأنّه أراد بذلك نفسه؛ ولم يقُل يوماً أعطينا فلاناً ولا زدنا فلاناً. وحصر ما وهبه بمزج عكا لا غير من الخيل فكان عشرة آلاف فرس ومن شجاعته أنّه رابط العدوَّ المدَّةَ المديدة بجمع يتضاعف عليه عدد أعدائه وكان يشارف بنفسه تعبئة الصفوف ويخترق العساكر ميمنة وميسرة ومعه غلام واحد لا غير ومعه جنيب له، وقرىء عليه جزء وحديث بين الصفين؛ وقال: في نفسي أنّه متى يسّر اللّهُ لي فتح بقية الساحل قَسَمْتُ البلاد وأوصيت وودعت وركبت البحر إلى جزائره أتتبع الكفار فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت.

وقيل إنّه كان بحماه فكتب إلى أخيه العادل: [من الطويل]

ولـمّـا جـرى الـعـاصـي وطـيَّـع أدمُـعـي ... لِـبُـعْـدِك قـال الـنّـاسُ أيُّـهـمـا الـنَّـهـرُ

وكان الفاضل حاضراً فقال: [من الطويل]

ولـمـا بـدا وجـهُ ابـن أيـوب مُـشْـرقـاً ... مـع الـبـدرِ قـال الـنـاسُ أيُّـهـمـا الـبـدرُ

ومدحه، رحمه الله تعالى، شعراءُ عصره؛ ومن أحسن ما مُدح به قصيدة ابن سناء الملك لمّا فتح حلب، وهي من أحسَنِ شعره أيضاً: [من البسيط]

بـدَوْلـةِ الـتُّـرك عَـزَّت مِـلّـةُ الـعَـرَبِ ... وبـابـن أيّـوبَ ذلّـتْ شـيـعـةُ الـصُّـلُـبِ

وفِـي زمـان ابـن أيـوبٍ غـدت حـلـبٌ ... من أرض مصرَ وعـادَتْ مِصْرُ من حَلب

ولابـن أيـوبَ دانـتْ كـلُّ مـمـلـكـةٍ ... بالصَّفْح والصُّلْح أو بالحرب والحَرَبِ

مُظَفَّر النَّصر مبعوثٌ بهمّته … إلى العزائم مدلولٌ على الغَلَبِ

والدّهرُ بالقدر المحتوم يخدُمُه … والأرضُ بالخلق والأفلاكُ بالشُّهُب

ويجتلي الخلقُ من راياتِهِ أبداً … مُبْيَضَّةَ النَّصر من مُصْفرَّة العَذَب

إنّ العواصِمَ كانت أيُّ عاصمة … معصومةً بتعاليها عن الرُّتَبِ

ما دار قطُّ عليها ، دور دائرةٍ … كلا ولا واصلتها نوبةُ النُّوَبِ

لو رامها الدَّهرُ لم يظفر ببُغيته … ولو رماها بقوس الأُفق لم يُصِب

ولو أتى أسدُ الأبراجِ منتصراً … خارت قوائمُه عنها ولم يثب

جليسةُ النَّجمُ في أعلى منازله … وطالما غاب عنها وهي لم تَغِب

تلقى إذا عَطِشَتْ والبرقُ أرشيةٌ … كواكبَ الدّلو في بئرٍ من السُّحُب

كلُّ القلاع تروم السُّحبَ في صَعَدٍ … إلاّ العواصمَ تبغي السحب في صبب

حتّى أتى مَنْ مَنَالُ النَّجم مطلبُه … يا طَالب النَّجم قد أوْغَلْتَ في الطلب

من لو أبى الفلكُ الدّوار طَاعَتَه … لصيّر الرَّأسَ منه موضعَ الذَّنَب

أتى إليها يقودُ البحرَ ملتطماً … والبِيضُ كالموج والبَيْضاتُ كالحَبَبِ

تبدو الفوارسُ فيها في سوابغها … بين النَّقيضين من ماءٍ ومن لهب

مستلئمين ولولا أنّهم حفظوا … عوائدَ الحرب لاستغنَوْا عن اليَلَبِ

جِمَالُهمْ في مغازيهم إذا قَفَلوا … حَمّالةُ السَّبي لا حمالةُ الحطب

فطافَ منها برُكْنٍ لا يقبِّلُهُ … إلاّ أسِنَّةُ أطرافِ القنا السّلُب

وحلَّ من حولها الأقصى على فلك … ودار من بُرْجها الأعلى على قُطُب

وَمَانَعَتْهُ كمعشوقٍ تَمَتُّعُهُ … أشهى من الشَّهْد أو أحلى من الضَّرب

فمرَّ عنها بلا غيظٍ ولا حنقٍ … وسارَ عنها بلا حِقْدٍ ولا غضب

تطوي البلادَ وأهليها كتائِبُه … طياً كما طوتِ الكُتَّابُ للكُتُبِ

وافى الفراتَ فألقى فيه ذا لَجَبٍ … يظلُّ يهزأ من تيّاره اللَّجِبِ

رَمَتْ به الجردُ في التيّار أنفسَها … فَعَوْمُها فيه كالتقريب والخَبَبِ

لم ترضَ بالسُّفن أن تغدو حواملَها … فعزُّها ليس يرضي ذِلَّة الخشب

وكان علّمها قَطْع الفُرات به … تعلُّم العوم في بحر الدم السرب

وجاوزته وأبقى من فواقِعِه … دُراً ترصَّع فوق العُرف واللَّبب

إلى بلادٍ أجابت قبل أن دُعِيَتْ ... للخاطبين ولولا الخوفُ لم تُجِبِ
لو لم تجب يُوسُفاً من قَبْل دَعْوته ... لعاد عامرُها كالجَوْسَق الخَرِبِ
خافَتْ وخاف وفرّ المالكون لها ... فالمُدْنُ في رَهَبٍ والقوم في حرب
ثم استجابت فلا حصنٌ بِمُمْتَنِعٍ ... منها عليه ولا مُلْك بِمُحْتَجِبِ
وأصبحوا منه في هَمٍّ وصبَّحهم ... وهم سُكارى بكأس اللَّهو والطرب
تفرّغوا لنعيم العَيْش واشتغلوا ... عن الثغور بلثم الثَّغْر والشَّنَبِ
أرضُ الجزيرة لم تَظْفَر ممالكُها ... بمالكٍ فَطِنٍ أو سائس دَرِبِ
ممالكٌ لم يُدَبِّرْها مُدبِّرُها ... إلاَّ برأي خصي أو بِعَقْلِ صبي
حتى أتاها صلاحُ الدين فانصلحت ... من الفساد كما صَحَّتْ من الوَصَبِ
واستعمل الجدَّ فيها غيرَ مُكترثٍ ... بالجد حتى كأنَّ الجدَّ كاللعب
وقد حواها وأعطى بعضَها هبةً ... فهو الذي يهبُ الدّنيا ولم يَهَبِ
يعطي الذي أُخذت منه ممالكُه ... وقد يمنُّ على المسلوب بالسلب
ويمنح المُدْنَ في الجدوى لسائله ... كما ترفّع في الجدوى عن الذهب
ومُذْ رأتْ صدَّه عن رَبْعِها حلبٌ ... ووصله لبلادٍ حُلْوة الحَلَبِ
غارت عليه ومدّت كَفَّ مفتقر ... منها إليه وأبْدَت وجهَ مُكتئب
واستعطَفَتهُ فوافتها عواطفُه ... وأكتب الصُّلح إذ نادته عن كثب
وحلَّ منها بأُفقٍ غيرِ منخفضٍ ... للصاعدين وبُرْجٍ غيرِ منقلب
فتح الفتوح بلا مَيْنٍ وصاحبُه ... مَلكُ الملوك ومولاها بلا كذب
ومعجزٍ كم أتانا منه مُشْبِهُهُ ... فصار لا عجباً من فضله العجب
تَهَنَّ بالفتح يا أَوْلى الأنام به ... فالفتحُ إرثُك عن آبائك النُجُبِ
فافخر ففتحُك ذا فخرٌ لمفتخر ... ذُخرٌ لمدّخر كسبٌ لمكتسب
بك العواصِمُ ذابت بعدما خَبُثَتْ ... بمالكيها ولولا أنت لم تَطِبِ
فليت كل صباح ذرَّ شارقُه ... «فداءُ ليلٍ فتى الفتيان في حَلَبِ»
إني أحبُّ بلاداً أنت ساكنُها ... وساكنيها وليسوا من ذوي نسب
إلاّ لأنّك قد أصبحت مالكها ... دون الأنام وهل حُبٌّ بلا سَبَبِ
فجودُ كفِّك ذُخري في يدي ويدي ... وحُبُّ بيتك إرثٌ عن أبي وأبي

ألهى مديحُك شعري عن تَغَزُّله فجاء مقتضباً في إثر مقتضب
فلم أقل فيه لا إن الصبابة لي يومَ الرحيل ولا إنّ المليحة بي

ورثاه لمّا مات، رحمه الله، جماعةٌ منهم ابن السّاعاتي، كتبها للملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يقول له: [من الطويل]

لئن كان ليلُ الحزنِ عمَّت غياهبُه فقد ناب عن بَدْرِ التمام كواكبُهْ
وإنْ كان ليثُ الغابِ أخلى عرينه وغاب، فهذا شبلُه وكتائبُهْ
له لِبَدٌ: ماذِيُّهُ ورماحُه وبيض ظُباه: غابُه ومخالبُهْ
وإنْ فارق الغُمْدَ المحلّى حسامُه فهذا حسامٌ لا تُفَلُّ مضاربه
وإنْ أقْفَرَ الفسطاط منه فإنّه منازلُه مأهولةٌ وملاعبُه
أقام عمادُ الدين رَفْعَ بنائِه فما ضلَّ مسعاهُ ولا ذلّ جانبه
يردُّ العيونَ الشُّوسَ عنه كليلةً من الحقّ نورٌ ليس يعدوه لازبه
كأنَّ شُعاع الشَّمْس يلقاك دونه ولم ترَ مَلكاً حاجبُ الشمس حاجبُه
ولا بدَّ من شكوى إلى الدهر محضة وإنْ خاب من يشكوه أو من يُعَاتِبُه
هوى جبلُ الدِّين الحنيفِ وزُعْزِعت بريحِ المنايا العاصفاتِ مناكبُه
وأُغمد سيف الله من كلّ مارقٍ وسِيمَتْ وكانت مُخْرماتٍ قواضبُه
وما ابتسم البرقُ السماويُّ بعدَه ولكنّه خلَّت عليه ذوائبُه
وما كان عقدُ المُزْن إلا منظَّما ولكنْ لنارِ اللّوعة انهلَّ ذائبُه
وما اهتزَّ عطفُ الدَّهر إلاّ كآبةً غداةَ ثوى عنه أخوه وصاحبُه
لمن تلبسُ الأطواقَ وُرْقٌ خواطبٌ وقد طُويتْ عن كلِّ أرضٍ سحائبه
حَدَتْني المنايا أنْ أقومَ أمامَه يخاطبني إحسانُه وأخاطبه
لو أنّ جهاداً مُفصِحاً عن شجونه شجاكَ من البيت المقدَّس نادبه
لقد أظلمت أبراجُه بعد شمسه نعم، وانحنت حُزناً عليه محاربه
عجبتُ لناعيه تخبُّ جيادُه وتنجو على طيِّ الموامي ركائبُه
وينطقُ في النادي فصيحاً لسانُه وقد رجعت عنه خلاءً حقائبه
وما زلت للإشفاقِ إذ أستعيدِه أغالِطُه عن قوله وأجاذبه
وأستفسرُ الألفاظَ وهي تسوؤني رجاءَ حديثٍ يُخْلفُ الظنَّ كاذبه

لعلَّ مقالاً آخراً مثلُ أوّلٍ ... تغذُّ به فرسانُه ونجائبه
أخادعُ دمعي راجياً وأكفُّه ... بهدبِ جفوني جارياً وأغالبه
تذكر نُعمى سافراتٌ وجوهُها ... إليّ وَجُودٌ باسماتٌ مواهبه
فلما بدا من تحت من في ضريحه ... وجمْتُ وقلبي بالوجيب يجاوبه
ظللت كأنّ السيفَ غنّى ذبابُه ... وقدر قصت أحشاؤه وترائبه
وما هو إلاّ البينُ زُمَّت رِكابُه ... وطارتْ به في الخافقين نواعبُه
وما الليلُ في الآفاق إلا حِدَادُه ... وما هذه الأيام إلاّ أشايبه
تمادت لديه راجفاتٍ رماحُه ... وناحت عليه صاهلاتٍ سلاهبُه
وشُقّت جيوبُ الفضلِ وجداً وأصبحت ... أراملَ منه عينُه وكواعبه
ونامت عيونُ الرَّعفُ بعد سُهادها ... فما راعها من وابلِ النبل خاضبه
كأنّ غديراً سرَّ كُلَّ مُفاضَةٍ ... تجعَّد وهناً بالنَّسيم جوانبه
فلّله يوماً أسمعَ الصُمَّ خطبُه ... وأفهم حتّى أفحم الخلقَ خاطبه
وما خِلْتُ أنَّ الشمسَ تكسفُها يدٌ ... ولا أنّ نجمَ الأُفقِ يخفيه طالبه
خبا بعد ما عمَّ الفضاءَ شهابُه ... ونور حتى ظلمة الظلم ثاقبُه
ولم يكُ فينا يوسفٌ غيرُ يوسفٍ ... لكفِّ زمانٍ موبقاتٍ مساغبه
وقد كان لا يُعصى وإن شقّ أمرُه ... مضاءً ولا تحصى ثناءً مناقبه
فكم أجلٍ ناءٍ قضاهُ حسامُه ... ورِقِّ كريمٍ جود كفّيه واهبه
وجيش حشاه السمهرية والظّبا ... فَخَطِّيُه تردي الأُسودَ ثعالبُه
لقد جلَّ قدرُ الموت بعد خموله ... فكلّ منيع باذخ فهو غاصبه
أبَعْدَ ابنِ أيّوبٍ يصاغُ مديحُهُ ... وحاشاك أو عيشٌ تساغ مشاربه
كأن لم يُعِدْهُ عن كُماةٍ عُداتُه ... وقد دميت أنيابه ونوائبه
ولا سارَ سَيْرَ العبد تحت ركابه ... إلى كلِّ ذي ملك تدبُّ عقاربه
عَجِبْتُ له لم تُغْنِه سطواتُه ... ولم تَثْنِه آراؤه وتجاربه
ويغتاله المقدارُ لا هو دافعٌ ... بوادِرَه عنه ولا ذاك هائبه
وكيف أطاعته عوائدُ جهله ... إلى أنْ تخطّى سيفُه وهو نائبه
لها لذَّ طَعْمُ الشَّكْلِ من كلِّ هالك ... فما شاء فلتُجْلب عليه مصائبُه

فيا مالكَ الأملاك صبراً وعَزْمَةً فبالصّبر يدنو من رجائك عازبه
تنبّه لها عظمى ولست بهاجِعٍ فإنَّ جوادَ الحزم ما أنت راكبه
ومن كان في المسعى أبوه دليلُه تدانت له أسبابه وسباسبه
فربَّ مُلِمٍّ فادحٍ جلَّ أمرُه فساءت مباديه وسَرَّت عواقبه
أيسلَبُ خيرُ الناس حيّاً وميّتاً وينجو سليماً من سيوفك سالبه
وكيف تَقَرُّ الهامُ في سكناتها وهذا سَنامُ المجد قد جُبَّ غاربه
ثوى بين أكتافِ الشام وأصبحت مشارقُه مهجورةً ومغاربه
لقد قرَّ زلزالُ الفرنجة بعده ونامت عيونٌ كنَّ قبلُ تراقبه
وقد كانتِ الأرضُ البسيطةُ داره وأملاكها عيدانه ومقانبه
كأنْ لم يُجِلْ جنحَ الدُّجى بعجاجه ولم يُجِلْ يوماً كاسفُ اللون شاحبه
ولم تشكُ عينُ الشمس من هبواته وقد خفقت راياتُه ومناكبه
ولا جرَّ في أرجائها ذيلَ جيشه ومن فَوْقِ تيجان الملوك مَسَاحِبُه
لدانَ له من كلِّ مصرٍ شريفُه وذلَّ به من كلِّ حيٍّ مصاعبه
وهام إلى أعلامه كلُّ معقِلٍ كما هام وجداً بالمحبِّ حبائبه
ولو لم يَشِبْ للهول صفحُ حسامِه لما غازل الأجفانَ والدّمُ خاضبه
هو البحرُ حدِّث عنه غيرَ مكذَّبٍ فما تنقضي آياتُه وعجائبه
ولم يكُ في أوصافه ما يُعيبه سوى أنه خَلْقٌ إذا جدّ عائبه
فدام لهذا الملك منك عزيزُه فَغَيْرُ أبيك الناصرِ المُلْكَ غائبه
فليس الورى إلاّ مطيعاً تُثيبه بحُسْنِ بلاءٍ أو عصياً تواثبه
وعهدُك هاماتُ الأعادي طروسُه وناقطة الخطّي والسيفُ كاتِبُه

٦٢ ـ **«البغدادي» يوسف بن أبي بكر بن أبي الحسن الأدمي البغدادي**[١]، من أهل السَّمعية. قال ابن النجار: ذكر لنا أنه سمع من أبي الوقت الصوفي، وأنّه كان يحفظ من كتاب «الإفصاح في شرح الأحاديث الصحاح» لابن هبيرة شيئاً، ويقرؤه على ابن هبيرة، وقرأ علينا شيئاً من ذلك من حفظه وهو في عشر المائة، بلسانٍ ذلق، وذهنٍ حاضر. مولده سنة أربع وخمس مائة، وتوفي في رجب سنة تسع وثلاثين وست مائة.

(١) لم أهتد إلى ترجمته.

٦٣ ـ **«ضياء الدين خطيب بيت الأبّار» يوسف بن أبي بكر القاضي ضياء الدين ابن خطيب بَيْتِ الأبّار**[(١)]. رئيسٌ كبيرٌ، وجوادٌ مفضالٌ، وصدرٌ رحيبُ الباعِ في المكارم، أخلاقُه ترشفُ سُلافا، وطباعُه تلين كالغصون انعطافا. لم أرَ في عصري ولا عاصرتُ في عمري من له سيادته ولا فيه مكارمه. أَعْجبُ ما رأيتُ فيه بعدَ المروّةِ الزائدة والجود المفرط، أنّه يعاملُ عدوَّه وصديقَه بمعاملةٍ واحدة، يملك نفسه ولا يتأثّر بحادثة تنزل به، وشكلُهُ تامّ. ولمّا توجّه إلى مصر لم يجدِ الشاميّون ملجأً غيرَه، ولا كهفاً يأوون إليه سواه، وكان في ديوان تَنْكِز يباشرُ وله سيادةٌ، وداره مألفُ الضّيفان ومأوى الأصحاب، متى جاء الإنسانُ إلى منزله وجد كلَّ ما يختاره، إنْ كان هو فيه أو لم يكنْ يجدُ جميعَ ما يدعوه إلى أنْ يروح. ولما تولّى القاضي جلالُ الدين، رحمه الله، قضاءَ القُضاة بالشام، ولآه نظر الصَّدَقات فضبطها وأجمل مباشرتَها، فلما طُلِبَ القاضي إلى مصر وتولّى قضاء القضاة بالقاهرة، طلبه من السلطان فرسم بإحضاره على البريد، فتوجّه إليها في سنة سبع وعشرين وسبع مائة، وولي نَظَرَ الصَّدقات والأوقاف بالقاهرة، وساد في مصر ورأس في القاهرة وأحبَّه المصريون لمكارمه وحلمه، وولاّه السلطان الملك (الناصر مطابخَ السُّكَّر، وولاه نظر الأهراء مع ما بيده من القاضي جلال الدين، وتولّى نظر البيمارستان المنصوري، فسلك فيه أحسنَ سلوكٍ ورافق فيه الأميرَ جمال الدين نائب الكرك، وبعده الأمير علم الدين الجاولي، ثم الأمير بدر الدين جَنْكَلي ابن البابا، ووقع بينهما وعُزِلَ منه في الأيام الصّالحية، ثم تولاه ثانياً ورافق فيه الأمير سيف الدين أَرِقْطاي. وتولّى أيّام السلطان الملك الناصر حسبةَ القاهرة ومصر، وكان قبلها محتسبَ القاهرة مع البيمارستان، فلما كان الغلاءُ في سنة ست وثلاثين وسبع مائة جمع له السلطان بين الحسبتين، ولما خرج القاضي جلال الدين من القاهرة تعصَّب عليه النشو وغيره وأخذوا منه الحسبتين ونظر الأوقاف والصدقات وأبقَوْا عليه البيمارستان، فلما كان في أيام الصالح ولاّه نظرَ الدولة مع نظر البيمارستان، فباشر ذلك مديدةً ثم استعفى فأعفاه، ثم ولاه الجوالي مع حسبة القاهرة والبيمارستان، ثم إنه وقع بينه وبين الأمير بدر الدين جنكلي فَعُزِلَ من الجميع في أواخر دولة الصالح ولزم بيته؛ فلمّا كان في أيام الكامل، وخُلِعَ الكامل، تولّى القاضي ضياء الدين نظر البيمارستان والحسبة على عادته ثم إنّ علاء الدين ابن الأطروش نازعه في وظائفه مرّات وتولاها ثم أُعيدت إليه، ثم إنّ الأمير سيف الدين صَرْغِتْمِش اعتمد عليه في الأوقاف بمصر والشام، وكان يدخل في كل قليل إلى السلطان ويخرج من عنده بتشريف، وزاد عظمةً ووجاهةً، وبالغ في إكرامه وتقديمه

---

(١) انظر ترجمته في «أعيان العصر» (٣/ ٣٤١)، و«درة الأسلاك» (٢/ ٣٤٣).

على الناس كلِّهم. ولمّا أُمْسِك صرغتمش، قُبض عليه وعُصِرَ وضُرِبَ وأُخِذَ منه شيء قليل، ثم رسم بتوجّهه إلى قوص، فتوجّه إليها وأقام بها سنة وأكثر، ثم رُسِمَ بعوده إلى القاهرة وأقام في بيته بطّالاً إلى أن توفي رحمه الله في ذي الحجة سنة إحدى وستين وسبع مائة، تغمّده الله بالرحمة والرضوان، وخرّج له الشيخ شهاب الدين المحدثُ أحمد بن أيْبك الدمياطي أربعين حديثاً عن أشياخه الّذين سمع منهم صغيراً، ونظم على أحاديثها، ووسَّع العبارة فيها فجاءت مجلدةً جيّدةً وجوَّدَها، وحدّث بها في داره بالقاهرة، وسمعتها من لفظه على القاضي ضياء الدين في جملة مَنْ سمع، وكتبتُ أنا عليها:

«ووقفت على هذا التخريج الذي لا يردّه ناظر، ولا يدفع أدلّته مناظر، ولا يستغني عنه مُذاكر ولا محاضر، ولا يُشْبه حسنُه إلاّ الرياض النواضر، على أنّه لمعةٌ من شهاب، وهَمْعةٌ من سحاب، وجرعةٌ من شراب، ودفعة من عباب، لأنَّ مُخَرِّجَه شهابُ زين ليلِ العلم الدّاج، وبحرُ ألفاظه درر وفوائده أمواج، فلو عاصره ابن عساكر لم يذاكِر، أو الخطيب لما كان يطيب، أو ابن الجوزي لانكَسَرَ قلبُه وذهبَ لبّه، أو ابن نقطة لغرق في بحر وَبْلِهِ بقطره، أو الحاكم لقضي له بالتفضيل ولم ينظر في جرح ولا تعديل، خرَّجه لمولى حمل البلدين ورئيسٍ يوضع تاج سيادته على مَفرق الفَرقَدَين: [من الوافر]

كـريـمٌ سـاد بـالإفـضـال حـتّـى ... غـدا فـي مـجـده بـادي الـسَّـنَـاءِ
لـه ذكـرٌ يـطـبّـقُ كـلَّ أرض ... فـيـمـلأ جـوَّهـا طـيـبُ الـثَّـنـاء
فـمـا تـخـفـى عُـلاه عـلـى بـصـيـرٍ ... وإنْ تـخـفـى فـذو حَـسَـدٍ يُـرائـي
وَهَـبْـنـي قـلـت هـذا الـصُّـبْـحُ لـيـلٌ ... أيـعـمـى الـعـالـمـون عـنِ الـضِّـيـاءِ

فلا أعلم تخريجاً أحسنَ منه، ولا جزءاً غيرَه كل الفوائد تؤخذُ عنه؛ جمع فيه بين الرواية والدّراية، وبلغ فيه إلى غاية تدل على أنّه آية؛ فالله يشكرُ سَعْيَه ويتولّى بعينه رعيَهُ، بمنّه وكرمه إن شاء الله تعالى».

ولما كنت في الدِّيار المصرية في سنة خمس وأربعين وسبع مائة في أيّام السلطان الملك الصالح إسماعيل، كتبتُ له توقيعاً بنظر الجوالي بالقاهرة ومصر والوجهين قبلياً وبحرياً، ونسخته:

«الحمد لله الذي جمّل أيّامَنا الزاهرة بضيائها، وكمّل دولَتنا القاهرة بمحاسن أوليائها، وجعل نِعَمَنا الغامرة تكاثر الغمام بالإبهاء، وضوّءَ ممالكنا العامرة بمن يجمل النظر فيما يتولاه من نواحيها وأرجائها، نحمده على نعمه التي لا تزال تجول وتجود، وتروم اختصاصنا بالمزيد من كرمها وترود، وتؤمّ حرمنا بأفضالها فتصول بنصول النصر على الأسود وتسود،

وتَرِدُ على حمانا الرَّحْب فتجود بوافر إحسانها على أهل التهائم والنجود، ونشهد أن لا إلٰه إلاّ الله وحده لا شريك له، شهادةً ترغم من الكفار معاطِسَهُم، وتجذ بحدِّها منابتَ بهتانِهم ومغارسهم، وتحسم بحسامها أبطال باطلهم وفوارسهم، وتهدم بإقامة منار الإسلام معابدَ ضلالهم وكنائسهم، ونشهدُ أنَّ محمداً عبده ورسوله الذي أعرض عن متاع الدنيا ورغب فيما أعدّ الله له في الآخرة من المقام المحمود والدرجة العليا، وشغل لسانه بذكر الله تعالى في اليقظة وقلبه في الرؤيا، وقام في نصرة الحق يسعى، فشكر الله له مقاماً وسعياً، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين سلكوا بهداه خير سبيل، وفازوا لما اتّبعوه بالفخر المعظم والمجد الأثيل، ونصروا الدين الحنيف بطعن الأسمر المثقف، وضرب الأبيض الصقيل، وعزَّ وجودُ مثلهم لما ضرب مثلهم في التوراة والإنجيل، صلاةٌ لا يبلغُ العددُ أمدَها، ولا يُنْفِذُ الزَّمنُ مدَدَها، ما تبسّم ثغرُ صباح عن لعس ظلام، وتنسّم روضُ أرض عن نَفَس شِيحٍ أو ريح خُزام، وسلّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين. وبعدُ، فإنَّ المناصبَ تعلو بمن يلي أمرها، وتشرف على غيرها بمن يعظم الناس لأجله قدرها، وتفوق بمن يُطلع في ليالي التمام والكمال بدرها، وتكبر بمن إذا تحدّث فيها أجرى بالأموال والأمواه بحرها، وتفخر بمن إذا تولّى نظرها جمع نفعها ومنع ضرّها، ونظرُ الجوالي من الوظائف التي في المناصب الدينية عدادها وإلى القرب السنيّة معاجُها ومعادُها، وإلى الشَّرع الشريف ميلها واستنادها، وبسيفنا الذي تجرده مهابتنا انتصارُها واعتضادها، لأنّه استخراجُ مالٍ قد تقرّر شرعاً، وأخْصَبَ في الحِلِّ مرعى ودرّ بالبركات ضَرعاً، واتّسع به الإسلامُ صدراً لمّا ضاق بالكفر ذَرْعاً، وقَرَّتْ به عيونُ الدّين، وكيف لا تقرّ إذا أخذتِ العيونُ من عدوِّها وهو لا يستطيع منعاً، لا يدخل الحولُ على ذميٍّ إلاّ جاء إليه من يطلب الجالية وأحاط به الذل الذي يقول معه **﴿ما أغنى عني مالِيَهْ﴾** [الحاقة: ٦٩/ ٢٨] وتجدّدت له حالةٌ حالكة وحالُ الإسلام حالِيَهْ، على أنَّ أهلَ الذِمَّة في الذِّلَّةِ مائقون، وتمامُ مصيبتهم أنَّهم يعطون **﴿الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾** [التوبة: ٢٩]. وكان المجلس العالي القضائي الضيائي أبو المحاسن يوسف ممن جمّل الدول، وأسعفته الأيام بمراده حتى كأنها له من جملة الخول، وفَخَر زمانُه بوجود مثله وشهد حتى حُسَّادُه بوفور فضله، وأجرى الله تعالى نهر ذريته فكان غير آسن، وبهر حسن أوصافه حتى صدق من قال إنّ يوسفَ أبو المحاسن، ورفع الله خبرَه فانتصبَ تمييزاً، ومضت له مدةٌ في الشام والسَّعدُ يقول هذا في مصر يكون عزيزاً، وخطب إلى الديار المصرية المحروسة فوردَها وحلَّ بها، فحلَّ الأمورَ تصرفاً وعقدها، وولي المناصب العلية وباشر الوظائف السنيّة، أَحسَنَ نظرَهُ في الأوقاف وأجرى أُمورها على أجمل الأوصاف، ونظر في أموال الأَيْتام فنمّى حاصِلَهُم وربّى، وأجملَ المعاملةَ لهم فما انتهى لهم سبب حتى أُتْبع سبباً،

وتولّى نظرَ البيمارستان المنصوري فغمره بحسن النظر وعمّره، وأثر فيه بناءً تلألأ بالضياءِ شمسُه وقمره، وزاد أوقافه ريعاً وملكاً، ونظم درَّ تدبيره الجميل سِلكاً، وباشرَ الحسبةَ الشريفة فكانت بمعارفه أليقَ وأشبه، وأصبح قدرُها بولايته أقبلَ وأنبَه، ورَوَّع أصحاب الغشّ بمهابته وما لكلّ محتسب عند الناس حسبة، إلى غير ذلك من نظر الأهراء التي ملأها حَبّاً، وصبّ اللّهُ البركات فيها بنيته الطاهرة صبّاً، ونظر دار القنود التي حلت بحديثه فيها وتميّز ارتفاعها جملاً تعجز واصفيها؛ هذا إلى صدر رحيبْ وخلق ما له مشاكل ولا ضريب، وثناءِ هو في الذكر أبو الطيّب، ووجه إلى القلوب حبيب، مكانه كعبة قصّاد ومنزل رُوّاد، ومنهل الورّاد، وحَلْبةُ جود سبق فيها حاتماً هذا الجواد، قد تورَّع عن المناصب الدينيّة، وعرضت عليه أيامَنا وأيامَ والدنا الشهيد فلم يكن له فيها رغبة ولا نيّة، وندبناه لنظر دولتنا الشريفة ورَقَّيْناه ذُرى شُرُفاتها المنيفة، فجعل نجوم أموالها أهِلَّة، وأمطر سحائبها المستهلّة، وأعرض عنها فما باشرها إلاّ بحلَّة، ولوى جيده عنها واستعفى، ورَنَّقَ الإهمالُ في ناظره حتى أعفى، فأجبنا قصده وأعفيناه وعلمنا تورّعه فآثرنا راحته إلاّ ممّا استثنيناه، وخبّأنا له عندنا ما يناسب مرادَه، ويوافقُ اجتهادَه، ويعاضد اعتماده، علماً بإعراضه عن العرض الأدنى، وزهده فيما وزره يبقى وحطامُه يفنى؛ فلذلك رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الصالحي العمادي، أن يفوّض إليه نظر الجوالي بمصر والقاهرة والمحروستين والوجه القبلي والوجه البحري، مضافاً إلى ما بيده، فليباشر ما فوّض إليه مباشرةً عهدت من حسن اعتماده، وشهدت من وافر اجتهاده، وهو بحمد الله غنيٌ عن الوصايا التي تشير إليها أنامل الأقلام، وتخفق بها من قعقعة الطروس أعلام، «فما تُعَلَّمُ عَوانَة فيها خِمْرَة»، ولا تطلع في أفق هذا التوقيع نجماً، ولو شاء هو أطلع شمس الصواب وبدره، ولكن تقوى الله تعالى مِلاكُ الوصايا المهمة والأمور التي إذا راعها الإنسان لم يكن أمره عليه غمّة؛ فليجعلها لعينه نصباً، ولقربه من الله تعالى قربى، والله تعالى يديم صَوْنه ويجدّد في كل حال عَوْنه. والخطُّ الشريفُ أعلاهُ الله تعالى، أعلاه حجة في ثبوت العمل بما اقتضاه، والله الموفق بمنّه وكرمه إن شاء الله تعالى».

وقلت لمّا بلغتني وفاته بالقاهرة، رحمه الله تعالى، في ذي الحجّة سنة إحدى وستين وسبع مائة: [مجزوء الرمل]

ما لنا في بُؤسِ عَلْسِ ... عَمَّنا منه الشقاءْ

وعلى الدّنيا ظلامٌ ... إثْرَ ما مات الضّياء

٦٤ ـ **«صاحب مرّاكش»**[١] **يوسف بن تاشفين** ـ بالتاء ثالثة الحروف وألف ثم شين معجمة وفاء وياء آخر الحروف ونون ـ السلطان أبو يعقوب اللمتوني المغربي البربري، الملقَّب بأمير المسلمين وبأمير الملثمين وبأمير المرابطين، والأولُ هو الذي استقر. كان أحدَ ملوك البلاد، دانت بطاعته العباد، واتّسعت ممالكُه وطال عمره، وقلّ أن عُمِّر أحدٌ من ملوك المسلمين والإسلام كما عمّر، وهو الذي بنى مدينة مرّاكش، وهو الذي أخذ الأندلس من المعتمد بن عبّاد، وواقعتُه معه مشهورة. وهو أوّل من تسمّى بأمير المسلمين. وكان يحب العفو والصفح وفيه عدل وخير، وكان معتدل القامة نحيفاً، خفيف العارضين، دقيق الصوت حازماً، سائساً يخطب لبني العباس.

كان برّ المغاربة الجنوبي لقبيلة تسمى زناتة برابر، فخرج عليهم من جنوب المغرب من البلاد المتاخمة لبلاد السودان الملثمون يقدمهم أبو بكر بن عمر منهم، وكان رجلاً ساذجاً خَيِّرَ الطِّباع موثراً لبلاده على بلاد المغرب، غيرَ ميَّالٍ إلى الرفاهية، وكان ولاةُ المغرب من زناتة ضعفاء لم يقاوموا الملثمين فأخذوا البلاد من أيديهم من باب تلمسان إلى ساحل البحر المحيط، فلمّا حصلت البلاد لأبي بكر بن عمر المذكور سمع أنّ عجوزاً في بلاده ذهبت لها ناقةٌ في غارة، فبكت وقالت: لقد ضيعنا أبو بكر بن عمر بدخوله إلى بلاد المغرب فحمله ذلك على أن استخلف يوسفَ بن تاشفين هذا، ورجع إلى بلاده الجنوبية فاستمرَّ هناك وساس الناس سياسةً حسنةً، واختطّ مراكش في سنة خمس وستين وأربع مائة، وكان موضعها مكمناً للصوص، ومراكش بلغة المصامدة «امش مسرعاً أو خوفاً من اللصوص» وكان مُلْكاً لعجوز مصمودية.

ولما تمهّدت له البلاد تاق إلى العبور إلى جزيرة الأندلس وكانت محصّنة بالبحر، فأنشأ الشّواني والمراكب والمقاتلة، فلما علم ملوك الأندلس بذلك استعدّوا له وكرهوا إلمامه بجزيرتهم، لكنهم كرهوا أن يصبحوا بين عدوّين: الفرنج من شماليهم والملثمون من جنوبيهم، وكانت الفرنج تشدُّ الوطأة عليهم وأهل الأندلس ترهبهم بإظهار موالاة يوسف بن تاشفين، وكان له اسمٌ كبير لنقله دولة زناتة ومُلْك المغرب إليه في أسرع وقت، وكان قد

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٢٥٢)، «الكامل في التاريخ» (١٠/ ٤١٧، ٤١٨)، «المعجب» (١٦٢)، «وفيات الأعيان» (٧/ ١١٢ـ ١٣٠)، «دول الإسلام» (٢/ ٢٨ـ ٢٩)، «العبر» (١/ ٣٥٦/ ٣٥٧)، «تتمة المختصر» (٢/ ٩٢ ـ ٣٠)، «عيون التواريخ» (١٣/ ٨١ـ ١٩٤)، «الحلل الموشية» (١٢/ ٦٠) «بغية الرواد» (١/ ٨٦)، «صبح الأعشى» (١/ ٣٦٣)، «النجوم الزاهرة» (١٩١/ ١٩٥)، «الروض المعطار» (٢٨٨/ ٢٨٩)، «نفح الطيب» (٤/ ٣٥٤)، «شذرات الذهب» (٣/ ٤١٢ـ ٤١٣)، «الاستقصا» (١/ ٢٢٤)، «معجم الأنساب» (١١٣) «تراجم إسلامية» (٢٢٥ـ ٢٣٤).

ظهر لأبطال الملثمين في الحروب ضربات بالسيوف تقذ الفارس، وطعنات تنظم الكلى، وكان له بذلك ناموس ورعب، فراسل ملوك الأندلس بعضُهم بعضاً وفزعوا في ذلك إلى المعتمد بن عباد لأنّه أشجعُ القوم وأكبرُهم مملكة، فكتب عنهم كاتباً من أهل الأندلس وهو:

«أما بعدُ، فإنّك إن أعرضت عنّا نُسِبتَ إلى كرمٍ ولم تُنْسَبْ إلى عجز، وإنْ أَجَبْنا داعيك نُسبنا إلى عقل ولم نُنْسب إلى وهن، وقد اخترنا لأنفسنا أجملَ نسبتنا، فاختر لنفسك أكرم نسبتك، فإنّك بالمحلِّ الذي لا يجب أنْ تُسْبقَ فيه إلى مكرمة، وإنّ في استبقائك ذوي البيوت من دوام أمرك وثبوت ملكك والسلام». فلما جاءه الكتاب مع تحف وهدايا وكان لا يعرف باللسان العربي لكنّه كان يجيدُ فهمَ المقاصد، وله كاتِبٌ يعرف باللغة العربية والمرابطية، فقال له: «أيّها الأميرُ هذا الكتابُ من ملوك الأندلس يعظّمونك فيه ويعرّفونك أنّهم أهلُ دعوتك وتحت طاعتك ويلتمسون منك أنّك لا تجعلهم في منزلة الأعادي فإنّهم مسلمون ومن ذوي البيوت، تعزهم وتكفيهم من وراءهم من الأعادي الكفّار، وبلدُهم ضيّقٌ لا يحتمل العساكر فأعرض عنهم إعراض من أطاعك من أهل المغرب». فقال ابن تاشفين: فما ترى أنت؟ فقال الكاتب: «أيُّها الملك إنَّ تاجَ الملك وبهجتَه وشاهدَه الذي لا يرد بأنه خليقٌ بما حصل في يده من الملك أنّ يعفو إذا استُعْفي، وأنْ يهبَ إذا استُوهب، وكلما وهب جزيلاً كان أعظم لقدره فإذا عظم قدره تأصل مُلْكه، وإذا تأصّل مُلْكه تشرَّف الناسُ بطاعته، وإذا كانت طاعتُه شرفاً جاءه الناس ولم يتجشّم المشقّة إليهم، وكان وارثَ الملك من غير إهلاكه لآخرته؛ واعلم أن بعض الملوك الأكابر والحكماء البصراء بطريق تحصيل الملك قال: من جاد ساد، ومن ساد قاد، ومن قاد ملك البلاد». فلما فَهَّمَه بلغته هذا الكلام وعلم أنّه صحيحٌ قال: أجِبِ القومَ، فكتب:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم من يوسف بن تاشفين، سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته، تحيَّة من سالمكم وسلم إليكم، وحكمه النصر والتأييد فيما حكم عليكم، فإنَّ ما بأيديكم من الملك في أوسع باحة، مخصوصون مِنّا بأكرم إيثار وسماحة، فاستديموا وفاءنا بوفائكم، واستصلحوا إخاءنا بصلاح إخائكم، والله وليُّ التوفيق لنا ولكم والسلام». وقرأه عليه وفهّمه ذلك بلغته فاستحسنه وجهّزه وقرن به دَرقاً لمطية ممّا لم يكن إلاّ في بلاده، ولَمْطة بلدة عند السوس الأقصى بينها وبين سِجِلْماسة عشرون يوماً. ولما وصل ذلك إليهم أحبوه وعظّموه وفرحوا به وقويت نفوسُهم على دفع الإفرنج؛ ثم إنّ الأذفونش جاس خلال الأندلس واشتطّ على ملوكهم يطلب البلاد منهم، وخصوصاً المعتمد بن عباد فلما رأى ابنُ عبَّاد طمعَ

الأذفونش فيه استدعى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وقال: «لأن ترعى أولادُنا جمالَ الملثمين أحب إليهم من أن يرعوا خنازير الفرنج». وكان ابن تاشفين على أتمّ أهبة فعبر إلى الأندلس واجتمع إليه ملوكها، واستنفر الأذفونش جميعَ الفرنج فخرجوا في عدٍّ لا يعلمُه إلاّ الله تعالى، ولم تزل الجموع تتزايد وتتواتر إلى أن امتلأت جزيرة الأندلس خيلاً ورجلاً من الفريقين، وأمر ابنُ تاشفين بعبور الجمال، فعبر منها ما أغصّ الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء، ولم يكن أهل الجزيرة قد رأوْا جملاً قطُّ ولا رأت خيلُهم صورَها ولا سمعت أصواتها، فكانت تذعر منها وتقلق، وكان ابن تاشفين يحدق عسكره بالجمال وكانت خيل الفرنج تحجم عنها. ثم إنّ ابن تاشفين قَدَّم بين يَدَيْ حربِه كتاباً على مقتضى السُّنَّة يعرض عليه الإسلام والدخول فيه أو الحرب أو الجزية، فأبى إلاّ القتال فاختار ابن عبّاد أن يكونَ هو المصادم أولاً، ففعلوا ذلك وتلاقوا واستحر القتل فيهم فلم يفلت من الفرنج غيرُ الأذفونش من دون الثلاثين من أصحابه، فغنم المسلمون أثاثهم وخيلهم بما ملأت أيديهم.
وكانت الوقعةُ في الزَلاقة خامس عشر شهر رجب سنة تسع وسبعين وأربع مائة، وقيل في العشر الأواخر من شهر رمضان من السنة المذكورة. وحُكِيَ أنَّ موقع المعركة على اتّساعه ما كان فيه موضع قدم إلاّ على جسد أو دم، وأقامت العساكر بالموضع أربعةَ أيام حتى جُمعت الغنائم، فلما أنْ حصلت عفَّ عنها ابن تاشفين وآثر بها ملوك الأندلس وقال: «إنّما أتينا للغزو لا للنهب»، فلما رأى ذلك ملوك الأندلس استكرموه وأحبّوه وشكروا له. فلما فرغ ابن تاشفين من الحرب عزم على العودة إلى بلاده، وكان عند دخوله إلى الجزيرة تحرّى المسيرَ بالعراء من غير أن يمرَّ بمدينةٍ أو رُسْتاق، فسأله ابنُ عباد أن يجوز إلى بلده وينزل عنده فأجابه إلى ذلك، فلما انتهى إلى إشبيلية مدينة المعتمد، وكانت من أجمل المدن، ونظر إلى وضعها على نهر عظيم مستبحر تجري فيه السفن بالبضائع من بر المغرب وحاملة إليه في غربيّه، وهو رستاق عظيم يشتمل على الآلاف من الضياع، كلها تين وعنب وزيتون، وفي جانب المدينة قصور المعتمد وأبيه المعتضد على غاية الحسن والبهاء، فأنزل ابن تاشفين في أحد القصور وبالغ في خدمته وإكرامه، فأخذ أصحاب ابن تاشفين في إغرائه على اتّخاذ مثل تلك المنازل، ويقولون له: إنّ فائدة الملك قطع العمر بالعيش المنعّم والتلذّذ كما هو المعتمد وأصحابه، وكان ابن تاشفين مقتصداً في أموره غير متطاول ولا مبذِّر، وكان قد أذهب صدرَ عمره في بلاده في شظف العيش، فأنكرَ على مغريه بذلك الإسراف وقال: «الذي يلوحُ من أمر هذا الرجل أنّه مضيّعٌ لما في يده من المال والمُلك، لأنّ هذه الأموالَ التي تعينه في هذه الأحوال لا بدّ أنْ يكونَ لها أربابٌ، ولا يمكن أخذُ هذا القدر منهم على وجهِ العدل أبداً، فأَخَذَه بالظلم وأخرجه بالترّهات، وهذا من أفحش الاستهتار ومن كانت

همّتُه في هذا الحدِّ من التصرف في ما لا يعدو الأجوفين متى يشحذ همّته في حفظ بلاده وضبطها»؛ ثم إنَّ ابن تاشفين سأل عن حال المعتمد في لذّاته هل تختلفُ فتنقص عمّا هي عليه في بعض الأوقات؟ فقيل له: بل كلُّ زمانه على هذا، قال: وكلُّ أصحابه وأنصاره مُنْجِدوه على عدوّه؟ قالوا: لا، قال: كيف ترون رضاهم عنه؟ قالوا: لا رضا لهم عنه، فأطرقَ وسكت، وأقام عند المعتمد أياماً على تلك الحال.

واستأذن رجلٌ على المعتمد فأُدْخل، وهو ذو هيئة رثَّةٍ فأذن له فقال له: أصلحك الله إنّ من أوجبِ الواجبات شكرُ النعمة، ومن شكر النعمة إهداءُ النصائح، وإنّي رجلٌ من رعيتك، ومن ذلك خبرٌ وقع في أُذني من بعض أصحاب ضيفك يدلُّ على أنّهم يَرَوْنَ أَنْفُسَهم ومَلِكَهُم أحقّ بهذه النعمة منك، وقد رأيت رأياً إن آثرت الإصغاء إليه قلته، قال: قل؛ قال: رأيت أنَّ هذا الرجلَ الذي أطلعته على ملكك رجلٌ مستأسد على الملوك، قد حطّم ببر العدوة زناتة وأخذ الملك منهم ولم يُبْقِ على أحدٍ منهم، ولا يؤمن أن يطمح على الطماعية في ملكك، بل في ملك الجزيرة كلِّها لما قد عاينه من بُلَهْنية عيشك، وأنّه يتخيل أنّ كلَّ ملوك الأندلس في مثل حالك، وأن له من الولد والأقارب من يودُّ أنْ يكون في عيشه مثل عيشكم، وقد أودى الأذفونش وجيشه واستأصل شأفتهم وأعدمك من هو أقوى ناصر عليه لو احتجت إليه، وبعد إن فات الأمر لا يفتك الحزم فيما هو ممكن اليوم، قال: وما هو؟ قال: أن تجمعَ أمرَك على قبض ضيفك هذا واعتقاله في قصرك، وتجزم أنّك لا تطلقه حتى يأمرَ كلَّ من بجزيرة الأندلس من عسكره أن يرجعَ من حيث جاء حتى لا يبقى منهم بالجزيرة طفل، ثم تتّفق أنت وملوك الأندلس على حراسة هذا البحر من سفينةٍ تجري فيه لغزاة له، ثم بعد ذلك تستحلفه بأغلظ الأيْمان ألاّ يضمر في نفسه عودٌ إلى هذه الجزيرة إلاّ باتفاقٍ منكم، وتأخذ منه على ذلك رهائن، فإنّه يعطيك من ذلك ما تشاء، فنفسُه أعزُّ عليه من جميع ما تطلبه منه، ويقنع ببلاده التي لا تصلح إلاّ له وتكون قد استرحت منه، ويرتفع ذكرُك عند ملوك الأندلس. فلمّا سمع المعتمد ذلك استصوبه وجعل يفكر في انتهاز الفرصة، وكان للمعتمد ندماءُ قد انهمكوا معه في اللّذات، فقال أحدُهم للرجل الناصح: ما كان المعتمد بن عباد ممن يعامل بالحَيْف ويغدرُ بالضيف، وهو إمام المكرُمات، فقال الرجل: إنّما الغدرُ أخذُ الحقِّ من صاحبه، لا دفعُ الرجل الأذى عن نفسه إذا ضاق به واستدرك الأمر وتلافاه، فقال ذلك النديم: «الضيمُ مع وفاء خيرٌ من حزم مع جفاء»، ثم إنّ ذلك الرّجل استدرك الأمر وتلافاه، فشكر له المعتمد ووصله؛ واتصل الخبر بابن تاشفين فأصبح غادياً، فقدّم له المعتمد الهدايا السنيّة فقبلها ورحل، فعبر من الجزيرة الخضراء إلى سَبْتَة، ولما عبر يوسف وأقام عسكره بالجزيرة ريثما استراح وتتبع آثار الأذفونش وتوغل في بلاده. ومات الأذفونش

همّاً وغمّاً، وخلّف بنتاً تحصّنت بطليطلة وجعل الأمر إليها، وكسب عسكرُ ابن تاشفين ما لا يُحَدُّ ولا يوصفُ، وكان ابن تاشفين قد قدَّم عليهم سير بن أبي بكر فكتب إليه أنه قد افتتح معاقل وثغوراً وفتح أماكنَ ورتّب بها المستحفظين وأنّه لا يستقيم لهذه الجيوش أن تقيمَ بالثغور على ضنك من العيش، تصابح العدوّ وتماسيه، فكتب إليه بمحاربة ملوك الأندلس وألاّ ينفّس لأحد منهم، ويلجئهم إلى الوصول إلى العدوة، وليبدأ منهم بمجاوري الثغور وألاّ يتعرّض للمعتمد بن عباد ما لم يستولِ على البلاد. فابتدأ سير بن أبي بكر بملوك بني هود، وتسلّم حصن روطه، ثم نازل بني طاهر بشرق الأندلس فسلّموا إليه ولحقوا بالعدوة، ثم نازل بني صُمادح بالمرية فلما علم المعتصم بن صمادح أنّه مغلوب دخل قصره وأدركه أسفٌ فمات من ليلته، وتسلّم المدينة ثم نازل المتوكل عمر بن الأفطس، وكان رجلاً عظيماً فاضلاً، فخامر عليه أصحابُه وقبضوا عليه وعلى ولديه فقتلوا صبراً، وحُملَ أولاده الأصاغر إلى مراكش؛ وسائر ملوك الجزيرة سلّموا وتحوّلوا إلى برِّ العدوة، إلاّ ما كان من المعتمد بن عباد، فإنّ سيرَ بن أبي بكر لمّا فرغ من ملوك الأندلس كتبَ إلى ابن تاشفين أنّه لم يبقَ من ملوك الجزيرة غير ابن عباد فارسم في أمره ما تراه، فأمر بقصده وأنْ يعرضَ عليه التحوّل إلى برِّ العودة بأهله وماله فإنْ فعل فبها ونعمت، وإنْ أبى فنازله، فعرض ذلك عليه فأبى وحاصره أشهراً، ثم دخل عليه البلد قهراً وحمله مقيّداً إلى أغمات كما تقدم في ترجمته. ولم يعتقل من ملوك الأندلس غيره. وقيل في سبب تغيُّر ابن تاشفين على ملوك الجزيرة وابن عباد غير هذا. واستحوذ ابن تاشفين على ملك الجزيرة، ومات يوم الإثنين لثلاث خلون من المحرم سنة خمس مائة، وعاش تسعين سنة، ملك منها مدَّةَ خمسينَ سنة، وأوصى بالملك من بعده لولده أبي الحسن علي بن يوسف وقد تقدم ذكره في موضعه من حرف العين وتقدم ذكر ولده إسحاق بن علي، وذكر ولده تاشفين بن علي في مكانيهما، وانتهى ملك بني تاشفين.

وكان يوسفُ معتدلَ القامة، أسمرَ اللّون، نحيفَ الجسم خفيفَ العارضين، دقيق الصوت، حسنَ السيرة، خيّراً عادلاً، يميل إلى أهلِ العلم ويكرمهم، ويحكّمهم في بلاده ويصدر عن آرائهم، وكان يحبُّ العفوَ والصفح عن الذُّنوب الكبار. قيل إنّ ثلاثة نفر اجتمعوا فتمنّى أحدُهم ألف دينار يتجُرُ فيها، وتمنّى الآخرُ عملاً يعمل فيه لأمير المسلمين، وتمنّى الآخرُ زوجتَه وكانت أحسن النساء ولها الحكم في بلاده فبلغه الخبر فأحضرهم وأعطى متمنّي المالَ ألفَ دينارٍ، واستعمل الآخر، وقال للذي تمنى زوجته: يا جاهل ما حملك على تمني الذي لا تصل إليه، ثم أرسله إليها، فتركته في خيمةٍ ثلاثةَ أيام تحمل إليه في كل يوم طعاماً واحداً ثم أحضرته وقالت له: ما أكلْت في هذه الأيام؟ قال: طعاماً واحداً فقالت له: كلُّ النساءِ شيءٌ واحدٌ، وأمرت له بمالٍ وكسوة وأطلقته.

وأصلُ الملثمين أنّهم قومٌ من حِمْير بن سبأ، وهم أصحاب خيل وإبل وشاء، يسكنون الصحارى الجنوبية وينتقلون من ماء إلى ماء كالعرب، وبيوتُهم الشَّعرُ والوبر، فأوّل من جمعهم وحرّضهم على القتال عبدُ الله بن ياسين الفقيه، وقُتِل في حربٍ جرت مع برغواطة، وقام مقامه أبو بكر بن عمر الصنهاجي الصحراوي ومات في حرب السودان، ويوسف بن تاشفين هو الذي سمّى أصحابَه الملثمين لأنّهم يتلثّمون ولا يكشفون وجوههم، وذلك سُنَّةٌ لهم يتوارثونها خلفاً عن سلف؛ وسببُ ذلك على ما قيل أنّ حمير كانت تتلثّم لشدّة الحرِّ والبرد، يفعله الخواص منهم، فكثر ذلك فيهم حتى فعله عوامّهم؛ وقيل إنّ سببَ ذلك هو أنّ قوماً من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم إذا غابوا عن بيوتهم فيطرقون الحي ويأخذون المال والحريم، فأشار عليهم بعضُ مشايخهم أنْ يبعثوا النساءَ في زي الرجال إلى ناحيةٍ، ويقعدوا في البيوت في زيِّ النساء، فإذا أتاهم العدوُّ وظنّوا أنّهم النساء يخرجون عليهم، ففعلوا ذلك وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم، فلزموا اللثام تبركاً بما حصل لهم من الظفر بالعدو.

وقال عز الدين بن الأثير رحمه الله تعالى: سببُ اللثام أنَّ طائفةً من لمتونة خرجوا مغيرين على عدوِّهم، فخالفهم العدوُّ إلى بيوتهم ولم يكنْ بها إلاّ المشائخ والصبيان والنساء، فلما تحقّق المشائخ أنهم العدوّ أمروا النساء أن يلبسنَ ثيابَ الرّجال ويتلثّمن ويُضَيِّقْنَ اللثام حتى لا يُعرفن ويحملن السلاح ففعلن ذلك، وتقدّم الصبيان والمشائخ أمامهن، واستدار النساءُ بالبيوت، فلما أشرف العدو ورأى جمعاً عظيماً، فظنّه رجالاً وقالوا: هؤلاء عند حريمهم يقاتلون عَنْهُنَّ قتال الموت، والرأي أنْ نسوقَ النَّعَمَ ونمضي، فإن القومُ اتّبعونا قاتلناهم خارجاً عن حريمهم، فبينا هم في جمع النعم من المراعي إذ أقبل رجالُ الحي، فبقي العدوُّ بينهم وبين النساء، فقتلوا من العدو وأكثروا، وكان من قبل النساء أكثر، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثامَ سُنَّةً يلازمونه ولا يعرف الشيخ من الشاب ولا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً.

وممّا قيل في اللثام: [من الكامل]

قَوْمٌ لهم درك العلى في حميرٍ وإن انتموا صنهاجةً فَهُمُ هُمُ
لمّا حَوَوْا إحرازَ كُلّ فضيلةٍ غَلَبَ الحياءُ عليهُمُ فَتَلَثَّموا

٦٥ ـ «كمال الدين الأَسْنائي ابن الأستاذ الشافعي»[١] يوسف بن جعفر بن حيدرة بن حسّان الأسنائي، كمال الدين الشافعي. قرأ على الشيخ بهاء الدين القفطي وكان كريماً

(١) انظر ترجمته في «الطالع السعيد» (٧١٩).

جواداً، تولّى الحكم بأصفون من بلاد قُوص، والمنشأة من بلاد إخميم، وتوفي سنة اثنتين وتسعين رست مائة بمنشأة إخميم. وكان لشمس الدين بن السديد أخوان من أبيه فماتا واتُّهم بقتلهما، فهرب كمال الدين وكتب ورقةً فيها: «ولمّا أحسَّ المملوكُ الشُّرْبَةَ المستعملةَ من دَمِ الأخوين، شربَ لها حَبّ الغاريقون، وقال إنّا لله وإنّا إليه راجعون».

وله رسائلٌ وشعرٌ منه قوله: [من الكامل].

لا تطلبنَّ من السواقي ثروةً ... يوماً فما لفسادهنّ صلاح
فالشدُّ حلٌ والرسوم تراسُمٌ ... والعُشْرُ عُشْرٌ والخراجُ جراحُ

ومنه يمدح موقّعاً وأجاد: [من الكامل]

يا من إذا خطَّ الكتابَ يمينُه ... أهدى إلينا الوشيَ من صنعاءِ
لم تجرِ كفُّكَ في البياض مُوَقِّعاً ... إلا تَجَلَّتْ عن يدٍ بيضاءِ

٦٦ - «ابن الصَّيْقل» يوسف بن الحجاج الصَّيْقل[(١)]، يقال إنّه من ثقيف، وقيل هو مولاهم. ذكر محمد بن داود بن الجرّاح أنّه كان يلقب «القوة». كان يصحب أبا نواس ويأخذ عنه ويروي له. وأبوه الحجاج بن يوسف محدّث ثقة، روى عنه جماعة كثيرة. ذكره أبو الفرج [في] كتاب الأغاني: وكان يوسف بن الصيقل كاتب سرٌ بالكوفة، أخذ من الرشيد مالاً كثيراً، وقال ابن الجرّاح: كان يوسف مجاهراً باللواط وله في ذلك أشعارٌ كثيرة، منها قوله: [من الخفيف]

لا تنيكنَّ ما بقيت ... غلاماً مكابَرَهْ
لا تَمُرَنَّ بأَسْتِهِ ... غيرَ دفع المؤامرهْ
إنّ هذا اللواطَ دينٌ ... براه الأساوِرَهْ
وهم فيه منصفو ... نَ حُسْنِ المعاشره

وقوله: [من الرمل]

ضع كذا صدرَكَ لي يا سيّدي ... واتّخِذْ عندي إلى الحشرِ يدا
إنّما رِدْفُك سرجٌ مُذْهَبٌ ... كَشَفَ البُزيون عنه فبدا
فأعِرْنيه ولا تبخل به ... ليس يُبْليه ركوبي أبدا

(١) انظر ترجمته في «الأغاني» (٢٠/٩٣) و«تهذيب التهذيب» (٢/٢٠٩)، و«المرزباني» (٥٠٨)، و«معجم الأدباء» (٦/٢٨٤٦).

بـــل يُـــضـــفـــيـــه ويـــحـــلـــو ولا أبـــداً فـــيـــه تـــــراه أوصـــــدا

ابن الحسن

٦٧ ـ **«ابن السِّيرافي النحوي»[1] يوسف بن الحسن بن عبد الله المرزُبان أبو محمد بن أبي سعيد السِّيرافي النحوي.** قرأ على أبيه وخَلَفَه بعد وفاته في حلقته وأقرأ الناس، وتمّم كتاباً بدأ فيه أبوه، وشرح «أبيات غريب المصنف»، وأبيات «إصلاح المنطق»، وأبيات «كتاب سيبويه»، وروى عن أبيه. وروى عنه أبو الحسن عمر بن أبي عمر النّوقاني، وعبد العزيز بن أبي طلحة الجرجاني. وكان من الورع والزهد والتقشُّف على طريقةٍ عجيبة. وتوفي في شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وثلاث مائة.

٦٨ ـ **«التَّفكُّري الشافعي»[2] يوسف بن الحسن بن محمد بن الحسن أبو القاسم التَّفكُّري** ـ بالتاء ثالثة الحروف والفاء والكاف والراء ـ الزَّنجاني. رحل وقرأ «معاجم الطبراني» على أبي نعيم الحافظ؛ وتوفي سنة ثلاث وسبعين وأربع مائة. وكان شافعياً، تفقّه على الشيخ أبي إسحاق، وكان كثيرَ الذكر والعبادة.

٦٩ ـ **«صاحب عُقلاء المجانين»[3] يوسف بن الحسن بن عبد الرحمٰن، أبو يعقوب العطّار البغدادي،** جمع كتاباً فيه «عقلاء المجانين» وحدَّث به بطرسوس، روى فيه عن أبي بكر بن أبي الدنيا، والعباس بن محمد الدوري، وإبراهيم بن هانىء النيسابوري، وهارون بن موسى العطار البغدادي، ويحيى بن محمد المكي، وعبد الرحمن بن عبيد البزاز، وإبراهيم ابن راشد الأدَمي، وعمر بن شبَّة النمري، وغيرهم. ورواه عنه أبو عمرو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن حكيم المدني الإصبهاني، وتوفي. . .

٧٠ ـ **«قاضي القضاة بدر الدين السِّنجاري»[4] يوسف بن الحسن بن علي، قاضي القضاة بدر الدين أبو المحاسن السِّنجاري الشافعي الزراري.** كان صدراً محتشماً جواداً ممدّحاً، تقدَّم في شبوبيته عند الأشْرف وهو بسنجار، فلما ملك دمشق ولاه قضاء البقاع وبعلبك والزبداني وكتبوا في اسجالاته قاضي القضاة؛ وكان يسلكُ بالخيل والجمال

---

(١) انظر ترجمته في «الوفيات» (٢/ ٣٥٠)، و«الجواهر المضية» (٢/ ٢٢٦)، و«بغية الوعاة» (٤٢١)، و«مرآة الجنان» (٢/ ٤٢٩).

(٢) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» ١١/ ٥٥١)، و«المنتظم» (١٦/ ٢١٥)، و«الكامل» (٨/ ٤٢٤).

(٣) لم أعثر على مصادر ترجمته.

(٤) انظر ترجمته في «شذرات الذهب» (٥/ ٣١٣)، و«النجوم الزاهرة» (٧/ ٢١٩)، و«البداية والنهاية» (١٣/ ٢٤٦).

والمماليك والتجمل ما لا يسلكه الوزراء، ثم إنَّه عاد إلى سنجار، ولما مات الكامل وخرجت الخوارزمية عن طاعة ولده الصالح راح الصالح إلى سنجار، فطمع فيه صاحب الموصل ونازله بسنجار ولم يبق إلاّ أن يشملَها، وبدر الدين بها قاضٍ فأرسله الصالح تلك الليالي من السور، فنزل وذهب إلى الخوارزمية وخاطر بنفسه وركب الأهوال واستمالهم ومنّاهم وساروا معه، ووافاهم المغيث ولد الصالح من حران وأقبلوا إلى سنجار، فرحل صاحب الموصل هارباً، فعظمت منزلته عنده، فلما ملك الصالح البلاد وفد إليه القاضي بدر الدين ففرح به وأكرمه. وكان شرف الدين بن عين الدولة قاضي الإقليم بكماله فأفرد عنه مصر والوَجْهَ القبليَّ وفوضه إلى بدر الدين، فلما مات ابن عين الدولة ولاّه قضاء القضاة والوجه البحري. وكان له ذكر جميل وسيرة حسنة معروفة في أخذ الرِّشا من قضاة الأطراف والشهود والمتحاكمين، وحصل له ولأتباعه تشتُّتٌ في البلاد ومصادرات وتوفي سنة أربع وستين وست مائة.

وكتب إليه السرَّاج الوراق يهنئه بشهر رجب: [من البسيط]

الشهرُ مثلُك فردٌ غيرُ ثانيه	وأنتَ أجدرُ من يلقى تهانيه
وهو الأصَمُّ ولكن قد أصاغ إلى	مَنْ ينظم الدُّرَّ مدحاً فيك من فيه
وما نُهنِّيك يا أذكى الورى شيما	بالدَّهر بل هو أولى من نهنّيه
يا سيداً آدابُه مالاً يُفَرِّقُه	وحسنَ ذكرٍ مدى الأيام تحويه
يا ابن الأولى شيّدوا مجداً سما وعلا	فبالكواكبِ قد شُدَّت أواخيه
ما بتُّ أنظمُ مدحي في محاسِنِكم	إلا وقد سبقت فكري قوافيه

٧١ - «ابن مُفَوّز»[(١)] **يوسف بن أبي الحسن بن مفوز.** أنشدني من لفظه العلامة أثير الدين أبو حيان، ليوسف هذا في مليح نظره فمنعته الشّمسُ أنْ ينظرَ إليه: [من الرمل]

وهلالٍ لاح في رأدِ الضُّحى	كلُّ حُسنٍ من محيّاه استمدْ
حجبته الشمسُ لما أنْ رأت	كلَّ لحظٍ في سناه قد وَرَدْ
منعت مرآهُ إمَّا عن هوى	علِقت منه وإمّا عن حَسَدْ

٧٢ - «الخارزنجي»[(٢)] **يوسف بن الحسن بن يوسف بن محمد بن إبراهيم بن إسماعيل أبو القاسم الخارزنجي.** ذكره عبد الغافر ووصفه فقال: الإمام البارع جُمْلَةً، الأديبُ

---

(١) انظر ترجمته في «مسالك الأبصار».

(٢) انظر ترجمته في «إنباه الرواة» (٤/ ٦٥) و«معجم البلدان» (٢/ ٣٣٦).

الأصوليُّ الشافعي من وجوه الأفاضل من أصحاب أبي عبد الله، أخذ الكلام وأصول الفقه عن أصحابه، واختلف إلى دروس إمام الحرمين وعلّق عنه الكثير، ثم خرج إلى مرو سنة إحدى وسبعين وأربع مائة، وأقام بها مدةً، واختلف إلى الإمام أبي المظفر السّمعاني، وأبي محمد عبد الله بن علي الصّفار، وأبي الحسن البستي، ثم عاد إلى نيسابور وأمعن في الإفادة. وصنّف في غير نوع من النَّظْم والنثر والخطب البليغة المرصعة، ومجالس الوعظ والتذكير. وولد بخارزنج من ناحية بُسْت، وله بها سلف صالح، سنة خمس وأربعين وأربع مائة، ودخل نيسابور، ولم يسمع في مبادىء أمره اشتغالاً بالعلم، ثم سمع أبا إسحاق الشيرازي، وأبا بكر بن خلف، وأبا سعيد القشيري وجماعةً سواهم.

وله من قصيدة: [من الكامل]

لبسَ الزمانُ ملابسَ الإدلال ... وبكى الغمامُ بطرفه الهطّالِ

فترى السماءَ تقنّعت بنصيفها ... مثلَ الغواني في خُدورِ حِجالِ

وإذا العوارضُ أرزَمتْ ثم انْبرتْ ... تذري الجمانَ على الرُّبى بسجالِ

وكأنَّ عينَ الغيمِ عينُ متيّمٍ ... وكأنّ وجهَ الأرض وجهُ هلالِ

ابن الحسين

٧٣ ـ «الرازي الصوفي»[١] يوسف بن الحسين بن يعقوب الرازي، شيخ الصوفية. صحب ذا النون المصري. قال: «متى رأيتَ المريدَ يشتغلُ بالرُّخَص فاعلم أنّه لا يجيءُ منه شيء» وكتب إلى الجُنَيْد قال: «لا أذاقك اللَّهُ طَعْمَ نفسك فإنْ ذُقْتَها لا تذوق بعدها خيراً». وتوفي سنة أربع وثلاث مائة.

٧٤ ـ «الحافظ ابن بكار الشافعي»[٢] يوسف بن الحسين بن بدر بن الحسن بن المفرج ابن بكار، الحافظ المفيد الإمام المسند شرف الدين أبو المظفر، النابلسي الأصل الدمشقي الشافعي. ولد سنة ثلاث وست مائة وتوفي سنة إحدى وسبعين وست مائة. وسمع من ابن البُنّ وغيره، ورحل وعني بهذا الشأن، ونسخ بنفسه وبالأُجرة وخَطُّه طريقةٌ مشهورةٌ حلوة، وخرّج لنفسه «الموافقات» في خمسة أجزاء، وحدَّث بدمشق والإسكندرية والقاهرة، وروى عنه الدمياطي وابن الخباز وابن العطار وأبو الحسن الكندي. وكان ثقة حافظاً متقناً جيّد

(١) انظر ترجمته في «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٤/ ١٠٢)، و«شذرات الذهب» (٢/ ٢٤٥).

(٢) انظر ترجمته في «شذرات الذهب» (٥/ ٣٣٥)، و«النجوم الزاهرة» (٧/ ٢٧٩)، و«تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٤٦٢).

المذاكرة، جيِّد النظم، حسن الديانة ذا عقل ووقار. ولي مشيخة دار الحديث النوريّة بدمشق.

ومن شعره: [من الطويل]

بلىً في بلَى في سَوْرَةٍ ليس تُخْتَمُ ... فمُشْتبِهٌ من هَجْرِهِ ومحكَّمُ
يكرِّرُ تلقائي دروسَ خلافه ... فَقَلْبي به يشقى وطرفي يَنْعَمُ
أناظِرُه في الهجر كيف استباحَه ... فيدرك معنى الحسن منّي فأسلم
ولما تولى الخدُّ والى عذارُه ... دَفَعْتُ إليه قبصّتي أتظلَّمُ

٧٥ ـ «والد الحجّاج»[١] **يوسف بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي.** تقدّم بقيّةُ النَّسَبِ في ترجمة ولده الحجّاج بن يوسف في حرف الحاء مكانه. له حديث واحد يرويه عن سعد بن أبي وقاص. توفي في حدود السبعين للهجرة.

٧٦ ـ «الشريف جمال الدين المشهدي»[٢] **يوسف بن حمّاد الشريف جمال الدين الحُسَيْني المشهدي الإمامي، شيخُ الشّيعة ومُفتيهم.** توفي سنة سبع وعشرين وسبع مائة. حجّ مرّاتٍ وجاور، وله نظم؛ كان فيه تواضع. مات في المعترك. ومن نظمه[٣].

٧٧ ـ «الرَّحْبي الطبيب رضيّ الدين»[٤] **يوسف بن حيدرة بن حسن، العلامة رضي الدين أبو الحجاج الرَّحْبي، شيخ الطب بالشام، له القدم والاشتهار عند الخاص والعام، ولم يزل مبجلاً عند الملوك.** كان كبير النفس عالي الهمّة حسن السيرة محباً للخير عديم الأذية، وكان أبوه من الرَّحْبة كحّالاً، قدم مع أبيه إلى دمشق، واشتغل على مهذّب الدين النقّاش ولازمه فنوَّه بذكره، وخدم السلطان صلاح الدين، وجعل له في الشَّهر ثلاثين ديناراً على أنْ يكونَ ملازم القلعة والبيمارستان ولم تزل عليه إلى أنْ نقصه المعظَّمُ النِّصف، ولم يزل يتردد إلى البيمارستان إلى أن مات. واشتغل عليه جماعة.

---

(١) انظر ترجمته في «تهذيب التهذيب» (١١/ ٤١٠)، و«تهذيب الكمال» (٣٢/ ٤١٧)، و«تاريخ الطبري» (٥/ ٦١٢)، و«الجرح والتعديل» (٩/ ٢٢٠).

(٢) انظر ترجمته في «الدرر الكامنة» (٥/ ٢٢٨)، و«أعيان العصر» (٣/ ٣٤٥).

(٣) هكذا في الأصل يوجد نقص.

(٤) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ٣٧١) ترجمة ابن أبي أصيبعة في «عيون الأنباء» والذهبي في «تاريخ الإسلام» (الورقة: ١١٧ من مجلد أيا صوفيا) و«العبر» (٥/ ١٢٧) وهو «الرحبي» بخط الذهبي، لكن جاء في «الشذرات» (٥/ ١٤٧)، «وفيها الرضي الرخّي ـ بتشديد الخاء المعجمة نسبة إلى الرخ ناحية بنيسابور ـ أبو الحجاج يوسف بن حيدرة شيخ الطب بالشام.

وكان لا يقرىء أحداً من الذِّمَّة، ولم يقرىء في عمره منهم سوى اثنين: عمران الإسرائيلي وإبراهيم السَّامري بعد أن ثقّلا عليه وتشفّعا، وكلاهما نبغ وتميّز. وكان لا يطلع في سلَّم ويسأل عن ذلك أولاً إذا طُلب إلى مريض. وكان ابن شُكر يلزم أكل الدجاج، فشحب لونُه، فقال له الرضي: الزم لحمَ الضأن، ألا ترى لحم هذا ولحم هذا؟.

وخلّف ولدين شرف الدين عليا، وجمال الدين عثمان، وكلاهما طبيب فاضل. وتوفي رضيّ الدين سنة إحدى وثلاثين وست مائة.

٧٨ ـ «أبو الحجاج الأدمي الدمشقي»[١] **يوسف بن خليل بن قراجا بن عبد الله الأدمي أبو الحجاج الدمشقي**، الحافظ شمس الدين طلب الحديث بنفسه وسمع الكثير من شيوخ بلده، وقدم بغداد سنة سبع وثمانين وخمس مائة، وسمع بها من أصحاب أبي القاسم بن [بيان]، وأبي علي بن نبهان، وأبي سعد بن الطيوري، وأبي طالب بن يوسف، وأبي علي ابن المهدي، وأبوي الغنائم بن النرسي وابن المهتدي، وأكثر عن أصحاب أبي القاسم بن الحصين، وأبي العِزِّ بن كادش، وأبي غالب بن البنّاء، وأبي بكر بن عبد الباقي. وسافر إلى أصبهان وسمع بها من أصحاب أبي علي الحداد، وغانم البرجي، وأبي منصور الصيرفي، وأبي طاهر الداشتيباني، ومن جماعة دونهم وعاد فسمع بالموصل لا من واحد، ودخل مصر وسمع بها من الأبوصيري، وإسماعيل بن صالح وغيرهما؛ وكتب بخطه كثيراً ممّا سمع، وكان يكتب خطاً حسناً ويعرف هذا الشأن معرفة جيدة. وقدم بغداد بعد العشرين وست مائة حاجاً وحدّث بها، ثمّ إنّه عاد إلى حلب واستوطنها وحدّث بها بالكثير، على استقامة وصدقٍ وحخسْن طريقة ومعرفة. قال ابن النجار: كتبت عنه بحلب في رحلتي الثانية، ونِعْمَ الشيخ هو؛ سألته عن مولده فقال: ذَكَرَ لي أبي أنّني ولدت في سنة خمس وخمسين وخمس مائة بدمشق. قال الشيخ شمس الدين: وجلب إلى الشام خيراً كثيراً، وروى عنه الكبار، وتوفي سنة ثمان وأربعين وست مائة، وكان مُشْتغلاً بصَنْعته إلى أن مات؛ وأخوه يونس بن خليل الأدميّ، وسيأتي ذكره إنْ شاء الله تعالى في موضعه.

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٢٣/ ١٥١)، «صلة التكملة لوفيات النقلة» للحسيني الورقة: ٦٢، «تاريخ الإسلام» للذهبي (أيا صوفيا) (٣٠١) ج ٢٠ الورقة: (٩١ ـ ٩٢)، «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٤/ ١٤١٠)، «الترجمة» (١١٣٢)، «العبر» للذهبي (٥/ ٢٠١)، «المستفاد من ذيل تاريخ بغداد» لأحمد بن أيبك الدمياطي الورقة: (٨٢/أ)، «ذيل طبقات الحنابلة» لابن رجب (٢/ ٢٤٤ـ ٢٤٥) «الترجمة» (٣٥٣)، «النجوم الزاهرة» (٧/ ٢٢)، «طبقات الحفاظ» للسيوطي (٤٩٥ـ ٤٩٦) «الترجمة» (١١٠٠)، «شذرات الذهب» (٥/ ٢٤٣ـ ٢٤٤)، «التاج المكلل» للقنوجي (٢٤٠ـ ٢٤١).

٧٩ ـ «ابن الدُّرّا»[١] **يوسف بن دُرَّة ـ واحد الدُّرر ـ الشاعر المعروف بابن الدرّا** ـ بفتح الدال المهملة والراء المشددة وبعدها ألف ـ كان مَوْصِلياً شاباً ذكياً، لطيفَ الطبع، كيِّساً، له أشعار مليحةٌ مع قلّة معرفته بالأدب. هلك في الحاج سنة خمس وأربعين وخمس مائة لما خرجت عليهم زِغْب.

ومن شعره: [من الوافر]

عـذرتُـك لـسـتَ لـلـمـعـروف أهـلاً ... ولَـوْمُـك فـي قـصـورِك عـنـه ظُـلْـمُ
أتـحـسـبـنـي أقـدتُ إلـيـك نـفـسـي ... ولـي بِـكَ أو بـمـا تـأتـيـه عـلـمُ
ظـنـنـت بـك الـجـمـيـل فـخـاب ظـنّـي ... وقـال الله: بـعـض الـظـنّ إثـمُ

و منه: [من الخفيف]

تِـهْ عـلـيـنـا وتِـهْ عـلـى الـشـمـس حُـسـنـا ... أنـت أولـى بـالـوصـف مـنـهـا وأحـرى
أنـت بـدرٌ يـسـري ونـحـن أُسـارا ... ك وأنّـى يـكـون لـلـبـدر أَسْـرى
لا وأجـفـانِـك الـمِـراضِ الـلـواتـي ... سـحـرُهـا لانـعـجـامـه لـيـس يـقـرى
لـو رأى وجـهَـك الـخـلـيـلُ بـعـيـنـي ... قـال: هـذا ربّـي، ولـم يـتـبّـرا

ومنه: [من الوافر]

سَـنَـحـتْ نـفـسـي بـتـركٍ بـعـد شُـحٍّ ... وضـاقَ بـحـبِّـك الـصـدرُ الـفـسـيـحُ
وَصُـنْـتُ بِـصَـرْفِ وَجـهـي عـنـك نـفـسـاً ... يـؤثّـر غـي جِـبِـلَّـتـهـا الـقـبـيـحُ

ومنه: [مخلّع البسيط]

مـدوّرُ الـكـعـب فـاتّـخـذهُ ... لـتـلّ غـرسٍ وثـلّ عَـرْشِ
لـو رَمَـقـت عـيـنُـه الـثـريـا ... أخـرجـهـا فـي بـنـات نـعـش

٨٠ ـ «الفندلاوي»[٢] **يوسف بن دوناس بن عيسى أبو الحجاج الفندلاوي** ـ بالفاء والنون ـ المغربي الفقيه المالكي. قدم حاجاً وسكن بانياس مدة وكان بها خطيباً وانتقل إلى دمشق ودرس بها الفقه وحدّث بالموطأ. وكان حسنَ المحاضرة حُلْوَ المفاكهة متعصّباً لمذهب الأشعريّ، كريمَ النّفس وله مكاشفات. وقف في وجه الفرنج، فقتل على الماء قريبَ الربوة سنة ثلاث وأربعين وخمس مائة.

---

(١) انظر ترجمته في «وفيات الأعيان» (٧/ ٢٣٠) و«خريدة القصر قسم شعراء العراق» (٢/ ٣٢٦).

(٢) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٢٠٩).

٨١ ـ **«القاضي بهاء الدين بن شدّاد»**[١] **يوسف بن رافع بن تميم بن عُتبة بن محمد بن عَتّاب الأسدي، القاضي بهاء الدين بن شداد الشّافعي قاضي حلب.** توفي أبوه وهو صغير السنّ فنشأ عند أخواله بني شداد، وكان شدّاد جده لأمه؛ وكان القاضي بهاء الدين أولاً يكنى أبا العزّ ثم غيّر كنيته وجعلها أبا المحاسن. وولد بالموصل في شهر رمضان سنة تسع وثلاثين وخمس مائة، وتوفي، رحمه الله، في صفر سنة اثنتين وثلاثين وست مائة، ودفن بحلب في تُرْبة عمّرها. وحفظ القرآن بالموصل وقدم عليهم الشيخ صائن الدين يحيى بن سعدون القرطبي فلازمه وقرأ عليه بالسبع وأتقن القراءات، قرأ عليه إحدى عشرة سنة، والحديث والقرآن والتفسير، من ذلك: البخاري، ومسلم من عدة طرق، وكتب الأدب، و«شرح الغريب» لأبي عبيد، وقرأ على الشيخ أبي البركات عبد الله بن الحسين بن الشيزري بعض «تفسير الثعلبي»، وأجاز له جميع ما يرويه؛ وقرأ على الشيخ أبي الفضل عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد القاهر الطوسي خطيب الموصل. وكان مشهوراً بالرواية يُقْصَد من الآفاق كثيراً من [أجل] مروياته، وأجاز له، وقرأ على القاضي فخر الدين أبي الرضا سعيد ابن عبد الله بن القاسم الشَّهرزوري «مسند الشافعي»، و«مسند أبي يعلى الموصلي»، و«مسند أبي عوانة»، و«سنن أبي داود»، و«جامع الترمذي»، وأجاز له وقرأ على الحافظ مجد الدين أبي محمد عبد الله بن علي الأشيري الصنهاجي، وأجاز له جميع ما يرويه، وقرأ على الحافظ سراج الدين أبي بكر محمد بن علي الجياني «صحيح مسلم»، و«الوسيط» للواحدي وأجاز له، وسمع ببغداد من شُهْدة الكاتبة، وأبي المغيث، والشيخ رضيّ الدين القزويني مدرِّس النظامية، وجماعة غيرهم؛ وقرأ الخلاف على الضياء بن أبي الحازم صاحب محمد ابن يحيى الشهيد؛ الخواري، والعماد الميانجي؛ ونزل بالمدرسة النظامية. بعد تأهله وترتّب فيها معيداً نحو أربع سنين، والمدرِّسُ يومَ ذلك أبو نصر أحمد بن عبد الله بن محمد الشاشي، ورفيقُه في الإعادة السَّديد السلماسي. ثم إنّه عاد إلى الموصل ورُتِّب مدرساً في مدرسة القاضي كمال الدين أبي الفضل محمد بن الشهرزوري، ولازم الاشتغال وانتفع به الناس. وحجَّ وزار القدس ودخل دمشق، والسلطان صلاح الدين على كوكب يحاصرها، فسمع به فاستحضره، فقابله بالإكرام التامّ وسمع عليه «أذكار البخاري»، فلما خرج من عنده اتبعه العماد الكاتب وقال له: السلطان يقول لك إذا عدت من الزيارة عرّفنا بعودك، فلما عاد عرّفه وجمع له عند ذلك كتاباً يشتمل على فوائد الجهاد وفضائله وما أعدّ الله للمجاهدين،

(١) انظر ترجمته في «شذرات الذهب» (١٥٨/٥)، و«البداية والنهاية» (١٢٣/١٣)، و«تذكرة الحفاظ» (٢/ ١٤٥٩)، و«سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ٣٨٣).

ويحتوي على ثلاثين كرّاساً، فاجتمع به على حصن الأكراد. ثم إنّ السلطانَ صلاح الدين ولاه قضاء العسكر والحُكم في القدس سنة أربع وثمانين وخمس مائة. وحضر إليه مرّةً صُحْبةَ الشيخ صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل، والقاضي محيي الدين بن الشَّهرزوري وهم بمصر، فاتّفق وفاةُ بهاء الدين الدمشقي مدرّس منازل العزّ بمصر وخطيبها، فعرض ذلك عليه السلطان فلم يفعل، وحضر عنده أيضاً وهو على حرّان وكان مريضاً. ثم إن القاضي كان عند السلطان لمّا مرض بقلعة دمشق ومات رحمه الله تعالى، وتوجّه إلى حلب ليجمعَ كلمةَ الإخوة أولاد صلاح الدين، وتحليفَ بعضهم لبعض. ثمّ جهّزه الظاهرُ غازي من حلب إلى مصر لتحليف أخيه العزيز عثمان، وعرض عليه الحكم بحلب فلم يوافق، ثم إنّه لما عاد من مصر اتّفق موتُ الحاكم بحلب فعرض عليه الحكم فأجاب، وولاه أوقافها. وقيل بل عزل قاضي حلب زين الدين أبا البيان بن البانياسي نائب محيي الدين بن الزكي، ثم إنّ القاضي بهاء الدين كان عند الظاهر في رتبة الوزير والمشير، وكانت حلب إذ ذاك قليلةَ المدارس والفقهاء، فعني بها القاضي بهاء الدين وجمع الفقهاء وعمّرت المدارس، وكان الظاهر قد قرّر له إقطاعاً جيداً يحصِّل منه جملةً كبيرةً، وكان القاضي قليلَ الخرج لم يولد له ولا له أقارب، فتوفّر له شيءٌ كثير فعمّر مدرسةً بالقرب من باب العراق قبالة مدرسة نور الدين محمود بن زنكي للشافعي سنة إحدى وست مائة، وعمّر في جوارها دارَ حديثٍ، وجعل بين المكانين تُرْبةً برسم دفنه فيها، ولها بابان أحدهما إلى المدرسة والآخر إلى دار الحديث، وشبّاكان إليهما متقابلان، وكان يدرِّس بنفسه، ولما طعن في السن وضعف رتّب أربعةَ فقهاء فضلاء برسم الإعادة والجماعة يشتغلون عليه. وكان القاضي بيده حلُّ الأمور وعقدها لم يكن لأحد معه كلام في الدولة، ولمّا ولي المُلْكَ الملِكُ العزيزي محمد بن الظاهر غازي، كان تحت حجر الطواشي أبي سعيد طغرل شهاب الدين وهو أتابكه ومتولي تدبيره بإشارة القاضي بهاء الدين. وكان للفقهاء في أيّامه حُرمةٌ كبيرة ورعاية تامةٌ خصوصاً فقهاء مدرسته، كانوا يحضرون مجالس السلطان ويفطرون في شهر رمضان على سماطه. وكان القاضي قد بقي كأنّه الفَرْخُ، وكانت تعتريه نزلاتٌ كثيرة في دماغه فلا يزال عليه الفَرَجِيَّة البُرْطاسي والثياب الكثيرة وتحته الطراحة الوثيرة فوق البسط ذوات الخمائل الثخينة.

قال قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان: كنّا نجد عنده الحرّ والكرب وهو لا يشعر به لكثرة استيلاء البرودة عليه من الضعف، وكان لا يخرج لصلاة الجمعة إلاّ في شدة القيظ، وكان إذا قام للصلاة بعد الجهد كاد يسقط.

وكان كثيراً ما ينشد: [من البسيط]

إنَّ السَّلامَةَ من ليلى وجارتِها أنْ لا تمرَّ على حالٍ بناديها

وكثيراً ما يتمثّل بقول صرّدُر: [من الكامل المرفّل]

وعهودُهم بالرَّمْلِ قد نُقِضَتْ وكذاك ما يُبنَى على الرَّمْلِ

وكان القاضي بهاء الدين قد سلك طريقَ البغاددة في ترتيبهم وأوضاعهم، حتى إنَّه كان يلبس ملبوسهم وزيَّهم، وكان الرؤساء الذين يترددون إلى بابه ينزلون عن دوابهم على قدر أوضاعهم، كلٌّ منهم له مكانٌ لا يتعدّاه.

وكان قبل موته قد تجهّز إلى مصرَ لإحضار ابنة الملك الكامل ابن الملك العادل لأجل الملك العزيز صاحب حلب، فسافر في أوّلِ سنة تسع وعشرين وأواخر سنة ثمان وعشرين وست مائة، وعاد وجاء في شهر رمضان سنة تسع وعشرين، ولما وصل كان قد استقلّ الملكُ العزيزُ بنفسه ورفعوا عنه الحجر، ونزل الأتابك طغرل من القلعة إلى داره تحت القلعة، واستولى على الملك العزيز شبابٌ كانوا يعاشرونه ويجالسونه، فاشتغل العزيزُ بهم ولم يرَ القاضي منه وجهاً يرتضيه، فلازم داره إلى أن توفي وهو باق على الحكم والإقطاع؛ غايةُ ما في الباب أنّه لم يكن له حُكْمٌ في الدولة ولا كانوا يراجعونه، فصارَ يفتحُ بابَه لإسْماع الحديثِ كلَّ يوم بين الصلاتين، وخَرِفَ آخرَ الحال بحيث إنَّه إذا جاءه إنسانٌ لا يعرفه، وإذا قام من عنده يسألُ عنه، واستمرَّ على ذلك مُدَيْدَةً، ومرض أياماً قلائلَ، ومات رحمه الله تعالى.

وصنّف كتابَ «ملجأ الحُكَّام عند التباس الأحْكام» في مجلدين، وكتاب «الموجز الباهر» في الفقه، وكتاب «سيرة صلاح الدين».

وجعل داره خانقاه للصوفية.

ابن سعيد

٨٢ - «القطّان»[(١)] يوسف بن سعيد بن مُسافر بن جميل بن أبي طاهر بن أبي عبد الله القطان أبو محمد البغدادي، كان من المشهورين بطلب الحديث وقراءة القرآن، والخير والصلاح من صِغَرِه إلى أن توفي سنة إحدى وست مائة. شذا طرفاً من الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل؛ وقرأ القراءات بالروايات على المشايخ وسمع الكثير وقرأ بنفسه على المشايخ، وكتب بخطّه الكثيرَ، ولم يزل يسمع ويكتب إلى أن مات رحمه الله تعالى. وحجَّ

(١) انظر ترجمته في «شذرات الذهب» (٥/٦).

مرات، وجاور بمكة والمدينة يأكل من كسب يده؛ وختم عليه القرآن جماعةٌ وكان صوتُه طيباً، وسمع ابن البطّي، وشُهْدة الكاتبة، وعبد الله بن هبة الله النرسي وغيرهم.

قال ابن النجار: وجرت له حركةٌ لا تليقُ بأهل الصِّدق والعَقْل والدين، وكذَّبه أصحاب الحديث، ثم إنّه تابَ وأشهدَهم عليه بالتوبة. قال: وكان شيخُنا أبو محمد بن الأخضر يعطيه أصولَه فيكتب عليها السَّماع منه في حلقته بالجامع، ويقرأ عليه كثيراً مع كونه أنكر عليه ما فعله؛ وسمعته كثيراً يُسَفِّهُ رأيَه في ذلك، ولعمري لم تبدُ منه حركةٌ بعدها ولا رأينا منه إلاّ الخيرَ.

٨٣ ـ «أبو يعقوب المصِّيصي الحافظ»[١] يوسف بن سعيد بن مسلم الحافظ، أبو يعقوب المصِّيصي. روى عنه النّسائي وقال: ثقة حافظ. وتوفي في جمادى الآخرة سنة إحدى وسبعين ومائتين.

٨٤ ـ «المهذّب السّامِري وزير الأمجد»[٢] يوسف بن أبي سعيد المهذّب السامري الطبيب. قرأ على المهذب النقّاش، وبرع في الطب، وخدم الملك الأمجد صاحب بعلبك وحظي لديه ونال الأموال؛ ثم وَزَرَ له واستحوذ عليه حتى قال فيه فِتْيان الشَّاغُوريّ: [من المنسرح]

أصبحَ في السّامريِّ معتقِداً   معتقدَ السامريِّ في العجلِ

ولم يزل أمره مستقيماً حتى كثرت الشكاوى عليه من أقاربه في بعلبك، فإنهم قصدوه من دمشق واستخدمهم في الجِهات، فنكبه الأمجد ونكبهم واستصفى أموالهم وسجنه ثم أطلقه فجاء إلى دمشق ومات بها. وهو عمُّ أمين الدولة؛ وكان هلاكُه في سنة أربع وعشرين وست مائة.

ابن سليمان

٨٥ ـ «الرَّباحي»[٣] يوسف بن سليمان بن مروان أبو عمر الأنصاري الأندلسي المعروف بالرَّباحي. كان فقيهاً إماماً ورعاً زاهداً نحوياً عروضياً شاعراً نسّابة، يسردُ الصيام ويُديم القيام؛ له مصنَّف في الردّ على القبري؛ توفي سنة ثمان وأربعين وأربع مائة. ومن شعره.

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٦٢٢)، وفي «تهذيب التهذيب» (١١/ ٤١٤)، و«شذرات الذهب» (٢/ ١٦٢).

(٢) انظر ترجمته في «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» (٧٢١).

(٣) انظر ترجمته في «تاريخ الإسلام» (٤٤١ـ ٤٥٠).

٨٦ - **«ابن الطُّبْني»[١] يوسف بن سليمان بن عبد الله بن وهب بن حبيب بن مطر المري المعروف بابن الطُّبْني، هو أبو عمر.** كان رجلاً صالحاً ورعاً، صحب محمد بن أبي خالد وروى عنه، وكان ربَّما شاوره الحكام مع نظرائه توفي سنة تسع وعشرين وثلاث مائة.

٨٧ - **«الأعلم الشَّنْتَمري»[٢] يوسف بن سليمان بن عيسى أبو الحجاج الأندلسي الشنتمري** - بالشين المعجمة والنون وبعدها تاء ثالثة الحروف وميم بعدها راء - الأعلم النحوي. كان واسعَ الحفظ جيِّدَ الضَّبط، كثيرَ العناية بهذا الشأن، كانت الرحلةُ إليه في وقته. أخذ عن أبي القاسم إبراهيم الإفليلي وأبي سهل الحرّاني، ومسلم بن أحمد الأديب، وأخذ عنه أبو علي الغسّاني وطائفة كثيرة. وكُفَّ بصرُه في آخر عمره، وكان مشقوقَ الشَّفة العُليا شقاً كبيراً. توفي رحمه الله تعالى بإشبيلية سنة ست وسبعين وأربع مائة، وكانت ولادته سنة عشر وأربع مائة. وشرح «الجمل في النحو» لأبي القاسم الزجّاجي، وشرح «أبيات الجمل» في كتاب مفرد، وساعد شيخَه الإفليلي على شرح «ديوان أبي الطيِّب»، وقيل إنه شرح «الحماسة» شرحاً مطولاً، ورتَّب الحماسة كلَّ بابٍ منها على حروف المعجم.

٨٨ - **«جمال الدين الصوفي»[٣] يوسف بن سليمان بن أبي الحسن بن إبراهيم الفقيه الأديب الشاعر الخطيب الصوفي الشافعي جمال الدين.** سألته عن مولده فقال لي: سنةَ ثلاث وتسعين وست مائة بنابلس. نشأ بدمشق وقرأ بها الأدب على الشيخ تاج الدين اليمني، والنحو على الشيخ نجم الدين القحفازي وغيره، وقرأ الفقه علي؛ وحجَّ سنةَ ثلاث وعشرين وسبع مائة، ثم حجَّ في سنة سبع وأربعين وسبع مائة عُقَيْب موتِ ولدِه سليمان، فإنّه حَصَل له وجدٌ عظيم، وألَمّ كثير على فَقْدِه فما رأى لنفسه دواء غير الحج.

وهو شاعرٌ مجيد في المقاطيع، يجيد نظمها ومعناها، وله بديهةٌ مطاوعةٌ وارتجال متسرّع، لذيذُ المفاكهة، جميلُ الودّ، حسنُ الملقى، وهو الآن خطيب البدرية التي في مقرى، كان القاضي شهاب الدين بن فضل الله قد جدّد رسومَ هذا المكان وعمَّره في أيام الأمير علاء الدين ألطُنْبُغا، وقرّر به خطبةً وجعله خطيبه، وأوّلُ يوم خطب فيه كان يوماً مشهوداً، اجتمع له القضاة والعلماء ووجوهُ الناس والأعيان، وعمل القاضي شهاب الدين في ذلك النّهار طعاماً كثيراً للناس، وخلع فيه الخلع السنيَّة، وخطب الشيخ جمال الدين

---

(١) انظر ترجمته في «ترتيب المدارك» (٦/ ١٥٧).

(٢) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٥٥٥)، و«إنباه الرواة» (٤/ ٥٩)، و«شذرات الذهب» (٣/ ٤٠٣)، و«تاريخ الإسلام» (٤٧١- ٤٨٠).

(٣) انظر ترجمته في «الدرر الكامنة» (٥/ ٢٢٩).

المذكور خطبةً جيّدةً فصيحةَ الألفاظ، بديعة المعاني، وهو الآن يخطب من إنشائه، ولم يزل إلى أنْ توفي ـ رحمه الله تعالى ـ في ثامن عشر ربيع الآخر سنة خمسين بالطاعون، انقطع له يومين لا غير.

أنشدني من لفظه لنفسه في فرس أدهم: [من البسيط]

وأدْهَم اللون فات البرق وانتظره ... فغارتِ الريحُ حتى غيَّبتْ أثَرَهْ

فواضِعٌ رِجْلَه حيث انتهتْ يدُهُ ... وواضع يدَه أنّى رمى بَصَرَهْ

سهم تراه يحاكي السهم منطلقاً ... وما له غرض مُسْتَوْقفٌ خبرهْ

يُعفِّر الوحش في البيداء فارسَهُ ... وينثني وادعاً لم يَسْتَثِرْ عَبَرَهْ

إذا تَوَقَّل قطبُ الدّين صهوتَه ... أبْصرت ليلاً بهيماً حاملاً قَمَرَهْ

وأنشدني أيضاً من لفظه لنفسه: [من الخفيف]

قد مَضَتْ ليلةُ الوصال بحالٍ ... قصَّرَتْ عن محصَّلِ الأزْمانِ

أخبرتنا أنَّ الزمانَ جميعاً ... قد تقضّى في ليلةِ الهُجرانِ

وأنشدني له أيضاً: [من الطويل]

يعيبون من أهْوى بكسرةِ جفنِهِ ... وعندي بهذا العيبِ قَدْ تمَّ حُسْنُهُ

فقلتُ وما قصدي سوى سيفِ لحظِهِ ... إذا دام فتكُ السَّيف يُكْسَرُ جَفْنُهُ

وأنشدني أيضاً ما قاله في دولاب في بستان الصاحب شمس الدين: [من الوافر]

ودولابٍ يحنُّ بجسِّ عودٍ ... على وَتَرٍ يُساسُ بغيرِ جَسِّ

فلمّا أنْ بَدَتْ منه نجومٌ ... حكى فَلكاً يدورُ بسعد شمسِ

وأنشدني لنفسه في مليح ينظر في مرآة: [من الكامل]

سقياً لمرآةِ الحبيبِ فإنَّها ... أمْسَتْ لطلعتِهِ البهيّةِ مطلعا

واستقبلت قمَرَ السَّماءِ بوجهها ... فأرتنيَ القمرين في وقتٍ معا

وأنشدني من لفظه لنفسه، وبدر الدين العزي يدّعي ذلك: [من الطويل]

ونوّار خَشْخَاشٍ بكرنا نزورُه ... وقد دهش الرائي بحسن صفوفه

تغنّى به الشحرورُ من فرط شجوه ... فنقَّط بالياقوت ملء دفوفِه

وأنشدني لنفسه أيضاً وبدر الدين الغزي يدّعيهما: [من الطويل]

كأنّ السحابَ الجَونَ لما تجمَّعتْ ... وقد فرّقت عنّا الهموم بجمعِها

نياقٌ، ووجهُ الأرض قعبٌ، وثلجُها حليبٌ ومَرُّ الريح حالبُ ضَرْعِها

وكنت قد سمعت له وأنا بصفد في حدود العشرين والسبع مائة: [من السريع]

كأنّ ضوءَ البدرِ لمّا بدا ونورُه بين غضونِ الغصونْ
وجهُ حبيبٍ زارَ عُشّاقَه فاعترضتْ من دونه الكاشحونْ

فنظم زين الدين عمر بن داود الصفدي: [من السريع]

نظرتُ في الشُّهب وقد أحْدَقَتْ بالبدرِ منها في الدياجي عيونْ
والروضُ يستجلي سنا نوره فتحسد الأرضُ عليه الغصون
وكلّما صانته أوراقُها نازعها الرّيحُ فلاحَ المصون
فقلتُ حتى البدرُ لم يُخلِهِ ريبُ الليالي في السما من عيون

فأعجبني نظم جمال الدين المذكور فنظمت أنا: [من السريع]

كأنّما الأغصانُ لمّا انثنَتْ أمامَ بدرِ التمّ في غيهبِهْ
بنتُ مليكٍ خلفَ شُبّاكِها تفرَّجَتْ منه على مَوْكِبِهْ

ونظمت أيضاً: [من الكامل]

وكأنما الأغصان تثنيها الصَّبا والبدرُ من خللٍ يلوحُ ويُحْجَبُ
حسناءُ قد عامَتْ وأرْخت شعرَها في لجةٍ والموجُ فيه يلعب

ونظمت أيضاً: [من السريع]

كأنّما الأغصانُ في دوحِها يلوحُ لي منها سَنا البَدْرِ
تِرْسٌ من التِّبرِ غدا لامعاً يقيسُه أسودُ بالشِّبْرِ

وكتبت إلى جمال الدين ملغزاً في مكوك الحائك: [من الوافر]

أيا من فاقَ في الآداب حتى أقرَّ بفضله الجمُّ الغفيرُ
وأحْرَزَ في النُّهى قصباتِ سبقٍ فدون محلِّه الفلكُ الأثيرُ
وأطْلع في سماءِ النَّظمِ زهراً يلوحُ فَمَنْ زهيرٌ أو جريرُ
قطعتَ أولي النهى والفضل بحثاً فما لك في مناظرةٍ نظيرُ
إذا أغربتَ في الإعراب وجهاً فكم ثلجت بما تُبدي صدورُ
إنْ قيل المعمّى والمورّى فذهنُك ناقدٌ فيه بصيرُ
وها أنا قد دعوتُك للتّحاجي لأنّك في الحِجى طَبٌّ خبير

فـمـا سـاع يُـرى فـي غـيـرِ أرضٍ ... ولا هـو فـي الـسّـمـا مـمـا يـطـيـرُ
تـراه مـردّداً مـا بـيـن طـردٍ ... وعـكـس قـصَّـرتْ عـنـه الـطـيـور
ويُـلْـطـم كـلّـمـا وافـى مـداه ... ويُـسـحـبُ وهـو مـغـلـولٌ أسـيـرُ
وتُـنْـزَع كـلَّ آونـةٍ حَـشـاه ... ويُـلـقـى وهـو لـلـبـلـوى صـبـور
ويـرشُـفُ بـعـد ذلـك مـنـه ثـغـرٌ ... ولا عَـذْبٌ هـنـاك ولا نَـمـيـرُ
إذا مـا سـار أثّـر فـي خُـطـاه ... طـرائـقُ دونـهـا الـروضُ الـنـضـيـرُ
يـجـرُّ إذا سـعـى ذنـبـاً طـويـلاً ... ويـفـتـر حـيـن يـعـلـوه قُـصـور
ويُـسْـمَـع مـنـه عـنـد الـجـري صـوتٌ ... لـه فـي صـدره مـنـه خـريـرُ
قـلـيـلُ الـمـكـثِ كـم قـدْ بـات تُـطـوى ... لـه مـن شُـقَّـةٍ لـمّـا يـسـيـر
ويـفـتـرشُ الـحـريـرَ ويـرتـديـه ... غـطـاء وهـو مـع هـذا فـقـيـر
وتـظـهـر فـي جـوانـبـه نـجـومٌ ... وفـي أحـشـائـه فـلـكٌ يـدور
فـأوْضِـحْ مـا ذكـرت فـلـيـس خـافٍ ... عـلـى مـجـمـوع فَـضْـلِـك مـا أُشـيـر
ودُمْ فـي نـعـمـةٍ وسـعـودِ جـدٍّ ... وعـزّ مـا سـقـى روضـاً غـديـرُ

فكتب الجواب إليّ في أسرع وقت يقول: [من الوافر]

أَوَجْـهُـك لاحَ أمْ قَـمـرٌ مـنـيـرُ ... وذكـرك فـاح أم نَـفَـحَ الـعـبـيـرُ
طلعت طلوع شمس الصحو صبحاً ... عـلـى فـرس حـكـى فـلـكـاً يـسـيـرُ
ويـا لله روضـاً ضـمـن طـرس ... زهـيـرٌ فـي جـوانـبـه جـريـرُ
رمـيـتَ بـه إلـيّ فـقـلـتُ هـذا ... شـعـاعُ الـشـمـس مـأخـذُه عـسـيـر
أرانـي زمـرة الـوضـاح حـسـنـاً ... يـنـبـهـنـي عـلـى أنـي حـقـيـر
وأنّـي مُـلـحَـقٌ بـأقـل صـنـفٍ ... إذا مـا حـقـق الـجـم الـغـفـيـر
فـمـذ صـحّـفـتـه فـكـري مـلـول ... ومـذ نـشـرتـه بـاعـي قـصـيـر
هـو الـمـأسـور بـالـمـأسـور لـكـن ... لـه فـي أسـره مـرح كـثـيـر
نـشـيـط أَيِّـدٌ ويـقـاد طـوعـاً ... بـخـيـطٍ مـتـنُـهُ واهٍ طـريـرُ
يُـراع لأن مـهـجـتـه يـراع ... لـه فـي الـجـوف مـن خـوف صـفـيـر
يـحـور إلـى يـمـيـنٍ مـن شـمـال ... ومـا يَـعـبـى بـذا لـكـن يـحـور
غـداً يـسـعـى بـأربـعـةٍ سـراعٍ ... ولـيـس لـمـشـيـه بـهـمُ نـظـيـر

يخالف بين رجليه فيجري وترفعه يداه فيستطير
له نولٌ يسير لكلّ حيٍ وميت منه إحسانٌ كثير
إذا أسدى إليه الخيرَ مُسْدٍ جزاه عليه وهو بذا قدير
كذاك صفاتك الحسنى ولكن بدأت تطوّلاً وبنا قصور
فغفراً ثم ستراً ثم قصراً فأين الثمدُ والبحرُ الغزير

ولمّا تولّى خطابة البدرية كتبت له توقيعاً نسخته:

رسم بالأمر العالي لا زال يكسو المنابر جمالاً ويُكسِب أقمارَ الوجوه من الخطباء كمالاً، أن يرتبَ المجلسُ السَّامي جمالَ الدين في كذا، ثقةً ببلاغتِه التي تَرِفُّ على مياهها رياحين القلوب، وفصاحتِه التي يكاد لفظها لمن يذوق يذوب، وبراعتِه التي إذا قال «أيها الناس» فقد غزا الأسماع بجيش [غير] مغلوب، وعظاتِه التي إذا فاه بها بكى الناسُ ليوسفَ بأجفانِ يعقوب، وعبارتِه التي نسج منها ابن المُنيِّر على خير أسلوب، ومقاصِده التي قطف ابن نُباتة زهرة من روضها المحبوب، لأنّه في هذا العصر بحمد الله أفضلُ من عفَّ ومن بر، وأفصحُ خطيب، لو كُلِّف مشتاقٌ فوق ما في وسعه لسعى إليه المنبر؛ فليباشر ذلك مباشرةً يعقدُ على فخرها الإجماع، ويشنّف بدُرِّها الأسماع، ويثق من إحسان هذه الدولة ببلوغ مِناه، وإزالة عناه، وإزاحة ما يحجبُ غناه، فطالما خلتْ وظيفة [كان] يظنهُّا له ملاذاً، وشفر منصبٌ التسقي من وبله رذ إذاً، ولاح رِزْقٌ قلب وجهه في سمائه؛ وهذه الولاية تقول ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾ [يوسف: ١٢/٢٩] إلى أن لمع له شهاب تألق، وأغدق وابلُ جودِه الذي فاض وترقرق، فرقاه خطيباً، وهز بلطفه المنبر غصناً رطيباً، وضوع أرجاه بأَرَجه، حتى قيل إنه ضمَّ خطيباً، وضُمِّخ طيباً؛ فليُجْرِ بعظاته الزاخرة سحب المدامع، ويوقظ البصائر بإرشاده من كلِّ ذي طرفٍ هاجع، ويُمِلْ عطفَ مَنْ يسمعُه فإنّه على غُصْنِ مِنبره بِلَيْل حُلَّتِه بلبلٌ ساجع، وليستدرج القلوب الطائرة إلى لَقْطِ حبِّ التوبة، ويستخرجْ خبايا الندم على ما فات، فكم للنفوس من أوبهْ بعد عظيم الحوبهْ، ويغسل درنَ الذنوب بذكر الممات، فكم لصخر القساوة به من لين وذَوْبَه؛ وإذا وعظ فلا يعظ إلاّ نفسه التي يمحضها النصيحة، وإذا ذَكّر فليذكّر في ذلك الجمع انفراده إذا نزل ضريحه، فإنَّ ذلك أوقعُ في نفس السامع، وأجلبُ لسحِّ الجفن الهامي بالدمع الهامع؛ وليأخذْ لذلك طيبَه العاطر وزينتَه، ويرقى درج منبره بوقاره الذي لا تزعزع الرياحُ سكينته وليبلغ السامعين بإفهام واقتصاد ويذكرهم بتقوى الله تعالى والموت والمعاد؛ وليأت بأدب الخطيب على ما يعلمه، ويحْذَرْ من تقعير اللفظ الذي لا يكاد أنْ يُعْرِبَه فيعجَمه، وتقوى الله تعالى جُنَّةٌ واقية، وجَنَّةٌ راقية،

وسُنَّة باقية، فليلبسْ حلةَ شعارِها، ويُعْلي منارةَ منارها، والله يُلينُ لمقالِه جامدَ القلوب، ويمسح بعظاته ما سوَّدَ الصُّحُف من الذنوب. والخط الكريم أعلاه، حجّةٌ بمقتضاه إن شاء الله تعالى.

٨٩ ـ «ابن اللِّحية»[١] **يوسف بن سليمان بن صالح بن رُهَيْج، أبو يعقوب البغدادي المعروف بابن اللحية**، كان أديباً شاعراً مدح العزيز بمصر. ولد سنة ست وثلاثين وخمس مائة.

ومن شعره يقول: [من المتقارب]

تعلَّقْتُ أسمرَ كالذّابلِ	مليحَ الشَّمائلِ من بابِلِ
يميسُ على الدِّعص من لينه	فأخشى على خَصْرِه النَّاحِلِ
إذا هَزَّتِ الرّيحُ أعطافَه	تمايلَ كالغُصْنِ المائلِ
وقد نَسَجَ الحسنُ في عارضَيْه	عِذاراً من العنبر السائلِ
ويبسمُ عن لؤلؤٍ كلّما	تألَّق عن شنَبٍ كامِلِ
تجول المدامُ على ثغره	فاحْسدُ للسلسل الحائلِ
يروق ليَ العذلُ من حبّه	فاعشق للّائِمِ العاذل
ويبخل بالوصل حتى الخيالِ	فافديه من رشأ باخل
إذا ما تحفظت من جوره	ولم أك للجور بالحامل
فلست أعدُّ مع العاشقين	ولا خير في العاشق الجاهل
إذا ما رماك بألحاظه	فحذرك من طرفه النابل
فلا مِرْهَمٌ لسهام الجفون	وقد فَوَّقَتْها يدُ القاتل
أقول وقد سلَّ من جَفْنِه	حُساماً يطول على العامل
تفانى الرِّجالُ على حبّه	وما يحصلون على طائل

قلت: شعر جيد وآخره تضمين من شعر أبي الطيب.

٩٠ ـ «**يوسف بن سفيان القرشي البطليوسي**»[٢] **أبو عمر**؛ سمع بقرطبة من العُتْبي، وأبي صالح وأنظارِهما، وسمع من منذر بن حزم. وكان فقيهاً خيراً فاضلاً. وكان ابنُ مروان

---

(١) انظر ترجمته في «قلائد الجمان» (١٠/ ٣٥٩).

(٢) انظر ترجمته في «ترتيب المدارك» (٥/ ٣٤٤).

صاحبُ بطليوس يميل إليه، فسُعيَ به إليه وقيل إنّه ينتقصك ويقع فيك، فهمّ به وأراده، فوقعت في ذلك النهار ببطليوس سبعُ صواعق، وقعت واحدةٌ منهنّ في ركن مجلس ابن مروان الذي كان يجلس فيه، فارتاع لذلك وظنّ أنّه الذي همَّ به في الرجل الصّالح، فكفَّ عنه وأصلح جانبه، وتوفي سنة إحدى وثلاث مائة.

٩١ ـ «المهمندار»[1] **يوسف بن سيف الدولة أبو المعالي بن زمّاخ** ـ بالزاي والميم المشددة والخاء المعجمة بعد الألف ـ الحمداني المهمندار، شيخ مُتَجَنِّد.

أنشدني من لفظه العلامة أثير الدين أبو حيان، قال: أنشدني بدر الدين أبو المحاسن يوسف المذكور لنفسه: [من البسيط]

وليلةٍ مثلُ عين الظّبي وهو معي ... قطعتُها آمناً من يقظةِ الرُّقَبا
أردفتُهُ فوق دهم الليلِ مختفياً ... والصّبحُ يُرْكضُ خلفي خيله الشُّهُبا
حتى دهاني وعينُ الشّمس فاترةٌ ... وقد جذبتُ بذيل اللّيلِ ما انجذبا
ما هِيْ بأوّلِ عاداتِ الصّباحِ معي ... ليلُ الشّبابِ بصبح الشَّيْبِ كم هربا

وأنشدني من لفظه أيضاً، قال: أنشدني لنفسه: [من الوافر]

فلا تَعْجبْ لحُسنِ المدح منّي ... صفاتُك أظهرتْ حِكَمَ البوادي
وقد تُبدي لك المرآةُ شخصاً ... ويُسْمِعْكَ الصدى ما قد تُنادي

وأنشدني أيضاً من لفظه، قال: أنشدني لنفسه: [من البسيط]

ما شيمةُ العَرَبِ العَرْباء شيمتُكم ... ولا بهذا عرفنَ الخُرَّدُ الغيدُ
كانت سُليمى ولبنى والرّباب إذا ... أزْمَعْن هجراً أتَتْهُنَّ الأناشيدُ
ودار بينهما فحوى معاتبة ... أرق مما أراقته العناقيد
وآفة الصبِّ مثلي أن يبثَّ جوى ... لمن يجب ولا يثنى له جيد

وأنشدني من لفظه أيضاً، قال: أنشدني لنفسه: [من الكامل]

لو عاينت عيناك يومَ نزالنا ... والخيل تطفح في العجاج الأكدر
وسنا الأسنّة والضياء من الظبى ... كشفا لأعيننا قتام العنبر
وقد اطْلَخَمَّ الأمرُ واحتدم الوَغى ... ووهى الجبانُ وساءَ ظنُّ المجتري
لرأيت سدّاً من حديدٍ مايراً ... فوق الفرات وفوقه نارٌ تَرِي

(١) انظر ترجمته في «الدرر الكامنة» (٥/ ٢٣١)، و«عقود الجمان» (٣/ ٣٥٢).

ورأيت سيل الخيل قد بلغ الزبى ... ومن الفوارس أبحراً في أبحر
طَفَرَتْ وقد منعَ الفوارسُ مدَّها ... تجري ولولا خيلُنا لم تطفر
حتى سبقنا أسهماً طاشت لنا ... منهم إلينا بالخيول الضمّر
لَمْ يفتحوا للرَّمي منهم أعيناً ... حتى كُحلن بكلِّ لدْنٍ أسمرِ
فتسابقوا هرباً ولكن رَدَّهم ... دونَ الهزيمة رمحُ كلِّ غضنفر
ملؤوا الفَضا فعن قليل لم نَدَعْ ... فوقَ البسيطةِ منهمُ من مُخبر
سدّت علينا طُرْقَنا قتلاهُمُ ... حتى جنحنا للمكان الأوْعَر
ما كان أجرى خَيْلنا في إثرهم ... لو أنّها برؤوسهم لم تَعْثر
من كلِّ أشهبَ خاض في بحر ... الدِّما حتى بدا لعيوننا كالأشقر
كم قد فلقنا صخرةً من صرخةٍ ... ولكم ملأنا محجراً من محجر
وجرت دماؤهمُ على وجهِ الثَّرى ... حتى جرت منها مجاري الأنْهُر
والظاهرُ السلطانُ في آثارهم ... يذري الرؤوس بكلِّ عضبٍ أبتر
ذهب العجاجُ مع النَّجيع بصقلِهِ ... فكأنّه في غمده لم يشهر
إن شئتَ تمدحه فقف بإزائه ... مثلي غداةَ الرَّوع وانْظُمْ وانْثُر

قلت: هذه الأبيات الأربع التي في آخر هذه القطعة لم يروها لي الشيخ أثير الدين أبو حيان، وقد تقدّمت في ترجمة الظاهر بيبرس الصالحي في حرف الباء، ولكنّها هنا أكمل، وفي ترجمة الظاهر أيضاً أبيات القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر البائية التي نظمها في قطع الظاهر الفراتَ.

وكتب ناصر الدين بن النقيب إلى بدر الدين الحمداني المذكور: [من الطويل]

أيوسفَ بدرَ الدين والحسنُ كلُّه ... ليوسُفَ يُعْزى أو إلى البدرِ يُنْسَبُ
أَتَيْتَ أخيراً غير أنْك أوّلٌ ... تُعَدُّ من الآحاد شِعراً وتُحْسَبُ
وأحسنُ ما في شعرِكَ الحرِّ أنّه ... به ليس تستجدي ولا تتكَسَّبُ

ومولد بدر الدين المذكور سنة اثنتين وست مائة، ووفاته رحمه الله تعالى في حدود السبع مائة.

٩٢ ـ «أبو الحسن البَاخَرْزي»[١] **يوسف بن صاعد، الشيخ أبو الحسن الباخرزي.** ذكره

---

(١) انظر ترجمته في «الدمية» (٢/ ٣٧٨).

الباخرزي في «الدمية» وأثنى عليه بحسن لعبِ الشّطرنج والنرد والكعاب، والصيد وحُسْنِ المجالسة والآداب، وأوردَ له مجاراةً بينه وبين الباخرزي والده، أعني الحسن بن علي الباخرزي، والد مُصنِّف «الدُّمية»، وقال: ومن لطائف ما شاهدت من ذكاء خاطره، أني كنت عنده بجوذقان أطالع كلَّ صبيحةٍ من غرّته قمراً زاهر لألاء، وأهز إليّ من نخلته شجراً يجني زهر اللألاء، فلما طال مكثي لديه «وطول مقام المرء في الحي مُخلق لديباجتيه»، استأذنته في الانصراف واليوم يوم الأحد، فتمَثَّل بقول القائل: [من الوافر]

وفي الأحد البناء لأنّ فيه تَبدَّى الله في خلق السماء

فقلت: وأي مناسبة بين استيذاني للصدر عن هذا الفناء، وبين يوم الأحد وذِكْرِ البناء؟ فقال: «نبني على كسرى سماء المدام»، يشير إلي قول أبي نواس في قوله: [من الطويل]

بنينا على كسرى سماءَ مُدامةٍ مكلّلةٍ حافاتُها بنجومِ

فتعجبت من جمعه بين معنيين متنافرين بهذا الاستنباط اللطيف، واحتيالِه في ارتباطي ذلك اليوم بهذا العذر الظريف.

٩٣ ـ «الدَّسْكَري»[١] **يوسف بن صالح بن يوسف، أبو القاسم النحوي** من أهل الدَّسْكَرَة، على طريق خُراسان. كان أديباً راويةً للأشعار. روى عن أبوي بكر محمد بن القاسم الأنباري، ومحمد بن يحيى الصولي، وإبراهيم بن محمد بن عَرَفه نفطويه، وأبوي الحسن علي بن هارون بن المنجم، وأحمد بن جعفر جَحْظَة، وأبي القاسم بن عقيل الورّاق صاحب ابن مُجاهد المقرىء وغيرهم. وروى عنه الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله البيّع الحافظ، وأبو عبدالرحمن محمد بن الحسين بن موسى السُّلَمي، وأبو بكر أحمد بن محمد ابن إبراهيم الصدفي المروزي، ومحمد بن العباس العصيمي الهروي، ومحبوب بن عبد الرحمن المحبوبي.

٩٤ ـ «السَّرقُسطي»[٢] **يوسُف بن عابسٍ المُعافري، من أهل سَرَقُسْطة، أبو عمر**. كان مشهوراً بالعلم والفضل مقدَّماً على أهل موضعه، عقلاً وفهماً وأدباً. رحل ولقي يحيى بن عمر وغيره. قال ابن الفرضي: ذكره ابن الحارث.

---

(١) لم أعثر على ترجمته.

(٢) انظر ترجمته في «أخبار الفقهاء» للخشني (٣٨٤).

ابن عبد الله

٩٥ ـ «ابن بندار الشافعي»[١] يوسف بن عبد الله بن بندار أبو المحاسن الدمشقي الشافعي. قدم بغداد في صباه، وتفقّه بها على أسعد المِيهني ولازمه، وبرع في المذهب والخلاف، وسار إلى خراسان، وتكلم بين يديه في المسائل. وكان حسن العبارة كثير المحفوظ مقتدراً على قهر الخصوم. وكان سليم الباطن متديِّناً حسن العشرة، درَّس مدةً بالمساجد ثم بعدّة مدارس وولي التدريس بالنظامية سنة خمس وأربعين وخمس مائة ثم عزل عنها بعد أيام ومُنع من الفتوى وألزم بيته، فلما فرغت مدرسة ثقةِ الدولة، بباب الأزج، جُعل فيها مدرساً، ثم أُعيد إلى النظامية فدرس بها إلى أن توفي رحمه الله سنة ثلاث وستين وخمسمائة. وكانت قد انتهت إليه رياسة أصحاب الشافعي. وسمع من أبي البركات هبة الله بن محمد بن علي البخاري، وأبي بكر محمد بن عبد الباقي البزّاز، وأبي منصور عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الواحد القزاز، وأبي سعد إسماعيل بن أبي صالح المؤذّن وغيرهم، وحدّث باليسير.

٩٦ ـ «الصّحابي المدنيّ»[٢] يوسف بن عبد الله بن سلام المدني، سمّاه رسولُ الله ﷺ، يوسفَ وأجلسه في حجره، وله رؤيةٌ ورواية. وله حديثان حُكمهما الإرسال. وروى عن عثمان وعلي وأبيه. وكنيته أبو يعقوب. ومن حديثه عن النبي ﷺ أنه قال: «رأيت رسول الله ﷺ أخذ كسرة من خبز شعير ووضع عليها تمرة وقال: هذه إدام ثم أكلها»[٣]. وتوفي في حدود المائة، وروى له الأربعة.

٩٧ ـ «أبو عمر بن عبد البر»[٤] يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم الإمام أبو عمر النَّمري القرطبي، العلم المشهور محدث قرطبة. ولد يوم الجمعة والخطيب على المنبر لخمس بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وستين وثلاث مائة، وتوفي سنة ثلاث وستين وأربع مائة يوم الجمعة آخر يوم شهر ربيع الآخر.

كان في أوّل أمره ظاهريَّ المذهب، ثم رجع إلى القول بالقياس من غير تقليدِ أحد،

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٥١٣).

(٢) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٥٠٩).

(٣) لم أعثر عليه.

(٤) انظر ترجمته في «بغية الملتمس» (٤٧٤)، و«وفيات الأعيان» (٢/ ٣٤٨)، و«آداب اللغة» (٣/ ٦٦)، و«الصلة (٦١٦)، و«معجم المطبوعات» (١٥٩)، و«جمهرة الأنساب» (٢٨٥)، و«تاريخ الإسلام» (٤٦١ـ ٤٧٠)، و«ترتيب المدارك» (٨/ ١٢٧)، و«نفح الطيب» (٤/ ٢٨).

إلاّ أنّه كان يميل إلى مذهب الشافعي.

وطَلَبَ وتفقَّه ولزم أبا عمر أحمد بن عبد الملك الإشبيلي الفقيه، ولزم ابن الفرضي وأخذ عنه كثيراً. وكان في المغرب مدة ثم إنّه تحوّل إلى شرق الأندلس وسكن دانية وبَلَنْسِية وشاطِبة وبها توفي رحمه الله تعالى.

وروى عن أبي القاسم خلف بن القاسم الحافظ، وعبد الوارث بن سفيان، وسعيد بن نصر، وأبي محمد بن عبد المؤمن، وأبي عمر الباجي، وأبي عمر الطَّلَمَنْكي، وأبي الوليد القرطبي وغيرهم. قال الشيخ شمس الدين: أشياخُه الذين روى عنهم لا يبلغون سبعين؛ وكتب إليه من أهل المشرق أبو القاسم السَّقطي، وعبد الغني [بن] سعيد الحافظ، وأبو ذرّ الهروي، وأبو محمد بن النحّاس المصريّ وغيرهم. وكان أبو الوليد الباجي يقول: «لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر بن عبد البر في الحديث»، وقال مرة: «أبو عمر أحفظ أهل المغرب». وقال ابن حزم في فضائل الأندلس وذكر «التمهيد»: «لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلاً فكيف أحسن منه». وتصانيفُه كلُّها جيدة منها: «كتاب الاستذكار» وهو مختصر كتاب التمهيد، «كتاب الكافي في فقه مالك» وهو خمسة عشر كتاباً يغني عن المصنّفات الطوال في معناه، و«كتاب الاستيعاب في ذكر الصحابة»، و«كتاب الاكتفاء في قراءة نافع»، و«كتاب بهجة المَجَالس وأُنس المُجالس»، و«كتاب جامع بيان العلم وفضله»، و«كتاب التقصّي لحديث الموطأ لمالك»، و«كتاب الإنباه عن قبائل الرواة»، و«كتاب الانتقاء لمذاهب الثلاثة العلماء مالك وأبي حنيفة والشافعي»، و«كتاب البيان في تلاوة القرآن»، و«الأجوبة الموعبة»، و«المعروفين بالكنى»، و«القصد والأمم في أنساب العرب والعجم وأول من نطق بالغريب من الأمم»، و«الشواهد في إثبات خبر الواحد»، و«الاكتفا في القراءات»، [و] «كتاب فرحة الأنفس في أخبار الأندلس»، و«الإنصاف فيما في اسم الله من الخلاف»، و«الفرائض» وأشياء غير ذلك من الكتب الصغار. وكان مُعاناً على التصنيف موفقاً فيه.

ومن شعره: [من الوافر]

أمنتحلَ النُّجوم أحلتُمونا ... على علم أدقّ من الهَبَاءِ

علومُ الأرضِ ما أحْكَمْتُموها ... فكيف بكم إلى عِلمِ السَّماءِ

قال الحميدي: وأنشدني له بعض أهل المغرب، ولم أسمع ذلك منه: [من الطويل]

ولابن مَعينٍ في الرِّجالِ مقالةٌ ... تَقَدَّمه فيها شَريكٌ ومالكُ

فإنْ يكُ ما قالاه سهلاً واسعاً ... فقد سُهِّلتْ لابن معينِ المسالِكُ

٩٨ ـ **«ابن خَيْرون»**[١] **يوسف بن عبد الله بن خَيْرون الأندلسي.** قال الحميدي: أديب نحوي مشهور، روى عن أحمد بن أبان بن سيد اللغوي، وروى عنه الفقيه أبو محمد غانم ابن الوليد بن عمر بن عبد الرحمن المخزومي النحوي المالقي، قاله أبو الحسن علي بن أحمد الجزيري، قال: وأخبرني من حدّث عنه.

٩٩ ـ **«ابن أبي زيد اللّري»**[٢] **يوسف بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن أبي زيد الأندلسي اللّري،** الأستاذ أبو عمر بن عيّاد. كان قد شرع في تذييل كتاب ابن بشكوال، وله كتاب «الكفاية في مراتب الرواية»، و«المرتضى في شرح المنتقى» لابن الجارود، و«ذو بهجة الألباب في شرح كتاب الشهاب»، و«الأربعون حديثاً في النَّشر وأهوال الحشر»، و«أربعون حديثاً في وظائف العبادة»، و«المنهج الرائق في الوثائق»، و«بهجة الحقائق في الزهد والرقائق»، و«طبقات الفقهاء» من عصر ابن عبد البر إلى عصره. توفي شهيداً ببلده عند كبسة العدو لها في سنة خمس وسبعين وخمس مائة.

١٠٠ ـ **«الزُّجاجي»**[٣] **يوسف بن عبد الله الزُّجَاجي، أبو القاسم، أحدُ أهلِ البلاغة والبراعة واللّغة والنحو والدراية.** قال ياقوت: أظنه طبرياً، وزمنه مقارن لزمن الصَّاحب بن عباد، وله تصانيف منها كتاب «شرح فصيح ثعلب»، كتاب «عُمدة الكتَّاب»، كتاب «اشتقاق أسماء الرياحين»، كتاب «مسائل الخلاف في فعلت وأفعلت»، و«مسألة الدّيات»، صنَّفها لقابوس بن وشمكير، كتاب «اشتقاق كلمات من أوّل كتاب غريب المصنف»، كتاب «خلق الإنسان والفرس»؛ قال ياقوت: ورأيت خطَّه على عدّةِ كُتُبٍ من كتبه، وقد قرأت عليه في سنة تسع وأربع مائة.

١٠١ ـ **«الهادي العُبَيْدي»**[٤] **يوسف بن عبد الله بن يوسف الهادي بن العاضد بن الحافظ بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم العبيدي.** زعم أنّ أُمّه خرجت به حاملاً من قصر العاضد بالقاهرة وولدته بالمغرب الأقصى، فنشأ بين البربر وأحكم لسانَهم. وقرأ بمراكش وتأدّب، وكان يكتم نسبه خوفاً من بني عبد المؤمن، ثمّ إنّه خرج إلى جهة فاس، وجعل يُكْثر الصلواتِ في الأماكن المقصودة حتى اشتهر عند الناس صلاحُه، وشاع بينهم أنّه يطوي

---

(١) انظر ترجمته في «بغية الوعاة» (٢/ ٣٥٧)، و«توضيح المشتبه» (١/ ١٢٦) و«إنباه الرواة» (٤/ ٦٥).

(٢) انظر ترجمته في «مرآة الجنان» (٣/ ٤٠٢)، و«التكملة» (٧٣٤)، و«غاية النهاية» (٢/ ٣٩٧)، و«شذرات الذهب» (٤/ ٢٥٤).

(٣) انظر ترجمته في «تاريخ جرجان» (٤٥٤) و«بغية الوعاة» (٤٢٢)، و«الفهرس التمهيدي» (٢٥٠)، و«إرشاد الأريب» (٧/ ٣٠٨).

(٤) انظر ترجمته في «البيان المغرب» (٢٤٣).

الليلَ والنهارَ صوماً لأنه لم يُرَ يوماً أنّه أكل، ثم إنّه جعل بيتَ دعوته في البرابر، وأظهر نسبه واشتهر بالمغرب فصار يعرف بالعُبَيْدي، وسلك منهج المهدي الإدريسي، وجعل له عشرةً كعشرة الصَّحابة يعتمد عليهم وهم خاصيّته. وحروب العبيدي بالمغرب مشهورة، وآل أمره إلى أن حصر مدينة فاس، وكسر جموعهم مرةً بعد مرة، وكاد يأخذ البلد، فقال ابن جامع وزير ناصر بني عبد المؤمن ليس الرأي أنْ نجهِّز إلى هذا الرجل جيشاً بعد جيش يكسر بعضهم وربما لا يكسرونه، ولكنَّ الرأيَ أنْ نُسَيِّرَ إلى العشرة الذين اختصَّهم من أصحابه عشرةَ آلاف دينار فإنّهم يأتوننا برأسه، فعندما وصل المال إلى أولئك القوم قبضوا عليه وجاؤوا به إلى مدينة فاس أسيراً، فقال أبياته المشهورة: [من الطويل]

لحى الله قوماً ضَيّعوني بعدما ... بدا لهم برقٌ من المالِ خُلَّبُ
ولو أنهم أبقَوْا حُشاشةَ مهجتي ... لكان لهم فوق الذي فيه رُغِّبوا
ولا شُهروا بالغدر في كلِّ موضعٍ ... وسارت بهم أمثالُهم وهي تضرب

ومن شعره قبل خروجه: [من الخفيف]

إنْ تركنا الورى وما هُمْ عليه ... تركونا أحْلاسَ ذلٍ وفقر
أو دعت حاجةُ السُّؤال إليهم ... نهرونا عن كلِّ نَهرٍ وبحر
فلهذا نخُوضُ في الموت خوضاً ... نحو نَيْلِ المُنى ورِفْعَةِ قَدْرِ

وكان شهماً قويَّ النفس، لمّا أحضره القانصون له بين يدي ملك فاس إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن قام إليه شاهراً سيفه ليضرب عنقه، فقال له الهادي: إليك عني لا تُدنِ ثوبَك من ثوبي فإنك نجس، بل افعل من بعيد ما شئت؛ فضربه ضربةً أبان بها رأسه.

١٠٢ ـ «ابن موهب الأندلسي»[(١)] يوسف بن عبد الله بن يوسف بن أيوب بن موهب، أبو الحجاج الفهري الأندلسي الداني وقيل الشاطبي، نزيل بَلَنْسية. كان إماماً في معرفة الشروط، كاتباً بليغاً، شاعراً، كتب للقضاة وناب للحكّام. توفي سنة اثنتين وتسعين وخمس مائة.

ومن شعره: [من الطويل]

أبى الله إلاّ أنّ أفارقَ منزلاً ... يطالعني وجهُ المنى فيه سافرا
كأنَّ على الأقدار أنْ لا أحلّه ... يميناً فما أغشاه إلاّ مسافرا

(١) انظر ترجمته في «التكملة لوفيات النقلة» (١/ ٢٦٢)، و«غاية النهاية» (٢/ ٣٩٧).

وأنشده الرصافي في صِفَةِ فتىً نهد إلى الحرب وفي يده حراب قد قبض عليها وفي الأخرى دَرَقَة: [من البسيط]

يسعى وصعبٌ من الأرماح في يده لِوُقودِ حرب محتطبُ
بحيث للمْطِ آذانٌ مُصَمَّخةٌ تصادقُ الطَّعْنَ في آذانها كَذِبُ

فقال الفهري في ذلك: [من البسيط]

يسعى نحو نارِ الحرب تحملُ كفُّهُ من الذابلات السُّمْر ضِغثاً كحاطبِ
بحيثُ ارتدى في مسمعِ اللَّمْطِ حيةً يرى الطعن فيها صادقاً مثْلَ كاذِبِ

١٠٣ ـ **«ابن شُكر المالكي»**[١] **يوسف بن عبد الله بن علي بن الحسين، هو ابن الوزير صفي الدين بن شُكر الدميري المالكي**، تقدم ذكر والده في مكانه، وتفقّه ولدُه هذا وبرع في الأدب ودرَّس بمدرسة الصّاحب والدِه. وتوفي سنة اثنتين وثلاثين وست مائة.

١٠٤ ـ **«قاضي القضاة جمال الدين الزّوَاوي المالكي»**[٢] **يوسف بن عبد الله بن عمر، قاضي القضاة جمال الدين أبو يعقوب الزواوي المالكي، وهو بكنيته أشهر**. ولي القضاء بعد ابن عمه الشيخ زين الدين الزواوي. وتوفي رحمه الله بطريق الحج هو ونجم الدين البادراني وبقي القضاء بعده شاغراً ثلاث سنين ووفاته في سنة ثلاث وثمانين وست مائة.

١٠٥ ـ **«بدر الدين الأذْرعي الحنفيّ»**[٣] **يوسف بن عبد الله بن محمد بن عطاء بن حسن بدر الدين، أبو المحاسن العدل ابن قاضي القضاة شمس الدين الأذرعي الحنفي الصالحي.** كان فقيهاً فاضلاً مهيباً، ولد سنة تسع عشرة وست مائة. وسمع من ابن الزبيدي، وجمال الدين الحصيري، وحدّث عنه ابن الخباز. وتوفي سنة ست وتسعين وست مائة، رحمه الله تعالى.

١٠٦ ـ **«جلال الدين النابلسي الشافعي»**[٤] **يوسف بن أبي عبد الله بن يوسف بن سعد، جلال الدين أبو المحاسن النابلسي الدمشقي الشافعي**. قاضٍ مُفْتٍ، ولد قبل الأربعين وست مائة، وتوفي في حدود عشر وسبع مائة. وسمع من عمّه خالد الحافظ، ومجد الدين الإسفراييني، والمرسي، وشيخ الشيوخ، وطائفة. وأَمَّ بالشامية وأعاد بها، وعُرِف بجَوْدَةِ

(١) انظر ترجمته في «تاريخ الإسلام» (٦٣١ـ ٦٤٠).
(٢) انظر ترجمته في «شذرات الذهب» (٥/ ٣٧٤).
(٣) انظر ترجمته في «تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٤٨١)، و«الجواهر المضية» (٢/ ٢٢٨)، و«الفوائد البهيَّة» (٢٢٨).
(٤) انظره في «أعيان العصر» (٣/ ٣٥٤).

النَّقلِ، وولي قضاء بعلبك، ثم نابلس ثم إنّه عاد إلى بعلبك، وكان دَيِّناً حميدَ الأحكام. حدّث بدمشق وبعلبك.

١٠٧ - «جمال الدين النيني»(١) **يوسف بن عبد الله بن عبد الله الفقيه الفاضل جمال الدين النيني الشافعي**؛ أوّلُ ما عَرَفتُ من حاله أنّه أتى من قرية نين إلى صفد، فقرأ بها «المنهاج» وحفظه، وقرأ «المختصر» لابن الحاجب، وكان يقرأ الحديثَ بالجامع الظاهري وبغيره، ويؤمّ بمسجد [. . .]. كان شكلاً طوالاً، طيِّبَ النَّغمة، ذكياً قادراً على الحفظ، وأقام بصفد قليلاً ثم إنّه توجه إلى طرابلس لمعرفةٍ كانت بينه وبين قاضيها القاضي حسام الدين العربي في صفد، وأقام بها وأثرى وحسُنَتْ حالُه، وشاع أنّه حصَّل دُنيا واسعة، وسألت ولدَه عن ذلك، فأقسم بالله بأنّه ما ترك درهماً ولا ديناراً، وكان لم يخلِّف غير ثيابِ بدنه، ومجلدات تركها لا غير. وكان قد حجّ في سنة خمس وخمسين وسبع مائة. وتوفي - رحمه الله تعالى - في رابع ربيع الأول سنة سبع وخمسين وسبع مائة، ووصّى أن لا يُباع شيءٌ من قماشه، ولا من كتبه بطرابلس، فتوجّه ابنه بثيابِه إلى حماه وباعها هناك وأحضر كتبه إلى دمشق، ولم تكن بطائل عتيقة. وتوفي، رحمه الله تعالى، وقد تجاوز الستين.

ابن عبد الرحمٰن

١٠٨ - «أمير الأندلس»(٢) **يوسف بن عبد الرحمٰن بن أبي عبيدة، أمير الأندلس**. هزمه عبد الرحمٰن بن معاوية الداخل إلى الأندلس وتغلب عليها. توفي إلى رحمة الله تعالى، يوسف هذا في حدود الأربعين والمائة.

١٠٩ - «محيي الدين بن الجوزي»(٣) **يوسف بن عبد الرحمٰن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي، هو الصَّاحب العلامة محيي الدين أبو المحاسن ابن الإمام جمال الدين الواعظ البغدادي الحنبلي، أُستاذ دار أمير المؤمنين المستعصم. ولد سنة ثمانين وخمس مائة، وتوفي سنة ستٍ وخمسين وست مائة.**

تفقّه وسمع الكثير، وكان إماماً كبيراً، وصدراً معظَّماً، عارفاً بالمذهب كثيرَ المحفوظ، حسن المشاركة في العلوم، مليحَ الوعظ، حلو العبارة، ذا سمت ووقار وجلالة وحرمة

---

(١) لم أعثر على ترجمته.

(٢) انظر ترجمته في «تاريخ الإسلام» (١٢١- ١٤٠هـ)، و«الكامل» لابن الأثير (٥/ ٣٧٥).

(٣) انظر ترجمته في «تاريخ الإسلام» و«شذرات الذهب» (٥/ ٢٨٦)، و«ذيل طبقات الحنابلة» (٢/ ٢٥٨)، و«البداية والنهاية» (١٣/ ٢٠٣)، و«ذيل مرآة الزمان» (١/ ٣٣٢)، و«الدارس» (٢/ ٦٢).

وافرة. درس وأفْتى وصنَّف، وروسل به إلى الأطراف، ورأى من العزّ والإكرام والاحترام من الملوك شيئاً كثيراً، وكان محمودَ السيرة، محبّباً إلى الرعية، ولي الأستاذ دارية بضعَ عشرة سنة.

قال الدمياطي: قرأت عليه كتاب «الوفا في فضائل المصطفى» لأبيه، وغيرَه؛ وأنشدني لنفسه وأجاز لي بجائزةٍ جليلة من الذَّهب.

قال الشيخ شمس الدين: ضُرِبَتْ عنقُه بمخيم التتار هو وأولاده تاج الدين عبد الكريم، وجمال الدين المحبّ، وشرف الدين عبد الله في شهر صفر من السنة المذكورة.

وكان قد شهد عند قاضي القضاة ابن الدّامغاني فقبله، وولاه الحسبة بمدينة السَّلام والنظرَ في الوقف العام، ثم عُزِل عن الحسبة وعُزِل عن نظر الوقف، ومُنع من الجلوس بباب التُّربة وباب بدر، ولزم منزلهِ إلى أنْ أعيدَ إلى الحسبة، وأذن له في الدخول على الأمير أبي نصر بن الناصر وسماع «مسند الإمام أحمد بن حنبل» مع الجماعة فحصل له الأنس. فلما توفي الإمام الناصر أُمِرَ ابن الجوزي بغسله فغسله، ثم إنّ الإمامَ الظاهر أرسله إلى مصر لإفاضة الخلع على الملك الكامل فوصلها، وعاد وقد توفي الإمامُ الظاهر وقام مكانه ولدُه الإمام المستنصر، فأرسله مرّاتٍ إلى الشام وإلى مصر وإلى بلاد الروم وشيراز، وحصلت له النِّعمة الطائلة والمكانة عند الملوك. ولمّا فرغت المدرسة المستنصرية جُعِلَ بها مدرّساً للحنابلة، وكان إذا سافر استناب ولده في التدريس والحسبة، وترك الوعظ ولم يعقد مجلساً بعد ذلك.

وتوفي والدُه وله سبع عشرة سنة، فأُذن له بالجلوس للوعظ على عادة أبيه بباب تربة الجَهة أمِّ الإمام الناصر، وخُلِع عليه القميص والعمامة وجُعل على رأسه طرحة، وحضر يوم الجمعة في حلقة والده بجامع القصر وعنده الفقهاء للمناظرة، ونودي له في الجامع بالجلوس فحضره الخلائق وتكلّم فأجاد، ثم إنّه أذن له في الجلوس بباب بدر الشريف في بكرة كلّ يوم ثلاثاء، فبقي على ذلك مدّة يُنْشدُ في كلّ مجلسٍ قصيدةً من شعره يمدح بها الإمام.

ولمّا أقام عسكرُ الشّام في أيّام الناصر بن العزيز مجرداً على تلّ العجول قبالة عسكر مصر، وتجاوزت مدَّةُ إقامتِهم السّنة، وأشاعوا أنّ الباذرائي رسولَ الخليفة واصلٌ ليصلح بين الفريقين، فأبطأ وكثُرت الأقاويل في ذلك، فقال شهاب الدين غازي بن إياز، المعروف بابن المعْمار أحد المفاردة المجرّدين صحبة الأمير جمال الدين موسى بن يغمور حاجباً، هذين البيتين: [من الوافر]

يُـــذكّـــرنـــا زمـــانُ الـــزُّهـــد ذكـــرى زمـــان الـــلـــهـــو فـــي تـــلِّ الـــعـــجـــولِ

ونطلبُ مُسلماً يروي حديثاً صحيحاً من أحاديث الرسولِ

واختلفتِ الأقاويلُ بمصر، فقيل إنّ محيي الدين يوسف بن الجوزي يصل رسولاً من الخليفة، وتأخّر حضورُه فقال صلاح الدين الإربليّ: [من الكامل]

قالوا الرَّسول أتى وقالوا إنّه ما رام يوماً عن دمشق نزوحاً

ذهب الزّمانُ وما ظفرت بمسلم يروي الحديثَ عن الرسول صحيحاً

ولمّا وصل محيي الدين المذكور إلى حلب رسولاً من أمير المؤمنين المستنصر سنة أربع وثلاثين وست مائة، وصاحبُها الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي، توفي العزيز رحمه الله في شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، ثم توجّه إلى الروم رسولاً فمات الملك علاي الدين كَيْقُباد في شوّال من السنة، ثم توجه رسولاً إلى الأشراف موسى بن العادل صاحب دمشق، وأخيه الكامل محمد بن العادل صاحب مصر، فتوفي الأشرف في المحرم سنة خمس وثلاثين، وتوفي الكامل في شهر رجب من السنة وكلاهما مات بدمشق، فنظم أبو القاسم محمود بن الأرشد في ذلك: [من الخفيف]

دعوةٌ يا خليفةَ الله لا انجا ب عن الخلق منك ظلٌ ظليلُ

يا إمامَ الهدى أبا جعفر المنـ ـصور يا من له الفخار الأثيلُ

ما جرى من رسولِك الشيخِ محيي الـ ـدين في هذه البلاد قليلُ

جاء والأرضُ بالسلاطين تزهى فغدا والقصورُ منهم طلول

أقفر الرّوم والشآم ومصر أفهذا مُغسِّلٌ أوْ رسولُ؟

١١٠ ـ «المِزّي الحافظ»[(١)] **يوسف بن الزّكي عبد الرحمن بن يوسف بن علي بن عبد الملك بن أبي الزهر**، الشيخُ الإمام العلاّمة حافظ العصر ومحدِّث الشّام ومصرَ، جمال الدين أبو الحجاج القُضاعي الكلبي المِزي، الحلبي المولد. خاتمةُ الحفّاظ، ناقدُ الأسانيد والألفاظ؛ مولدُه بظاهر حلب في عاشر شهر ربيع الآخر سنة أربع وخمسين وست مائة، وطلب الحديث في أوّل سنة خمس وسبعين، وهلمَّ جراً، وإلى آخر وقت لا يفتر ولا يُقصِّر عن الطّلب والاجتهاد والرِّواية. توفي في ثاني عشر صفر سنة اثنتين وأربعين وسبع مائة، ودفن بمقابر الصوفية من الغد.

---

(١) انظر ترجمته في «طبقات الشافعية» و«القلائد الجوهرية» (٣٢٩)، و«تذكرة الحفاظ» (٤/ ١٤٩٩)، و«مفتاح السعادة» (٢/ ٢٢٤)، و«الفهرس التمهيدي» (٣٧١)، و«مفتاح الكنوز» (١/ ٤١)، و«الدرر الكامنة» (٥/ ٢٣٣)، و«شذرات الذهب» (٦/ ١٣٦)، و«فهرس الفهارس» (١/ ١٠٧).

سمع من أصحاب ابن طَبَرْزد والكِنْدي وابن الحَرَسْتاني وحنبل ثم ابن ملاعب، والرُّهاوي، وابن البنّا، ثم ابن أبي لُقْمة، وابن البُن، وابن مُكْرم، والقزويني، ثم ابن اللتّي، وابن صَبَّاح، وابن الزبيدي وأعلاماً. سمع بإجازة عن ابن كليب وابن بَوْش والجمال وخليل ابن بدر والأبوصيري وأمثالهم، ثم المؤيّد الطوسي، وزاهر الثقفي، وعبد المعز الهروي. وسمع الكتب الأمّهات المسندة، و«الكتب الستّة»، و«المعجم الكبير»، و«تاريخ الخطيب»، و«النّسب للزُبَيْر»، و«السِّيرة»، و«الموطأ» من طُرُق، و«الزهد»، و«المستخرج على مُسْلم»، ، و«الحلية»، و«السنن» للبيهقي، و«دلائل النبوة»، وأشياء يطولُ ذكرُها، ومن الأجزاء ألوفاً؛ ومشيخته نحو الألف. سمع أبا العباس ابن سلامة، وابن أبي عمر، وابن علان والشيخ محيي الدين النووي، والزواوي، والكمال عبد الرحيم، والعزّ الحرّاني، وابن الدَّرَجي، والقاسم الإربلي، وابن الصابوني، والرشيد العامري، ومحمد بن القواس، والفخر بن البُخاري، وزينب، وابن شيبان، ومحمد بن محمد بن مَناقب، وإسماعيل بن العسقلاني، والمجد بن الخليلي، والعماد بن الشيرازي والمحيي بن عصرون، وأبا بكر بن الأنماطي، والصّفي خليلاً، وغازياً الحلاوي، والقطب بن القسطلاني وطبقتهم، والدِّمياطي شرف الدين، والفاروثي، واليونيني، وابن بَلْبان، والشّريشي، وابن دقيق العيد، والظاهري، والتَّقي الأسْعردي وطبقتهم، وتنازل إلى طبقة سعد الدين الحارثي، وابن نَفيس، وابن تيمية؛ ولم يتهيّأ له السماع من ابن عبد الدائم، ولا الكِرْماني، ولا ابن أبي السر ونحوهم، ولا أجازوا له مع إمكان أنْ تكونَ له إجازةُ المرسي، والمُنْذري، وخطيب مردا، واليَلْداني وتلك الحلبة.

وحفظ القرآن وعني باللّغة فبرع فيها ولم أرَ فيها مثلَه ومثلَ الشيخ أثير الدين، وأتقن النّحو والتَّصريف. ولمّا ولي دار الحديث الأشرفية تمذهب للشّافعي وأشهد عليه بذلك. وذلك في ثالث عشرين ذي الحجة سنة ثماني عشرة وسبع مائة وفي هذا النهار ذكر الدرس بالأشرفية. وكان فيه حياء وسكينة وحلم واحتمال وقناعة واطّراحُ تكلُّفٍ وتركُ التجمّل والتودّد والانجماع عن الناس وقلّة كلام إلاّ أن يسأل فيجيب ويجيد، وكلّما طالت مجالسةُ الطّالبِ له ظَهَرَ له فضلُه، لا يتكثّر بفضائله، كثيرَ السكوت لا يغتابُ أحداً؛ قرأت عليه «خُطَبَ ابن نباتة»، و«أربعين النواوي» وغير ذلك، وسمعت عليه كثيراً، وسمع شيئاً من شِعري بدار الحديث. وكان معتدل القامة مشرباً بحمرة، قويَّ التركيب، مُتّع بحواسه وذهنه، وكان قنوعاً غيرَ متأنّقٍ في ملبس أو مأكل أو مركب أو نعل، يصعد إلى الصالحية وغيرها ماشياً وهو في عشر التسعين؛ وكان رَيِّضَ الأخلاق، يستحمُّ بالماء البارد في الشيخوخة، إلاّ أنه كان قد امتُحِن بالمطالب وتتبُّعها فيعثر به من الشياطين فيأكلون ما معه ولا يزال في فقر

لأجل ذلك.

وأمّا معرفةُ الرِّجال فإليه تُشَدُّ الرِّحال، فإنّه كان الغايةَ وحاملَ الراية؛ لما ولي دار الحديث قال الشيخ تقي الدين بن تيمية: لم يلِ هذه المدرسة من حين بنائها وإلى الآن أحقُّ بشرط الواقف منه؛ وقد وليها جماعة كبار مثل ابن الصلاح، ومحيي الدين، وابن الزبيدي لأنَّ الواقف قال: «فإن اجتمع من فيه الرِّواية ومن فيه الدراية قُدِّم من فيه الرواية». ولقد سمعنا «صحيح مسلم» على البَنْدنيجي وهو حاضر، رحمه الله، وابن طُغريل يقرأ وعدَّةُ نسخ صحيحةٍ يقابل بها، فيردُّ الشيخُ جمال الدين عليه اللّفظ، فيقول ابن طُغريل: «ما في النُّسخة إلاّ كما قرأت»، فيقول من في يده بعضُ تلك النسخ الصّحيحة: «هو عنديي كما قال الشيخ، أو هو مظفّر عليه أو مُضببٌ، أو في الحاشية تصحيح ذلك»، ولمّا كثر ذلك قلت له: «ما النُّسخة الصحيحة إلاّ أنت». قال الشيخ شمس الدين: لم أرَ أحفظَ منه، ولا رأى هو مثل رأي نفسه، وقال: لم أرَ أحفظَ من الدّمياطي. قال الشيخ شمس الدين: لم يسألني ابن دقيق العيد إلاّ عنه؛ وكان قد اغترّ في شبيبته وصحب عفيف الدين التلمساني فلمّا تبيّن له ضلالُه هجره وتبرّأ منه؛ قال الشيخ شمس الدين: وكان يترخّص في الأداء من غير أصول ويصلح كثيراً من حفظه ويتسامح في دمج القارئين ولغط السامعين ويتوسّع فكأنه يرى أن العمدة على إجازة المسمع للجماعة وله في ذلك مذاهب عجيبة؛ وكان يتمثّل بقول ابن مَنْدَه: «يكفيك من الحديث شمُّه». صنّف كتابَ «تهذيب الكمال» في أربعة عشر مجلداً كشف به الكتب المتقدّمة في هذا الشأن، وسارت به الركبان واشتهر في حياته؛ وألّف «كتاب الأطراف للكتب الستة» في ستة أسفار وخرّج لجماعة. قال الشيخ شمس الدين: ولا علمته خرّج لنفسه لا عوالي ولا موافقات ولا معجماً، وكلَّ وقتٍ ألومه في ذلك فيسكت. وقد حدّث بـ «تهذيبه» الذي اختصره الشيخ شمس الدين خمسَ مرّاتٍ، وحدّث بـ «الصحيحين» مرات، وبـ «المسند»، وبـ «معجم الطبراني»، وبـ «دلائل النبوة»، وبكتب جمّة، وحدّث بسائر أجزائه العالية وبكثير من النازلة؛ ومَعَ إتقانه لأسماء الرجال، وله فيها هذا التصنيف العظيم، لم يكن يعتني بتراجم العلماء من الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء والقضاة والعلماء والقرّاء والأطباء والشُّعراء، ولا له فيها مشاركة ألبتّة، وإنّما كان يعتني برجال الحديث لا غير؛ ولقد سألته عن القالي ـ بالقاف ـ والفالي ـ بالفاء ـ فقال لا أعرف إلاّ الفالي ـ بالفاء ـ فعلمت أنه ليس له عناية بغير الرواة للحدين وإلا فأبو علي القالي ـ بالقاف ـ مشهور بين الأدباء معروف لا يكاد يجهله أحد من صغار الأدباء، ولكن عندي منه فوائد وقواعد في أسماء رجال الحديث لم أجدها ولم آخذها عن غيره. وكان أسماءُ الرواة الذين يجيئون في سماعاته وطرقه يُجِيدُ الكلام في طبقاتهم وأحوالهم وقوّتهم ولينهم، وهذا بحر لا يُشَقُّ ثَبَجُه وغبارٌ لا

انحطاط لقُتامه. ولم أر بعد الشيخ فتح الدين من يحكم بدقيق الأجزاء وترميمها مثل الشيخ جمال الدين، رحمه الله، ولم يستعر مني شيئاً وأعاده إلاّ وقد نبّه فيه على نكتةٍ كنت محتاجاً إليها، حتى في إجازة الشيخ فتح الدين لي. وقد حجّ وسمع بالحرمين والقدس ودمشق ومصر وحلب وحماه وحمص وبعلبك والإسكندرية وبلبيس وقطيا وغير ذلك. وأوذي مرّة واختفى مدّةً من أجل سماعه «لتاريخ» الخطيب؛ وأوذي مرة أخرى لقراءة شيء من كتاب «أفعال العباد» مما يتأوله الفضلاء المخالفون وحُبِس. ولمّا توفي ابن أبي الفتح حصل له من جهاته حلقة الحضر والحديث بالناصريّة فأضاء حاله واتّسع رزقه ثم ولي دار الحديث الأشرفية سنة ثماني عشرة وسبع مائة بعد ابن الشريشي، ثم فيما بعد ترك الحلقة وأخذت منه النّاصرية ثم نزل عن العزِّيَّة لصاحبه نجم الدين. قال الشيخ شمس الدين: وأعلى ما عنده مطلقاً «الغيلانيات»، و«جزء ابن عرفة»، و«ابن الفرات» بإجازة، سمع منه شمس الدين أربع وسبعين وأخذ عنه «صحيح البخاري» وغيره، واستملى منه قاضي القضاة تقي الدين أبو الحسن علي السبكي، وقاضي القضاة عز الدين بن جماعة، والشيخ فتح الدين بن سيد الناس، ومحب الدين، وأولاده، وشمس الدين السروجي، وابن الدّمياطي وابن عبد الهادي، وابنا السفاقسي، وتقي الدين بن رافع، وسبط التنسي وخلائق. وتخرّج به جماعة كالبرزالي والعلائي وابن كثير وابن عبد الهادي وابن العطار وابن الفخر وابن الجعبري وغيرهم. قال شمس الدين: قرأت بخط أبي الفتح الحافظ، قال: «ووجدت بدمشق الإمام المُقَدَّم والحافظ الذي فاق من تأخّر من أقرانه وتقدّم، أبا الحجاج المزي، بحر هذا العلم الزاخر، القائل من رآه كم ترك الأوائل للأواخر، أحفظ الناس للتراجم وأعلمهم بالرواة من أعارب وأعاجم، لا يخصُّ بمعرفته مصراً دون مصر، ولا ينفرد علمه بأهل عصر دون عصر، معتمداً آثار السلف الصالح، مجتهداً فيما نيط به في حفظ السنة من النصائح، معرضاً عن الدنيا وأشباهها مُقبلاً على طريقته التي أربى بها على أربابها، لا يبالي بما ناله من الأزْل، ولا يخلط جدّه بشيء من الهزل، وكان بما يصنعه بصيراً وبتحقيق ما يأتيه جديراً، وهو في اللغة إمام، وله بالقريض إلمام، وكنت أحرص على فوائده لأحرز منها ما أحرز وأستفيد من حديثه الذي إن طال لم يملل وإن أوجز وددت أنّه لم يوجز، وهو الذي حداني على رؤية الإمام شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية»، وسرد أبو الفتح فصلاً في تقريظ ابن تيمية.

١١١ - «أبو الحجاج الأقصُري»[١] **يوسف بن عبد الرحيم بن غزي القُرَشي**، الشيخُ العارف الزاهد أبو الحجاج الأقصُري، شيخ الزّمان وواحد الأوان، صاحب الكرامات

---

(١) انظر ترجمته في «الطالع السعيد» (٤١٦)، و«التاج» (٣/٤٩٩)، و«طبقات الشعراني» (١/١٥٧).

والمكاشفات المعروفة، أحدُ من ينتفع الناسُ ببركته وصالح دعواته. تاب على يديه جماعة كثيرون. أنشد كمال الدين جعفر الأدفوي فيَ ترجمته بعد تقريظه والثناء عليه: [من الطويل]

فَقُل لفتًى قد رام في العصرِ مثلَه يميناً بربِّ النّاس لست بواجدِ
ومن ذا يضاهي حُسْنَ يوسفَ في الورى ويُؤتى الذي قد نَاله من مَحَامِدِ

وكان لمّا تجرّد قد توجه إلى شيخه عبد الرزّاق، ثم عاد إلى وطنه وتخرّج عليه سادات: كالشيخ علي من الأفوا، والشيخ علي بن بدر، والشيخ شمّاس السفطي، والشيخ إبراهيم الغاوي، والبرهان الكبير، والبدر الدمشقي، والشيخ مفرّج ونظرائهم. وكان مشارف الديوان أولاً ثم تجرّد وصحب عبد الرزاق التينملي، تلميذ الشيخ أبي مدين.

وكانت كراماتُه كثيرةً، ولكنّ جهّال أتباعِه أطنبوا وزادوا فجعلوا له معراجاً ليلةَ نصف شعبان من كلِّ سنة، واتّخذوه في الصّعيد كلَّ سنة كالعيد تأتي إليه الخلائق من العوالي، ويبذل فيه العزيز الغالي، وتحضر الدفوف والشبّابات، ويختلط الرجال بالنسوان. وكان الشيخ، رضي الله عنه، مشهوراً بالعلم والرواية، وله كلام يشهد له بالمعرفة والدراية. توفي رضي الله عنه في شهر رجب سنة اثنتين وأربعين وست مائة، وقبره مشهور بالأقصر يزار من الأماكن البعيدة. قال الشيخ شمس الدين: ألّف مواقف «كمواقف النفّري». قال أبو عمر المرابطي: وفاته على لوح قبره سنة أربع.

١١٢ ـ «ابن الماجشون»[١] **يوسف بن عبد العزيز بن الماجشون،** تقدّم ذكر أبيه في حرف العين مكانه. قال الواقدي: المدني أبو سلمة مولى آل المنكدر التيمي. قال ابن معين: كنا نأتي يوسف بن الماجشون يحدّثنا وجواريه في بيت آخر يَضْرِبْن بالمعزفة. قال الشيخ شمس الدين: أهل المدينة معروفون بالرّخص في الغناء. وتوفي، رحمه الله تعالى، في سنة ثلاث وثمانين ومائة. وروى له الجماعة سوى أبي داود.

١١٣ ـ «اللَّخمي الميورقي»[٢] **يوسف بن عبد العزيز علي بن نادر، أبو الحجاج اللخمي الميورقي الفقيه.** سمع «صحيح مسلم» بمكة من الحسين الطبري، و«البخاري» من علي بن سليمان البغدادي النقّاش، وتفقّه ببغداد على الكيا الهرّاسي، واستوطن الإسكندرية،

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٣٣٠ـ ٣٣١)، «التاريخ الكبير» (٢/ ٣٨١)، «التاريخ الصغير» (٢/ ٢٣٥)، «المعارف» (٤٦٢)، «الجرح والتعديل» (٩/ ٢٣٤)، «مشاهير علماء الأمصار» (١١٠٤)، «تهذيب الكمال» (١٥٦٣)، «تذهيب التهذيب» (٤/ ١٩٢/ ٢)، «العبر» (١/ ٢٩٢)، «تهذيب التهذيب» (١١/ ٤٣٠)، «خلاصة تذهيب الكمال» (٤٤٠)، و«شذرات الذهب» (١/ ٣٠٩).

(٢) انظر ترجمته في «شذرات الذهب» (٤/ ٦٧)، و«مرآة الجنان» (٣/ ٢٣٠).

ودرس الفقه وروى «الصحيحين»، وكان عارفاً بالأصول، متفنّناً بارعاً، له «تعليقة في الخلاف» معروفة. قال ابن الأبّار: هو أحيى علم الحديث بالإسكندرية، وروى عنه السِّلَفي وغيره. وتوفي سنة ثلاث وعشرين وخمس مائة.

١١٤ ـ «ابن المرصَّص»[١] يوسف بن عبد العزيز بن شدَّاد الهمذاني المصري، علم الدين أبو المحاسن بن المرصَّص، توفي رحمه الله تعالى، بحماه وقيل بحلب ـ وهو الصحيح ـ سنة ثمان وثلاثين وست مائة. قال عماد الدين أبو الفتح عمر بن شعبان الحموي: دخلت على العَلم في مرض موته، فوجدته مسروراً فسألته عن حاله فقال: أنا اليوم طيِّب، فقلت: ما سببُ ذلك؟ فقال: تبرَّمت أمس من طول هذا المرض وشكوت إلى ربي ذلك، ونمت البارحةَ، فرأيت في منامي قائلاً يقول: ما تستحي تشكو وأنت القائل: [من الطويل]

إذا لَمْ تكُن تُنْهي إلى غيرك الشكوى ... فما ثَمَّ إلاّ الصبرُ فيك على البلوى

وإنّيَ إنْ أتلفتُ بالهجر مهجتي ... لأرضى الذي ترضى وأهوى الذي تهوى

ومات بعد ذلك بثلاثة أيام.

ومن شعره: [من الخفيف]

قَرُبَتْ دارُنا ولم يُفِدِ القُرْ ... ب اجتماعاً فلا أذمّ البعادا

كان ذاك البُعاد أروحَ للقلـ ... ـب لأنَّ الغرام بالقربِ زادا

١١٥ ـ «العلاّف»[٢] يوسف بن عبد الغالب بن هلال الإسكندراني العلاف. كان عاميّاً، ولكن له النظمُ الحلوُ. روى عنه الفضلاء وكتبوا شعره، توفي في بلده سنة عشرين وسبع مائة ومن شعره: [من الطويل]

وخضراء لا الحمراء تفعل فِعْلها ... لها وثباتٌ في الحشى وثباتُ

تؤجّج ناراً وهي في العين جنّة ... وتعطيك طعم المرّ وهي نباتُ

ومنه في حائك: [من المنسرح]

كم قلتُ للحائك الظريف وفي ... راحته طاقةٌ يُخلِّصُها

هل لك في ردِّ مهجةٍ لفتًى ... ليس له طاقة يخلِّصها

١١٦ ـ «ابن المُطَجِّن»[٣] يوسف بن عبد اللطيف بن يوسف، شرف الدين أبو الفضل

---

(١) انظر ترجمته في «قلائد الجمان» (١٠/ ٤٧٧)، و«الأعلام» للزركلي (٨/ ٢٣٨).
(٢) انظر ترجمته في «الدرر الكامنة» (٥/ ٢٣٧)، و«أعيان العصر» (٣/ ٣٥٩).
(٣) انظر ترجمته في «ذيل مرآة الزمان» (٢/ ١٨٠).

ابن الحكيم موفّق الدين، البغدادي الأصل المِصْري الوفاة. سمع أباه وابن اللّتي، وحدّث بالقاهرة وكان متوسِّط الفضيلة، وتوفي سنة ستين وست مائة، تغمّده الله رحمته.

١١٧ ـ «تقيّ الدين المقدسي الحنبلي»[١] **يوسف بن عبد المنعم بن نعمة بن سرور بن رافع بن حسن، الفقيه تقي الدين أبو عبد الله المقدسي النابلسي الحنبلي.** سمع وتفقّه على الشيخ الموفّق، وكتب الخطَّ المنسوب. وكان إمام الجامع الغربي بنابلس، وفيه دين وخير وعبادة. كتب عنه الحافظ ابن الحاجب وغيره. وتوفي، رحمه الله تعالى، سنة ثمان وثلاثين وست مائة.

١١٨ ـ «أمير المسلمين صاحب المغرب»[٢] **يوسف بن عبد المؤمن بن علي السلطان أمير المسلمين صاحب المغرب أبو يعقوب،** كان أصغر إخوته سناً ولكن قدّمته النجابةُ والسعادة؛ وكان وليَّ عهد عبد المؤمن ولدُه محمد الأكبر، لكن اجتمع بنو عبد المؤمن بعد موت أبيهم فمال ولده علي إلى الوفاء بعهد محمد ومال أبو حفص عمر إلى مبايعة يوسف وقال: إن محمداً ضعيف لا يقوم بالأمر، فتشاجرا حتى آل الأمر إلى أن تضاربا، فضرب أبو حفص أخاه علياً في حلقة بمقصّ كان في يده وصاح بغلمانه وعبيده وكان قد أعدَّهم لذلك فقتلوا علياً في المجلس، وكتم موت عبد المؤمن وسلَّم محمدٌ الأمرَ إلى يوسفَ وقال: «إنما أريد الخلافة لأصون بها روحي فإذا كان فيها إتلاف الأرواح فلا حاجة لي بها» وأقبل على خلواته. وانفرد يوسف بتدبير الأمور، واعتدّت الأيام فأظهر خلافته وموت أبيه وخطب لنفسه وتحبّب إلى الناس بحسن السيرة. وجاءت سنةٌ ذاتُ وباءٍ فمات فيها محمد وليَّ عهد عبد المؤمن وأخوه أبو حفص قاتل علي، ومات عثمان أخوهم أيضاً.

وكان جليلَ القدر مَخوفَ الجانب، وكان عبد الله بن عبد المؤمن صاحب الغرب الأوسط عظيماً وبيده الجيوش والأموال فتوصّل إلى أن أهدى إلى عبد الله جارية ذات جمال ومعها خرقةٌ مسمومة، فسمّته بها عند الفراغ من الجماع، فمات عبد الله واستبدّ يوسف بالأمر وأمن المنازع. وعبر إلى الأندلس بنفسه في مائة ألف فارس فأحسن ابن مردنيش الغلبة فاشتدّ مرضُه ومات. ووالى يوسف مُواقَعَةَ الكفَّار وحصر مدنهم، وفتح معاقلهم واستولى على جملة منها. وسار إلى أقصى إفريقية وفتح قَفصَة ـ وهذا المقدار مسيرة ثلاثة أشهر ـ ثم عاد إلى الأندلس غازياً وقصد شَنْتَرين فحصرها شهراً، فأصابه بها مرض قضى

---

(١) انظر ترجمته في «تاريخ الإسلام» (٦٣١ـ ٦٤٠)، و«شذرات الذهب» (٥/ ٢٠٢).

(٢) انظر ترجمته في «الاستقصا» (١/ ١٥٩)، «الكامل» لابن الأثير (١١/ ٢٩١)، و«نفح الطيب» (٤/ ٣٧٨).

عليه، ومات ـ رحمه الله تعالى ـ في شهر ربيع الأول سنة ثمانين وخمس مائة. وكانت مدته اثنتين وعشرين سنة وأشهراً. وكان حسن الصورة لطيف الأخلاق، غير أنّه أفرط في محاسبة العمال وقبض يده، وكان يقال عنه إنّه جمّاع منّاع، وكان بليغاً شاعراً فمن كلامه قوله لبعض حاشيته: «إنا جرّبناك فوجدناك كالذهب الإبريز ما أُحرق بالنار زاد طيباً، فوالله لأملأنَّ عينَك قُرةً، وقلبَك مسرّة». ولما ثارت عليه قبائل غُماره أمر أحد كتّابه أن يكتبَ لهم بالترغيب والترهيب، فلما كتب الكاتب الكتابَ زاد فيه يوسف بخطه: «أنتم أيّها الفرقة الناشزون بين أمرين: إمّا أنّ تكونوا عند الموحّدين بمنزلة الضيوف، وإمّا أنْ تستمرّوا على غيِّكم وما زرعه فيكم شياطينكم فتحصدكم السيوف».

وقد وصفه الشقندي في كتاب «ظرف الظرفاء»، بالشعر والأدب وعلم المنطق، وأنشد له هذه الأبيات وهي التي قالها في مخاطبة أولاد ابن مردنيش لما كتبوا إليه يعلمونه بموت أبيهم ويظهرون الطاعة له والانقياد ويرغبون في الوصول إليه وتقبيل يديه: [من الطويل]

لقاؤكُم بالرَّحْبِ والمنزل السَّهْل ... ومثواكُمُ كالروضِ يرتاحُ للطلِ

وأثرتكم زادت على كل أثرةٍ ... وأنتم لها أهل فبورك من أهلِ

هلموا إلى ما اعتدتُمُ من كرامةٍ ... وحفظٍ مدى الأيام في النَّفْس والأهل

وقد وجدت أنا له في بعض تعاليقي: [من الوافر]

همو نظروا لواحظَها فهاموا ... وتشربُ عقلَ شاربها المدامُ

يخافُ النّاسُ مقلتَها سواها ... أَيُذْعِر قلبَ حامله الحسامُ

سمى طرفي إليها وهو باكٍ ... وتحت الشمس ينسكبُ الغمام

وأذكُرُ قدَّها فأنوحُ وجداً ... على الأغصان ينتحبُ الحمام

وأَعْقَبَ بينُها في الصَّدْرِ غمّاً ... إذا غَرَبَتْ ذكاءُ أتى الظلام

قلت: شعر جيد في الذروة.

١١٩ ـ «ابن عُتْبة الطبيب»(١) **يوسف بن عُتْبة الإشبيلي، أبو الحجّاج الأديب الشّاعر الطبيب.** له مصنّفات في الأدب وله شعر وموشحات. وكان ضنيناً بنفسه، وتوفي ـ رحمه الله ـ بالقاهرة سنة ست وثلاثين وست مائة. قدم القاهرة فلم يقبل عليه إلاّ ابنُ يغمور، فصيّره مع أطباء البيمارستان وصار يأنس به في بعض الأوقات، فسأله يوماً عن بلاده فقال: فارقتُ

(١) انظر ترجمته في «نفح الطيب» (٢/ ١١١).

الأندلسَ وهي مضطربة بدولة ابن هود، ومع هذا فأشتهي أعود إلى بلادي لما أشاهده من أشعار النصارى بهذه البلاد ثم أنشد: [من مخلع البسيط]

أصبحتُ في مصرَ مُستضاماً أرقصُ في دولة القرودِ
واضَيْعَةَ العُمر في أخير مع النصارى أو اليهود
بالجَدِّ رزقُ الأنام فيهم لا بذواتٍ ولا جُدود
لا تبصُر الدَّهرَ من يراعي معنى قصيد ولا قصود
أودُّ من لؤمهم رجوعاً للغرب في دولة ابن هود

ومن شعره: [من الوافر]

أعِدنا فحمةَ الظَّلماء ناراً براحٍ بات موقدها بَراحِ
فأشرقَتِ الجهاتُ بها وزادت بما استَرَقَتْهُ من غُررِ الملاح
وما زلنا نديرالكأسَ ورداً ودرُّ الروضِ يَبْسِمُ عن أقاح
إلى أنْ شَقَّ جيبَ اللَّيل شوقاً وعنّ بكأسنا ضوءُ الصّباحِ
وقد لَطَمَتْ كؤوسُ الرّاحِ مِنّا لها صَرْعى على تلك البِطاح

١٢٠ ـ «الكوفي»[١] **يوسف بن عدي، أبو يعقوب الكوفي**. روى عنه البخاري، وروى النّسائي عن رجلٍ عنه، وأبو زرعة، وأبو حاتم. قال أبو زرعة: ثقة، وأَضرَّ قبلَ موته بيسير. وتوفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين.

ابن علي

١٢١ ـ «البِسْكَري المقرىء»[٢] **يوسف بن علي بن جبارة بن محمد بن عقيل، والهُذلي أبو القاسم الضرير المقرىء البِسْكري** ـ بالباء ثانية الحروف والسين المهملة والكاف والراء ـ وبسكر من بلاد المغرب، وبِسْكِرَه مدينة من إقليم يعرف بالزاب الصغير، وهي في عمل المعز بن باديس. ولد سنة ثلاث. وأربع مائة، وتوفي سنة خمس وستين وأربع مائة. قدم بغداد وطوّف البلاد في طلب القراءات، وقرأ على المشايخ بإصبهان وسمع من أبي نعيم

(١) انظر ترجمته في «شذرات الذهب» (٢/ ٧٥)، و«تاريخ الإسلام» (٢٣١ـ ٢٤٠)، و«تهذيب التهذيب» (١١/ ٤١٧).

(٢) انظر ترجمته في «شذرات الذهب» (٣/ ٣٢٤)، و«بغية الوعاة» (٢/ ٣٥٩)، «تاريخ الإسلام» (٤٥١ـ ٤٦٠)، و«معجم الأدباء» (٦/ ٢٨٤٩).

أحمد بن عبد الله الحافظ، وبنيسابور من أبي بكر أحمد بن منصور بن خلف، وقرأ ببغداد على القاضي أبي العلاء محمد بن علي بن يعقوب الواسطي وغيره. وله كتابٌ سمّاه «الكامل في القراءات». وكان يدرس النحو ويفهم الكلام والفقه.

١٢٢ ـ **«الزِّنجاني الشافعي»**[١] **يوسف بن علي بن محمد بن الحسين الزنجاني، أبو القاسم الشافعي.** تفقّه على أبي إسحاق الشّيرازي وبرع في المذهب والخلاف، وكان يدرّس في مسجده المعروف به بدرب الدّواب. وسمع من أبوي الحسين محمد بن علي بن المهتدي، وأحمد بن محمد بن النقّور. وحدّث باليسير وروى عنه أبو المعمّر الأنصاري، وأبو طاهر السِّلفي في معجميهما. وتوفي، رحمه الله تعالى، في صفر سنة خمس مائة. وكان الكِيّا الهراسي يفضّله على جميع فقهاء بغداد، ويقول: «هو أفقههم وأعرفهم بالمذهب لو كان بخراسان لكان مرحولاً إليه»، وإذا سبقه في فتوى يكتب تحت خطّه: «هذا صحيح وبه أقول وجوابي مثل هذا»، أو ما في معناهما.

١٢٣ ـ **«صاحب إربل»**[٢] **يوسف بن علي كوجك بن بكتكين، زين الدين أبو يعقوب ابن زين الدين صاحب إربل.** وَلِيَها بعد والده إلى أن مات بظاهر عكا مرابطاً في سنة ست وثمانين وخمس مائة. وولي بعده ولدُه فغلب على البلد أخوه مظفر الدين.

١٢٤ ـ **«القُضاعي»**[٣] **يوسف بن علي بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمد بن عبد الرحمٰن، أبو يعقوب القضاعي،** ويقال: أبو الحجّاج الأُندي ـ بالهمزة المضمومة والنون والدال ـ الأندلسي. دخل بغداد تاجراً وسمع من الشريف أبي طالب الحسين بن محمد بن علي الزَّيْنبي، وأبي القاسم علي بن أحمد، وأبي الغنائم محمد بن علي بن ميمون النَّرسي، وأبي بكر محمد بن طرخان بن يلتكين بن يحكم التركي وأمثالِهم. ولقي الحريري صاحب «المقامات» وأخذ عنه.

وقتل بالمَرِيَّة سنة اثنتين وأربعين وخمس مائة عند دخول الروم إليها، وعمرُه يومئذٍ خمس وثمانون سنة.

١٢٥ ـ **«أخو الصاحب تقي الدين»**[٤] **يوسف بن علي بن مُهاجر،** الصّدر الكبير جمال

---

(١) انظر ترجمته في «تاريخ الإسلام» (٤٩١ـ ٥٠٠)، و«مرآة الزمان» (٨/ ٢٢)، و«البداية والنهاية» (١٢/ ١٦٩).

(٢) انظر ترجمته في «الكامل» لابن الأثير (١٢/ ٥٦)، و«شذرات الذهب» (٤/ ٢٨٨).

(٣) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ١٨٦)، و«معجم البلدان» (١/ ٢٦٤)، والأندي: بضم الهمزة وسكون النون، نسبة إلى أندة، وهي مدينة من أعمال بلنسية الأندلس.

(٤) انظر ترجمته في «البداية والنهاية» (٣/ ٣٤٣).

الدين التكريتي، التاجر البيّع، أخو الصاحب تقي الدين توبة ـ وقد تقدّم ذِكْرُ أخيه في حرف التاء ـ كان شيخاً جليلاً ذا حرمة. ولي حسبةَ دمشق مديدةً؛ وتوفي ـ رحمه الله تعالى ـ في سنة أربع وتسعين وست مائة.

١٢٦ ـ «البغدادي»[١] **يوسف بن علي، أبو الحجاج البغدادي المعدّل**، روى عنه الدمياطي وتوفي سنة تسع وأربعين وست مائة.

ابن عمر

١٢٧ ـ «المظفّر صاحب اليمن»[٢] **يوسف بن عمر بن علي بن رسول، السُّلطان الملك المظفَّر شمس الدين ابن السلطان الملك المنصور نور الدين صاحب اليمن وابن صاحبها.** قتل أبوه وعمره ست وأربعون سنة فقام هو بالأمر، وبعده الملك الأشرف ممهِّد الدين فما أسنى، وملك بعده الملك المؤيّد هزبر الدين. وكان نور الدين عمر مقدّمَ جيوشِ الملك أقسيس صاحب اليمن ابن الكامل، لمّا مات أقسيس بمكة غلب نور الدين على الملك وأطاعه الأمراء وملك اليمن نيفاً وعشرين سنة، ثم إنّ المظفّر ملك بعده فامتدّت أيّامُه وبقي في الملك سبعاً وأربعين سنة، وتوفي بقلعة تعز وقد نيف على الثمانين. وكان ملكاً هماماً جواداً عفيفاً عن أموال الرّعايا، كافاً لجنده عن الأذية، وكان مقصداً للوافدين. جمع لنفسه جُزءاً فيه أربعين حديثاً بأسانيد في التّرغيب والترهيب، وهو مسموعات من مشايخ اليمن بنزول.

١٢٨ ـ «ابن صُقَيْر الواسطي»[٣] **يوسف بن عمر بن أبي بكر بن يوسف، أبو يعقوب الصوفي المعروف بابن صُفير الواسطي.** طلب الحديث بنفسه وسمع الكثير وكتب بخطه أكثر ما سمعه؛ فسمع أبا البقاء هبة الكريم بن الحسن حبانش، والقاضي أبا الفضل هبة الله بن علي بن قسّام، وأبا طالب سليمان بن محمد العُكْبَري الزاهد وغيرهم. وقدم بغداد وسمع الشريف عيسى بن أحمد الدوشابي، ومنوجهر بن محمد بن تركانشاه، وعبد الحق بن عبد الخالق بن يوسف وغيرهم.

وكتب وحصّل وعاد إلى واسط، وعاد إلى بغداد مراراً وحدث بها وأَضَرَّ، وكان صدوقاً حسن الطريقة متديناً توفي، رحمه الله، سنة ست وثلاثين وست مائة.

---

(١) لم أقف على ترجمته.

(٢) انظر ترجمته في «البداية والنهاية» (١٣/ ٣٤١)، و«شذرات الذهب» (٥/ ٤٢٧)، و«النجوم الزاهرة» (٨/ ٧١).

(٣) انظر ترجمته في «تاريخ الإسلام» (٦٣١ـ ٦٤٠)، «شذرات الذهب» (٥/ ١٨٢).

١٢٩ ـ «حفيد نِظام المُلْك»[(١)] يوسف بن عمر بن محمد بن عبيد الله بن الحسن بن علي بن إسحاق بن العبّاس الطوسي، أبو المحاسن. من أحفاد الوزير نظام الملك أبي علي. كان شيخاً فهماً له معرفة بأيام الناس ويحفظ كثيراً من الحكايات والأشعار. قال محب الدين بن النجار: إلاّ أنّه كان سيِّىء الطريقة غيرَ مرضيِّ السِّيرة، عفا الله عنه. سمع أبا الوقت، وأبا القاسم نصر بن نصر بن علي العُكْبَري، وغيرهما. وتوفي سنة ثمان عشرة وست مائة.

١٣٠ ـ «ابنُ عمِّ الحجّاج»[(٢)] يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود الثقفي هو ابن عم الحجّاج بن يوسف الثقفي، يجتمعان في الحكم بن أبي عقيل. ولاه هشام بن عبد الملك اليمن لثلاث بقين من شهر رمضان سنة ست ومائة، ولم يزل بها إلى أنْ ولاه العراق فاستخلف على اليمن ابنه الصَّلت بن يوسف، وذلك سنة إحدى وعشرين ومائة، فبقي إلى سنة أربع وعشرين. وكتب إليه هشام: «سِرْ إلى العراق فقد ولَّيْتُك إيّاه، وإيّاك أنْ يعلمَ بك أحدٌ، واشفني في خالد القَسْري وعماله»، فوصل إليها؛ وحلَّ بخالد وأصحابه أنواع العذاب والهون، ومات منهم في العذاب جماعة. وكان يوسف بن عمر قد خرج إلى الكوفة في سبعة عشر يوماً في ثلاثين من أصحابه، فلما وصل الكوفة عرّس قريباً منها، وصار إلى دور بني ثقيف فأمر بعضهم فجمع له من قَدِرَ عليه منهم، فدخل المسجد الفجرَ، فأمر المؤذن بالإقامة، فقال: حتى يأتي الإمام. فانتهره، فأقام [وتقدّم] يوسف فصلى وقرأ ﴿**إذا وقعت الواقعة**﴾ [الواقعة: ٥٦/ ١] و﴿**سأل سائل**﴾ [المعارج: ٧٠/ ١] ثم إنه أرسل إلى خالد، وطارق نائبه، وأصحابه فأُخذوا، وإنّ القدور لتغلي. وحَبَس يوسفُ خالداً فصالحه أبان بن الوليد عنه وعن أصحابه على تسعة آلاف درهم، ثم ندم يوسف، فقيل له: لو لم تقبل منه هذا لأخذت منه مائة ألف ألف درهم، فقال: «ما كنت لأرجع عن شيء رهنت به لساني»، ولما بلغ ذلك خالداً قال لأصحابه: «أسأتم حين أعطيتموه هذا المال في أول دفعة فارجعوا إليه فقولوا: إنا أخبرنا خالداً بما فارقناك عليه، فذكر أنه ليس عنده». فقال: «أنتم وصاحبكم أعلم، فأمّا أنا فلا أرجع عليكم وإن رجعتم لم أمنعكم». قالوا: «فإنّا قد رجعنا»، قال: «فوالله لا أرضى بتسعة آلاف درهم ولا بمثلها ومثلها، فذكر ثلاثين ألف

---

(١) انظر ترجمته في «تاريخ الإسلام» (٦١١ـ ٦٢٠).

(٢) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٤٤٢)، الطبري (٧/ ١٤٨، ١٦٦، ٢٦٠) وغيرها، و«وفيات الأعيان» (٧/ ١٠١، ١١٢)، و«تاريخ الإسلام» (٥/ ١٩١)، «مرآة الجنان» (١/ ٢٦٧)، «التنبيه والإشراف» (٢٨١)، «شذرات الذهب» (١/ ١٧٢)، «الكامل» (٥/ ٢١٩، ٢٢٥، ٢٦٩، ٢٩٥، ٢٩٧).

ألف درهم»، ويقال: مائة ألف ألف درهم. ثم إنه حبس خالداً وضرب يزيد بن خالد ثلاثين سوطاً، فكتب هشام إلى يوسف: «أعطي الله عهداً لئن شاكت خالداً شوكة لأضربن عنقك»، فخلّى سبيله بثقله وعياله، فأتى الشام وأقام به ولم يزل يغزو الصوائف حتى مات هشام. وقيل: إنه سأل هشاماً أن يبسط العذاب على خالد فلم يأذن له، وألحّ عليه بالرسائل واعتلّ بانكسار الخراج لما صار إليه وإلى عماله منه، فأذن له مرّة واحدة، وبعث حَرَسيّاً يشهد ذلك؛ وحلف لئن أتى على خالد أجله ليقتلنه به، فدعا به يوسف وجلس على دكان بالحيرة وجهز للناس وبسط عليه العذاب، فلم يكلمه خالد حتى شتمه يوسف وقال له: يا ابن النصرانية، يا ابن الكاهن، يعني شقا أحد أجداده، وهو الماهن المشهور، فقال له خالد: إنك الأحمق، تُعيّرني بشرفي، لكنك ابن السَبَّاء، إنما كان أبوك يسبأ الخمر ـ يعني يبيع الخمر ـ ثم إنه رد خالداً إلى محبسه فأقام ثمانية عشر شهراً، ثم إن هشاماً كتب إليه بإطلاقه وأقام بأرض القُرَيَّة، من أرض الرصافة ولم يأذن له هشام في القدوم عليه.

وخرج زيد بن زين العابدين على يوسف بن عمر، فكتب يوسف إلى هشام: «إنّ أهلَ هذا البيت من بني هاشم قد كانوا هلكوا جوعاً، حتى كانت همّةُ أحدِهم قوتَ يومه، فلما ولي خالد العراق قوّاهم بالأموال حتى تاقت نفوسهم إلى طلب الخلافة، وما خرج زيد إلاّ بإذن خالد، وما مقامه بالقُرَيَّة إلاّ لأنها مَدْرَجَةُ الطّريق، فهو يسأل عن أخباره»، فقال هشام للرسول: «كذبت وكذب صاحبك ومهما اتهمنا به خالداً فإنّا لا نتّهمه في الطاعة»، وأمر بالرسول فُوجِئَتْ عنقه، وبلغ الخبر خالداً فصار إلى دمشق.

وبقي يوسف على ولاية العراق مدة ولاية هشام فلما تولّى ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك، فأقرّ يوسف على ولاية العراق، وكان قد عزم على عزله، وكانت أم الوليد بن يزيد، أمَّ الحجّاج بنت محمد بن يوسف أخي الحجّاج بن يوسف، فالحجاج عمها. وكتب الوليد إلى يوسف بن عمر: «إنّك كتبت إليّ تذكر أنّ خالداً أخْربَ العراق، وكنت مع ذلك تحمل إلى هشام ما تحمل، وينبغي أن تكون قد عمرت العراق، فاشخص إلينا وصدِّق ظننا بك فيما تحمله إلينا من عمارة العراق، فإنك خالُنا وأحق النّاس بالتوفير علينا». فخرج يوسف بن عمر إليه وحمل معه من الأموال والآنية والأمتعة ما لم يحمل مثله، فأقبل إليه والتزم بأنه إن يسلم إليه خالداً القسري أن يحمل خمسين ألف ألف درهم، فسلّمه إليه فحمله معه وعَذّبه إلى أنْ قَتَله.

ولمّا تولى يزيد بن الوليد بن عبد الملك، ولّى العراق عبد العزيز بن هارون بن عبد الملك بن دِحية بن خليفة الكلبي، فأبى الولاية، فولاها منصور بن جمهور، وبلغ الخبر

يوسف بن عمر فهرب وسلك طريق السماوة، وكان أهله بالبلقاء فاختفى عندهم ولبس زي النساء، وبلغ الخبر يزيد بن الوليد، فأرسل إليه من أحضره على هيئته، فحبسه يزيد فأقام في السجن مدة يزيد بن الوليد، فلمّا مات يزيد وولي أخوه إبراهيم بن الوليد بقي يوسف بن عمر مدّةَ ولاية إبراهيم في السجن، وتولى مروان آخر ملوك بني أمية. وكان يزيد بن خالد القسري مع إبراهيم بن الوليد، فلما خافوا من مروان عند التقاء عسكريهما، خافوا غائلة الحكم وعثمان بن الوليد وهما في السجن، فجهزوا يزيد لقتلهما، فتوجه، إليهما وقتلهما، وكان يوسف بن عمر عندهما فقتله يزيد بن خالد القسري، وذلك سنة سبع وعشرين ومائة. وقيل إنه قُتِل في العشر الأوسط من ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة، وأخذوا رأس يوسف عن جسده وشدوا في رجله حبلاً، وكان الصبيان يجرونه في شوارع دمشق فتمر به المرأة فتحسبه صغيراً فتقول: «لأيِّ شيءٍ قتلوا هذا الصغيرَ المسكين»، لما ترى من صغر جثته. وكان يوسف بن عمر قصيراً جداً ولحيتُه طويلة جداً تجوزُ سرَّته وكان أَتْيَهَ الناس وأحمقَهم، ومن حمقه أنّ حجّاماً أراد أن يحجمه فارتعدت يده فقال لحاجبه: قُل لهذا البائس لا يخف، وما رضي أن يكلمه بنفسه. وكان الخياط إذا أراد أن يفصل ثيابه، إن قال: يحتاج إلى زيادة ثوب آخر أكرمه وحباه، وإن فضل من القماش شيئاً أهانه وأقصاه، لأنه يكون قد نبه على قصره ودَمامته. وفي الأمثال: «أتيه من أحمق ثقيف»، المراد به يوسف بن عمر.

وقال بعضهم: رأيت يوسف بن عمر وفي مذاكيره حبل وهو يجر بدمشق، ثم رأيت بعد ذلك يزيد بن خالد القسري، قاتله، وفي مذاكيره حبل وهو يجر في ذلك الموضع.

وكان يوسف يُطعم الناس في كل يوم على خمسة آلاف خوان، كل خوان عليه عشرة أنفس، وكان الحجّاج يُطعم أهل الشام خاصة على ألف خوان، فأطعم يوسف بن عمر أهلَ الشام وأهلَ العراق.

١٣١ ـ «الخُتَني»[١] **يوسف بن عمر بن الحسين، الشيخ العدل المعمر بدر الدين الخُتَني** بضم الخاء المعجمة وفتح التاء ثالثة الحروف وبعدها نون وياء النسبة ـ المصري. ولد في سنة خمس وأربعين، وحضر في الرابعة على ابن رواج وتفرَّد به، وسمع من صالح المدلجي، والمرسي، والبكري، وابن اللمطي، وتفرّد بأشياء وله مشيخة روى فيها عن نيف وستين نفساً، وأكثر الطلبة عنه. توفي ـ رحمه الله ـ، سنة إحدى وثلاثين وسبع مائة.

---

(١) انظر ترجمته في «شذرات الذهب» (٦/ ٩٧)، و«الدرر الكامنة» (٥/ ٢٤٢)، و«الجواهر المضية» (٢/ ٢٢٩).

١٣٢ ـ «ابن عمروس المُنْيي»[1] يوسف بن عمروس المُنْيي القرطبي، من ساكني مُنْيَة عَجَب، وإليها يُنْسب. سمع من محمد بن إبراهيم بن محمد بن باز، وابن وضّاح وغيرهما. وكان رجلاً عابداً حافظاً لرأي مالك، رضي الله عنه، وأصحابه، وانقبض قبل موته بسنين، وكان يُخْتَلَفُ إليه للسماع منه في داره. ذكره إسماعيل، وابن حارث، وابن الفرضي.

١٣٣ ـ «المَرْوَزيّ»[2] يوسف بن عيسى بن دينار المروزي. روى عنه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنَّسائي. وتوفي في حدود الخمسين والمائتين.

١٣٤ ـ «العشَّاب المربي»[3] يوسف بن فتوح، أبو الحجاج الأندلسي المربي العشَّاب. كان ذكياً فاضلاً، ولي الشورى ببلده، وكان له حظ من الفقه والتفسير ومعرفة النبات، وكان يجلبه ويتجر فيه؛ وله سماعه ورواية.

وتوفي، رحمه الله تعالى، سنة إحدى وستين وخمس مائة،

١٣٥ ـ «قاضي الأهواز»[4] يوسف بن الغرق بن لُمازه، قاضي الأهواز. توفي في حدود المائة، رحمه الله تعالى.

١٣٦ ـ «حاجب شمس الملوك»[5] يوسف بن فيروز حاجب شمس الملوك، هرب من شمس الملوك خائفاً من دمشق إلى تدمر، وكان سفيراً بين قراجاً وشهاب الدين محمود في تسليم حمص، وحلف له شهاب الدين وآمنه فعاد إلى دمشق ينوب في التدبير عن معين الدين أنر، وكان في نفس الغلمان الأتابكية عليه حقد لأنّ أيلبا لما قفز على شمس الملوك أشار عليه بقتله، وكان بزواش أتابك العسكر يحسده، ويوسف يهينه ويهين الأتابكية، فاتّفقوا على قتله فالتقاه بزواش عند المسجد الجديد في جمادى الآخرة سنة ثلاثين وخمس مائة، فضربه بالسيف على وجهه فقتله، وهرب فطلبه شهاب الدين محمود وقال لا بدّ من قتله وقتل الغلمان الأتابكية، فقيل له: «في هذا إفساد الدَّولة، وأعداؤك من كل جانب»، فسكت على مضض، وعاد بزواش إلى دمشق.

---

(١) انظر ترجمته في «ترتيب المدارك» (٦/ ١٥٣).

(٢) انظر ترجمته في «التهذيب التهذيب» (١١/ ٤٢٠) و«الجرح والتعديل» (٩/ ٢٢٧) و«تاريخ الإسلام» (٢٤١ـ ٢٥٠).

(٣) لم أقف على ترجمته.

(٤) انظر ترجمته في «تاريخ الإسلام» (١٩١ـ ٢٠٠)، و«ميزان الاعتدال» (٤/ ٤٧١).

(٥) انظر ترجمته في «الكامل» لابن الأثير (١١/ ٣٨).

ابن القاسم

١٣٧ ـ «قاضي دمشق»(١) **يوسف بن القاسم بن يوسف بن فارس بن سوّار المَيَانجي الشافعي**، ناب في القضاء بدمشق عن قاضي مصر والشام أبي الحسن علي بن النعمان، وكان مسند الشّام في زمانه، وتوفي سنة خمس وسبعين وثلاث مائة.

١٣٨ ـ «أبو القاسم الكاتب»(٢) **يوسف بن القاسم بن صبيح، أبو القاسم الكاتب، والد أحمد وزير المأمون.** كان كاتباً بليغاً، وله رسائل مدونة وشعر. وكان يكتب في ديوان الكوفة لبني أمية، ثم إنه كتب للسفاح وللمنصور وللرشيد واختصَ بيحيى بن خالد بن برمك، فكان يكتب بين يديه ويخلفه على التوقيع، وعلى دواوين الأزمّة.

ومن شعره: [من الطويل]

هجرتُك لمّا لم أجد فيك مسكةً ... وصادفتُ منك الودَّ غيرَ قريبِ

وما كنت أدري أنَّ مثلَك ينثني ... على جَنْبِ خوّانِ الصَّديق مريبِ

فراقُ أخٍ يعطي المودَّةَ حَقَّها ... أضرُّ وأبلى من فراقِ حبيبِ

١٣٩ ـ «سِبْط ابن الجوزي»(٣) **يوسف بن قِزُغْلي** ـ بالقاف والزاي والغين المعجمة واللام ـ ابن عبد الله، الإمام المؤرِّخ الواعظ، شمس الدين أبو المظفر التركي ثم البغدادي العوني الحنفي، سِبْط الإمام جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي. نزيل دمشق، ولد سنة ثلاث وثمانين وخمس مائة، وتوفي رحمه الله تعالى، سنة أربع وخمسين وست مائة.

سمع من جدّه، وسمع بالموصل ودمشق من جماعة. وكان إماماً فقيهاً واعظاً وحيداً

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ٣٦١)، «معجم البلدان» (٥/ ٢٣٨)، «اللباب» (٣/ ٢٧٨)، «العبر» (٢/ ٣٧١)، «تاريخ الإسلام» (٤) الورقة (٢٠/أ)، «طبقات السبكي» (٣/ ٤٨٨)، ٤٨٩)، «النجوم الزاهرة» (٤٠/ ١٤٨)، «قضاة دمشق» لابن طولون (٣٧)، ««شذرات الذهب» (٣/ ٨٦)، «تاج العروس» مادة (منيح)، «هدية العارفين» (٢/ ٥٤٩).

(٢) انظر ترجمته في «تاريخ الطبري» (٨/ ٢٣٠).

(٣) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٢٣/ ٢٩٦)، «ذيل الروضتين» لأبي شامة (١٩٥)، «وفيات الأعيان» (٣/ ١٤٢)، «صلة التكملة» للحسني المجلد الثاني الورقة (٢٥)، «ذيل مرآة الزمان» لليونيني (١/ ٣٩ـ ٤٣) «تاريخ الإسلام» للذهبي (أيا صوفيا ٣٠١٣) ج ٢٠ الورقة (١٣٥)، «العبر» (٥/ ٢٢٠)، «ميزان الاعتدال» (٤/ ٤٧١)، «فوات الوفيات» (٤/ ٣٥٦ـ ٣٥٧)، «الترجمة» (٥٩٢)، «عيون التواريخ» لابن شاكر (٢٠/ ١٠٣ـ ١٠٤)، «مرآة الجنان» (٤/ ١٣٦)، «منتخب المختار» لابن رافع (٢٣٦ـ ٢٣٩)، «الترجمة (١٩٦)، «الجواهر المضية» (٢/ ٢٣٠ـ ٢٣٢)، «الترجمة» (٧١٩)، «البداية والنهاية» (١٣/ ١٩٤)، «العسجد المسبوك» (٦٢٣)، «لسان الميزان» (٦/ ٣٢٨)، «الترجمة» (١٩٦٨)، «النجوم الزاهرة» (٧/ ٣٩)، «الدارس» للنعيمي (١/ ٤٧٨)، «شذرات الذهب» (٥/ ٢٦٦)، «الفوائد البهية» (١٨٣).

في الوعظ، علامة في التاريخ والسِّيَر، وافرَ الحُرْمة، محبّباً إلى الناس، حلو الوعظ. قدم دمشق وهو ابن نيف وعشرين سنة ونفق على أهلها وأقبل عليه أولاد العادل، وصنف في الوعظ والتاريخ وكان والده قِزْغُلي من موالي الوزير عون الدين بن هبيرة، وروى عنه الدمياطي ـ ويقال في والده: زُغلي، بحذف القاف.

وهو صاحب «مرآة الناس»، وأنا ممّن حسده على هذه التَّسمية، وهي لائقة بالتاريخ، كأن الناظر في التاريخ يعاين من ذُكر فيه في مرآة، إلاّ أنّ في المرآة صدأ المجازفة منه، رحمه الله تعالى، في أماكن معروفة.

قال الشيخ شمس الدين: وقد اختصره شيخُنا قطب الدين اليونيني وذَيَّل عليه إلى وقتنا هذا. ولما مات حضر جنازته السلطان ومن دونه. ودرَّس بالشِّبْلية مدةً، وبالمدرسة البدرية؛ وقرأ الأدب على أبي البقاء، والفقه على الحصيري، ولبس الخرقة من عبد الوهاب بن سكينة، وكان حنبلياً فانتقل وصار حنفياً، للدُّنيا. وصنَّف في «مناقب أبي حنيفة» جزءاً، و«معادن الإبريز» في التفسير تسعة وعشرون مجلداً، وشرح «الجامع الكبير» في مجلدين.

١٤٠ ـ «الذَّهبي الشَّاعر»[1] يوسف بن لؤلؤ الذهبي الأديب بدر الدين الدمشقي الشاعر، كان والدُه لؤلؤ عتيقَ دلدرم صاحب تل باشر.

له نظم يروق الأسماع، ويعقد على فضله الإجماع، مدح النَّاصر بن العزيز والكبار. وكان له بيت في الجاروخية. عاش ثلاثاً وسبعين سنة، وتوفي ـ رحمه الله ـ في شعبان سنة ثمانين وست مائة. يقال: إنه كانت له دكان باللّبادين له فيها قفص على العادة فيه خواتم وغيرها، فجاءه مملوك من مماليك النّاصر صاحب الشام، فقال له: «عندك خاتم على قدر إصبعي»؟ فقال: «بل عندي إصبع على قدر خاتمك»، فبلغت الواقعة الناصر فاستظرفه وكان ذلك سبب اتصاله به.

ومن شعره ما أنشدنيه من لفظه الحاج لاجين الذهبي، قال: أنشدني من لفظه لنفسه وقد توالت الأمطار بدمشق: [من الرمل]

إن أقام الغيثُ شهراً هكذا ... جاءَ بالطُّوفان والبحر المحيط

ما هُمُ من قوم نوحٍ يا سما ... أقلعي عنهم فهم من قوم لوطِ

وقال لي لاجين: هذا هو الذي أوّل من علَّم الناس المجنّس بدمشق، وهو تلبيس الذهب الفضة وجعله شريطاً، يعني يوسف الذهبي هذا.

(١) انظر ترجمته في «شذرات الذهب» (٥/ ٣٦٩)، و«ذيل الزمان» (٤/ ١٣٤).

ومن شعره في غلام بوجهه حَبُّ الشباب: [من الطويل]

تعشّقْتُه لَدْنَ القوام مُهفهفاً شهيَّ اللّمى أحوى المراشفِ أشنبا

وقالوا: بدا حبُّ الشّباب بوجهه فيا حُسْنَهُ وجهاً إليَّ مُحَبَّبا

وذكرت هنا ما نظمته أنا في مثله: [من مجزوء الرَّمل]

إنّ حبَّ الخدّ ممن حُبُّه زاد اكتئابي

أتعبَ القلبَ إلى أنْ شابَ في حبِّ الشَّبابِ

ونظمت فيه أيضاً: [من مخلع البسيط]

بدا وحبُّ الشّباب بادٍ فقلت لا يُنكر الصّوابُ

حُمرةُ خَدَّيه في احمرارٍ والحبُّ من فوقها حبابُ

وقال الذهبي المذكور في النّجم العبادي وقد كحّل غلاماً حسناً غدوةً، فمات النّجْم في العشية المذكورة: [من الكامل]

يا قومُ قد غلط الحكيمُ وما درى في كَحْلِهِ الرشأ الغرير بطبّه

وأراد أن يُمضي نِصالَ جُفُونه ويحدّها لتصيبنا فبدت به

وقال أيضاً: [من الطويل]

بدا صُدْغُ من أهواه في ماء هذه فحيرني لما التوى وتعقربا

وقالوا: يصير الشَّعْرُ في الماء حيّة فكيف غدا في ذلك الخد عقربا

قلت، وقوله: تعقربا وعقربا قبيح، وقد رأيت كثيراً من الفضلاء استعمل مثل هذا وأنا أراه قبيحاً لأن المادة واحدة.

وقال بدر الدين الذهبي: [من السريع]

هَلُمّ يا صاحِ إلى روضةٍ يجلو بها العاني صدا هَمِّهِ

نسيمُها يعثُر في ذيلهِ وزهرُها يرقُصُ في كُمِّهِ

وقال: [من السريع]

أدِرْ كؤوسَ الرّاح في روضةٍ قد نمَّقت أبرادَها السُحْبُ

الطَّيرُ فيها شيِّقٌ مُغْرم وجدولُ الماءِ بها صَبُّ

وقال: [من الكامل]

أرأيتَ وادي النّيرين وماؤه يبدي لناظرك العجيبَ الأعجبا

يتكسَّر الماءُ الزُّلالُ على الحصى فإذا غدا بين الرّياضِ تشعّبا

وقال: [من الكامل]

رفقاً أذبتَ حُشاشَةَ المشتاقِ وأَسَلْتها دمعاً من الآماقِ
وأَحَلْته من بعد تسويفٍ على الـ ـصَّبر الذي لم تُبْقِ منه بَواقي
وطلبتَ منّي في هواك مواثقاً والقلبُ عندك في أَشَدِّ وثاقِ
قلبٌ بعينٍ قد أُصيب وعارضٌ فأعده لي فالدَّمع ليس براقي
ألقى الدموع على الدموع وليلتي أدرى بما ألقى بها وألاقي
لا تلتقي فيها الجفونُ وإنّني لا أرتجي منها ومنك تلاقي
أشقيق بَدْرِ التّم طال تلهُّفي وأطال فيك العاذلون شقاقي
أنفقتُ من صبري عليك وإنّه لرضاك لا لتملُّق ونفاق
فارْفق بقلبٍ فيه ما يكفيه من فَرَقِ الصُّدود فلا تُرِع بفراقي
فحرارة الأنفاس قد دلّت على ما في الحشا من لاعِجِ الأحراق
وصبا بعثتُ به إليك فلم تعد وأظنُّها حالت عن الميثاق
وتشوّقٌ سطّرتُه في مهرق فمحاه واكفُ دمعيَ المهراق
وبمهجتي المتحمّلون عشيةً والركبُ بين تلازُمٍ وعِناقِ
وحداتُهم أخذت حجازاً بعدما غنَّت وراء الرَّكب في عشاق
وتنبّهت ذاتُ الجناحِ بسَحْرَةٍ في الواديين فنبَّهت أشواقي
ورقاء قد أخذت فنونَ الحُزْنِ عن يعقوبَ والألحانَ عن إسحاق
قامت على ساقٍ تطارحني الهوى من دون صحبي بالحمى ورفاقي
أنّى تباريني جوى وصبابةً وكآبةً وهوى وفيضَ مآقي
وأنا الذي أُمْلي الهوى من خاطري وهي التي تُملي من الأوراق

وقال في دولاب: [من مجزوء الرجز]

وروضةٍ دولابُها إلى الغُصونِ قد شكا
من حيث ضاع زهرُها دارَ عليه وبكى

وقال أيضاً: [من مجزوء الرمل]

ربَّ ناعورةِ روضٍ باتَ تندى وتفوح

تضحك الأزهارُ منها ... وهي تبكي وتنوح

وقال أيضاً: [من السريع]

باكِرْ إلى الروضةِ تَسْتَجْلِها ... فثغرُها في الصُّبْح بسّامُ

والنَّرجسُ الغضُّ اعتراه الحيا ... فَغَضَّ طرفاً فيه أسقام

وبلبل الدّوحِ فصيحٌ على الـ ... أيْكَة والشحرورُ تمتام

ونسمةُ الرِّيح على ضعفها ... لها بنا مَرٌّ وإلمامُ

فعاطني الصَّهباءَ مشمولةً ... عذراءَ فالواشون نُوّام

وأكتم أحاديثَ الهوى بيننا ... ففي خلال الروض نمّامُ

وقال في مليح في الجيش: [من الكامل]

يا حُسنَه في الجيشِ حين غدا ... يختالُ في السّمر والقضبِ

لم ألقَ أحلى من شمائِلِه ... في العين لمّا سار في القَلْبِ

وقال: [من الطويل]

وأحْوى ثنى من قدِّه اللدنِ ذابلاً ... فاخجل غُصْنَ البان وهو نضيرُ

على الوجنة الخضراء دار عذارُه ... على مثلِها كان الخصيبُ يدورُ

وقال: [من الكامل]

صدّوا وقد دبّ العذارُ بخدِّه ... ما ضرَّهم لو أنّهم جبروه

هل ذاك غيرُ نباتِ روضٍ قد حلا ... لكنهم لما حلا هجروه

وقال وقد أُحيل على ديوان الحشر: [من الطويل]

أمولايَ محيي الدين طال تردّدي ... لجائزة قد عيل من دونها صبري

وقد كنت قبلَ الحَشْر أرجو نجازها ... فكيف وقد صيّرتموها إلى الحشر

وقال: [من مجزوء الكامل]

رِفقاً بصبٌّ مغرمٍ ... أبليتَه صدّاً وهجرا

وافاكَ سائل دمعه ... فرددتَه في الحال نهرا

وقال: [من المجتثّ]

يا عاذلي في هواه ... إذا بدا كيف أسلو

يمرُّ بي كلّ وقت ... وكلما مرَّ يحلو

وقال: [من الكامل المجزوء]

إنَّ الـذيـن تـرحّـلـوا ... نـزلـوا بـعـيـنـي الـنـاظِـرَة

أسْـكَـنْـتُـهـم فـي مُـهْـجـتـي ... فـإذا هُـمُ بـالـسَّـاهِـرَة

وقال: [من مخلع البسيط]

يـا رشـأ كـلَّـمـا مـررت بـه ... يـخـفـقُ قـلـبـي لـه ويـضـطـربُ

قـد قـمـتَ بـالـقـلـب فـي هـواك ضـنـىً ... وأنـا قـمـتُ بـالـذي يـجـبُ

وقال في نجم الدين بن إسرائيل لمّا هوى مَليحاً يُدْعى الحُوَيْرِح: [من المجتثّ]

قـلـبُـك الـيـومَ طـائـرٌ ... عـنـك أمْ فـي الـجـوارحِ

كـيـف يُـرجـى خـلاصُـه ... وهـو فـي كَـفّ جَـارِحِ

فلما سمع ذلك قال: خلص الطائر، فقال: [من الكامل]

خلّصت طائر قلبك العاني ترى ... من جارح يغدو به ويروح

ولقد يسر خلاصه إن كنت قد ... خلصته منه وفيه الروح

وقال: [من الوافر]

تـحـيِّـرنـا عـلـى مـرِّ الـلـيـالـي ... جـنـانُ الـنّـيـرَيْـن الـعـالـيـاتُ

وكـيـف اعـتـلّـت الـنـسـمـاتُ فـيـهـا ... وشـاخَ الـبـانُ واكـتـهـل الـنـبـاتُ

وقال في مليح ورّاق: [من الطويل]

خليليّ جدّ الجدّ واتّصل الأسى ... وضاقتْ على المشتاقِ في قصده السُّبْلُ

وقد أصبح القلبُ المعنّى كما ترى ... معنّىً بورّاقٍ وما عنده وَصْلُ

ذكرت هنا ما قلته في ورّاق: [من السريع]

يـا حـسْـنَ ورّاق أرى خـدَّه ... قـد راق فـي الـتَّـقـبـيـل عـنـدي ورقّ

تـمـيـسُ فـي الـدُّكـان أعـطـافُـه ... مـا أحـسـنَ الأغـصـان بـيـن الـورق

وقال في زهر اللوز: [من مخلع البسيط]

الـلـوزُ أشـجـارُه نـشـاوى ... بِـمَـيْـلَ أغْـصَـانِـه الـرِّطـاب

مـشـتـبـكٌ زهـرُه عـلـيـنـا ... وظـلُّ الـرطـب مُـسْـتـطـاب

ونـحـن مـن سُـكـرنـا نـراه ... كـأنّـه فـوقـنـا ضَـبـاب

وقال: [من مخلع البسيط]

عرِّج على الزَّهرِ يا نديمي ومِلْ إلى ظلِّه الظليل
فالغُصْنُ يلقاك بابتسام والرِّيح تلقاك بالقَبولِ

وقال: [من مجزوء الكامل]

الزَّهر ألطفُ ما رأيـ ـت إذا تكاثرتِ الهمومُ
تحنو عليَّ غصونُه ويرقُّ لي فيه النسيمُ

وقال يصف غرفة: [من الكامل]

مولاي أشكو غرفةً في ناجرٍ كالنَّارِ تلفح بالهجير اللآفح
عزَّ النسيم بها فليس بسانحٍ وخلا الذّبابُ بها فليس ببارحِ

وقال ملغزاً في السَّرطان: [من السريع]

ما اسمٌ إذا ما أنت صحّفته صار مثنّى باعْتباريـن
في الرّاس والعين يُرى دائماً وهو بلا راسٍ ولا عينِ

وقال: [من الكامل]

ومُتعَذِّرٍ قد بَيَّتَتْهُ جماعةٌ ولووا بما وعدوه طولَ الليلِ
واكتاله كلٌّ هناك وما رأى منهم سوى حشَفٍ وسوء الكيلِ

وقال: [من السريع]

حلا نباتُ الخدِّ يا عاذلي لمّا بدى في خدِّه الأحمرِ
فَشَاقَني ذاك العذارُ الذي نباتُه أحلى من السُّكّرِ

وقال في شمعة: [من السريع]

وشمعةٍ أودى هواها بها وشقّها التسهيدُ والدمعُ
قد مثّلت منها لنا نخلة وسال من ذائبها طلعُ

وقال: [من المجتث]

وبِنْت ليلٍ بَكَتْنا بدفمعةٍ مدرارهْ
كأنّما هي غصنٌ في رأسه جلّناره

وقال: [من مجزوء الرجز]

وذات قدٍّ أهيف فؤادها قدِ التهبْ
كصعْدَةٍ من فضة لها سِنانٌ من ذهبْ

وقال: [من البسيط]

وشمعة وقفت تشكو لنا حرقا ... وأدمعاً لم تزل تهمي سواكبها

وحيدة في الدجى من طول ما مكثت ... تكابد الليل قد شابت ذوائبها

وكتب إلى فخر الدين بن الصيرفي وقد بلغه أنّه يوردُ شعره: [من المجتث]

قد زدت شِعْرِيَ حُسْناً ... وزادك الله سعدا

أوردته ببيانٍ ... فصار وأحلى وأندى

كالنَّحل يَجْني بفيه ... طلا ويلقيه شهدا

وقال: [من الكامل]

شوقي إليك على البعاد تقاصرت ... عنه خطاي وقصّرت أقلامي

واعتلت النسمات فيما بيننا ... مما أحملها إليك سلامي

وقال: [من الرجز]

يا حسن جنات لنا بجلّق ... وقد ثنت أغصانَها ريحُ الصبا

يبكي بها غمامها، وزهرها ... يضحك في أكمامه على الربى

وقال في غلام يعرف بالشقيق: [من الكامل]

يا قامةَ الغصن الرَّطيب إذا انثنى ... ولوى معاطفَه نسيمُ الريحِ

أشقيقُ روضٍ أنت يا بدرَ الدُّجى ... بالله قل لي أم شقيقُ الروحِ

وقال في مليح رفاء: [من مجزوء الكامل]

وبمهجتي الرفا الذي ... فضحَ الذوابلَ لينُهُ

لم يرفُ قلب مُتَيَّمٍ ... قد مزّقته جفونُهُ

وذكرت أنا هنا ما قلته في مليح رفاء وهو: [من الوافر]

ورفاء له وجه مليح ... محاسنه المليحة ليس تخفى

شغلت به الفؤاد ولي زمانٌ ... أرى بيت الفؤاد بعوز رفّا

وقال بدر الدين وقد جهز إليه دراهم عليها أسود: [من المتقارب]

رددت الحوادث عني وقد ... وهتني كتائبُها والجنود

وأنْجدتني بالجياد التي ... بعثت بها وعليها الأسود

وقال وقد وقع به فرس في نهر بردى: [من السريع]

أمطيتني يا سيّدي سابحاً   شبيهَ سرحانٍ فلم يسرح
أقرح لكن كبدي إن مشى   فهو بلا شكٍ من القرح
وسابحاً يدعى فما باله في الما   ء ألقى بي ولم يسبح

وقال في مليح اسمه داوود: [من الكامل]

قد كنت جَلْداً في الخطوب إذا عرت   لا تزدهيني الغانيات الغيدُ
وعهدت قلبي من حديد في الحشا   فألانَه بجفونِه داوودُ

وقال في الذهبيات: [من الكامل]

انظر إلى الأغصان كيف تذهَّبت   وأتى الخريفُ بحمرها وبصفُرِها
تحلو شمائلها إذا ما أدبرت   وتزيد حسناً في أواخر عمرها

وقال: [من الكامل]

فصل الخريف أتى على الشجر التي   أبدت لنا أوراقُها ألوانا
فعجبت للأشجار كيف تخلّقت   أوراقُها لفراقها أغصانا

وقال في الكأس المصوّرة: [من الكامل]

انظر إلى صُوَرِ الفوارس إذْ بدت   بالخيل في كأس المدامة ترتمي
ما بين طافٍ في المدام وراسب   كفوارسِ الهيجاء تسبحُ في الدَّمِ

وقال في زهر اللوز: [من السريع]

انظر إلى اللوزِ تجد غصنه   أحوى رشيقَ القَدِّ ميّاسَهْ
بزهره تعبث ريحُ الصّبا   وقصدها تأخذُ أنفاسَهْ

وقال وقد أعطى الممدوح بعض الشعراء نطعاً: [من السريع]

لا تلم الممدوح في بذله نطعاً   فذا خير من المنع
صفعته بالمدح نظماً   فلا غرو إذا جازاك بالنطع

وقال في أمير أصيب بسهم: [من الطويل]

أمولاي نجمَ الدين والباسلَ الذي   يخوض العوالي والرّدى وجهُه جهمُ
أجلت قداح الحرب في حومة الوغى   فلا غرو إن وافاك من ضربها سهم

وقال في غلام خصي: [من مجزوء الكامل]

وأغنٍّ مهضوم الحشا   كالظبي لكن لا يصاد

أمــن الــبــيــاضُ بــخــده مــن أن يــكــون بــه ســواد

وقال: [من السريع]

لا تــعــذلــونــي فــي هــوى شــادن هــويــت طــرفــاً مــنــه ســحّــارا
لــو لــم يــكــن حــبــي مــن حــســنــه يــحــســده الــنــجــم لــمــا غــارا

وقال: [من الكامل]

وريــاض وقــفــت أشــجــارهــا وتــمــشــتْ نــســمــةُ الــصــبــح إلــيــهــا
طــالــعــتْ أوراقَــهــا شــمــسُ الــضــحــى بــعــد أن وقّــعــتِ الــورقُ عــلــيــهــا

وقال: [من الخفيف]

وجــنــان ألــفــتــهــا إذا تــغــنــت حــولــهــا الــورق بــكــرة وأصــيــلا
نــهــرهــا مــســرعــاً جــرى وتــمــشّــت فــي ربــاهــا الــصــبــا قــلــيــلاً قــلــيــلا

وقال يصف سيفاً: [من الطويل]

وذي شُــطَــبٍ مــاضٍ إذا مــا ســلــلــتــه تــراه كــنــجــم الــرجــم يــهــوى شــهــابــه
مــن الــمــرهــفــات الــبــيــض دبــت نــمــالــه وطــار مــع الــهــام الــمــطــارد نــابــه

وقال في غلام كان عند القاضي بلا خُصىً: [من الكامل]

يــا شــادنــاً أخــطــى الــســبــيــل بــقــصــده وعصى النجصيح جهالةً في من عصى
قــد كــنــت عــنــدي بــلا خُــصىً فــي نِــعْــمــة فــتــركــتــه بَــطــراً وجــئــت بــلا خُــصَــى

وقال: [من الكامل]

ورد الــكــتــابُ فــقــلــت زهــرُ خــمــيــلــةٍ تــغــتــرُّ عــن دمــعِ الــغــمــام الــواكِــفِ
مَــثّــلْــت أســطُــرَه غــصــونــاً فــانــبــرت فــيــه الــقــوافــي كــالــحــمــام الــهــاتــف

وقال في مليح يلقَّبُ بالشِّهاب: [من الخفيف]

يــا قــضــيــبَ الأراك عــنــد الــتــثــنــي هــزّ عــطــفــيــه حــيــن مــاس الــشــبــابُ
عــجــبــاً كــيــف ضــلَّ فــيــك الــمــحــبــو ن بــلــيــلِ الأســى وأنــت شــهــابُ

وقال: [من البسيط]

إنّــي أُذَكّــر مــولاي الأمــيــرَ ومــا أظــنّــه نــاسيَ الــعــهــد الــذي ذكــرا
والــدوحُ يــبــدي الــجــنــى لــكــنّ أغــصُــنَــه لــو لــم تُــهــزّ لــمــا ألــقــت لــنــا الــثــمــرا

وقال في مليح أراد تقبيله فامتنع القبلة في خدّه: [من الطويل]

مَنَعْتَ ارتشافَ الثَّغر يا غايةَ المنى فَزَحْزَحتني منه إلى خدك القاني
لئن فاتني منه الأقاحي فإنّني حصلتُ على ورد جنيٍّ وريحان

وقال في مبيته بالجامع الأموي: [من الخفيف]

طال نومي بالجامع الرّحب والبر دُ مُبيدي وليس منه خلاصُ
كيف أدفا وفيه تحتي بلاطٌ ورخامٌ حوليَ وفوقي رصاصُ

وقال: [من الطويل]

لقد بتُّ عند الفارس النَّدْبِ ليلةً وما شاقني إلاّ شقائي وأطماعي
فبتُّ أقاسي الليلَ برداً ولم أزل مُغَطّى كرأسِ القنّبيط بأضلاعي

وقال: [من البسيط]

لا تَلْحَني اليومَ في ساقٍ وصهباءِ وسَقِّني كأسَها صرفاً بلا ماءِ
وأقفُ الهمومَ بها عني فقد كثُرت آلامُها واشفِ ما بالقلب من داءِ
عذراءَ مشمولةٌ تطفو فواقعُها كأنّها أدمعٌ في خدِّ عذراء
أبدى الحبابُ لها خطاً فأحسن ما قد كان حرَّرَ من ميم ومن هاء
قديمةٌ ذاتُها في روض جنّتها كانت وكان لها عرشٌ على الماء

ابن المبارك

١٤١ ـ «ابن الخفّاف»[١] **يوسف بن المبارك بن كامل بن أبي غالب الحسين بن محمد الخفّاف البغدادي، أبو الفتح بن أبي بكر.** من أولاد المحدِّثين، كان من جملة فقهاء المدرسة النظامية.

أَسْمعه والدُه الكثير في صباه من أبي بكر بن عبد الباقي الأنصاري، وأبي منصور عبد الرحمن بن محمد القزاز، وأبي القاسم إسماعيل بن محمد بن عمر السمرقندي، ومن جماعة كثيرة. وكانت سماعاتُه بعد الثلاثين وخمس مائة، وعمّر حتى حدّث مسموعاته وانفرد بشيءٍ

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٢١/٤١٧)، «التكملة» للمنذري (٢)، «الترجمة» (٨٧٧)، و«مشيخة النجيب» عبد اللطيف الورقة (٧٧ ـ ٧٩)، و«تلخيص» ابن الفوطي (٤) «الترجمة» (٨٠٧) ونقل عن ابن النجار، و«تاريخ الإسلام» (١٨/١/ ٨٨ ـ ٨٩) و«المختصر المحتاج إليه»، الورقة (١٣٥)، و«العبر»، و«النجوم الزاهرة» (٦/١٨٨)، و«شذرات الذهب» (٥/٦).

منها.

قال محب الدين بن النجار: وكان أمياً لا يحسن الكتابةَ ولا يعرف شيئاً من العلم، إلاّ أنه كان صالحاً حافظاً لكتاب الله تعالى، وكان عسراً في الرواية، سيِّىءَ الأخلاق كريه الملقى، كثير الضجر، متبرماً بأصحاب الحديث، كُنّا نلقى منه شدّةً حتى نسمع منه؛ وكان فقيراً مدقعاً يأخذ الأجرة على الرواية. وتوفي سنة إحدى وست مائة.

١٤٢ ـ «أبو البركات البغدادي»[١] **يوسف بن المبارك بن المبارك بن عبيد الله بن هبة الله، أبو البركات البغدادي**، من أولاد العدول. تولّى النظر بديوان التركات الحشرية مدةً ثم ولي الحسبة والنظر في الوقف العام، وقبض عليه، وسجن إلى أن مرض وشارف الموت، فأُخرج إلى منزله فمات سنة ثلاث عشرة وست مائة. وكان قد سمع من أبي محمد محمد بن أحمد بن عبد الكريم التميمي، وأبي المعالي محمد بن محمد بن اللَّحاس، وأبي الفتح محمد بن عبد الباقي بن البطّي، وغيرهم.

قال محب الدين بن النجار: كان شيخاً حسناً يفهم طرقاً من العلم ويتنسّك ويتديّن.

١٤٣ ـ «المقرىء الخياط»[٢] **يوسف بن المبارك بن محمد بن شَيْبَة، أبو القاسم الخيّاط المقرىء البغدادي**، كان يتوكّل على أبواب القضاة، وقرأ القرآن بالروايات الكثيرة على الرئيس أبي الخطيب علي بن عبد الرحمٰن بن الجرّاح، وعلى أبي العز محمد بن الحسين بن بُندار الواسطي المعروف بالقلانسي، وعلى غيرهما؛ وسمع الحديث من أبي عثمان إسماعيل ابن محمد أحمد بن مَلاّ الإصبهاني، وأبي طالب عبد القادر بن محمد بن يوسف، وابن عمه أبي طاهر عبد الرحمٰن بن أحمد بن عبد القادر، وأبي القاسم هبة الله بن محمد بن الحصين وغيرهم. وروى عنه ابن الأخضر.

قال محب الدين بن النجار: ولم يكن ثقةً لأنّه ادّعى أنه قرأ على أبي ظاهر بن سِوار، وأقرأ عنه شيئاً من الروايات فكشف عن ذلك، وهو كذبٌ، وظهر أمرُه وتَرَكَه الناسُ، وتوفي سنة سبعين وخمس مائة.

ابن محمد

١٤٤ ـ «القَيْرواني النّحوي»[٣] **يوسف بن محمد، أبو الفضل القيرواني النحوي**؛ كان عارفاً بالفقه وأصول الدين، وله تصانيف، وكان لا يرى التقليد. وتوفي سنة ثلاث عشرة

(١) انظر ترجمته في «تاريخ الإسلام» (٦١١ـ ٦٢٠)، و«تكملة وفيات النقلة» (٢/ ٣٦٥).
(٢) انظر ترجمته في «ميزان الاعتدال» (٤/ ٤٧٢).
(٣) انظر ترجمته في «خريدة القصر» (١/ ٣٢٥)، و«بغية الوعاة» (٢/ ٣٦٢).

وخمس مائة.

١٤٥ ـ «ابن الدوانيقي»[١] **يوسف بن محمد بن مقلّد بن عيسى، أبو الحجاج الدمشقي المعروف بابن الدوانيقي.** سمع وروى ورحل ووعظ، وتوفي ـ رحمه الله ـ سنة ثمان وخمسين وخمس مائة.

١٤٦ ـ «ابن طملوس»[٢] **يوسف بن محمد بن طملوس،** من أهل جزيرة شُقْر من عمل بَلَنْسِية، كان أحدَ علمائها الأماثل، وآخر المتحققين بعلوم الأوائل، توفي سنة عشرين وست مائة.

أورد له ابن الأبّار من شعره: [من الكامل]

بَسَمَتْ به الأيامُ بعد عبوسِها ... وتهلّلت بِشراً وجوهُ النّاسِ

وتمهّدت أرجاؤهم لمّا رسى ... ما بينها جبلُ الملوك الراسي

هيهاتِ أين الصّبحُ من لألائه ... أيُقَاسُ نورُ الشّمسِ بالنبراسِ

مَلِكٌ أبت همّاتُه وهباتُه ... من أن يجارى في النَدى والباسِ

ومنه: [من الكامل]

يا أيُّها الملكُ الذي بصفاتِهِ ... صلُحتْ ذواتٌ للورى وصفاتُ

لك في نفوس الكافرين مهابةٌ ... هي في نفوسِ المسلمين هباتُ

بك عاد هذا الشرقُ يُشْرِق نورُه ... وتقشَّعَتْ عن وجههِ الظلماتُ

ومنه: [من السريع]

جادَ على الجزع بوادي الحمى ... صَوْبُ الحيا سكباً على سَكْبِ

حيث الصبا يُهدي نسيمَ الرُّبى ... طَيِّبَةَ المَسْرى إلى الغرب

تمرُّ بالركب سُحَيْراً فيا ... موقعَ ريّاها من الرَّكب

وبالكثيب الفردِ من لعلع ... غُزَيِّلٌ ضلَّ عن السِّربِ

أفلتَ منّي واغتدى قابضاً ... قلبي فيا ويحيَ من قلبي

فسرتُ أشتدُّ على إثْره ... أنشدهُ في ذلك الشِّعب

يا هل رأتْ عيناك من ناشدٍ ... يسعى بلا عقلٍ ولا لُبِّ

---

(١) لم أعثر على مصادر ترجمته.

(٢) انظر ترجمته في «تاريخ الإسلام» (٦١١ ـ ٦٢٠)، و«بغية الوعاة» (٢/ ٣٥٤).

أحـبِـبْ بـه مـن مـلـكٍ جـائـرٍ ... أحـكـامُـه تـجـري عـلـى الـصـبّ
تـثـنـيـه مـن خـمـر الـصِّـبـى نـشـوةٌ ... لـعـبَ الـصِّـبـا بـالـغـصـن الـرطـب
يـا جـائـرَ الـلَّـحـظ عـلـى حِـبّـه ... سـلَّـطـت عـيـنـيـك عـلـى قـلـبـي

١٤٧ ـ «المستنجد بالله»[١] **يوسف بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن جعفر بن أحمد بن محمد بن جعفر بن محمد بن هارون بن محمد بن علي بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطلب**، أميرُ المؤمنين المستنجد بالله أبو المظفّر بن المقتفي لأمر الله بن المستظهر بأمر الله بن المقتدي بن القائم بن القادر بن المقتدر ابن المعتضد بن الموفق بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدي بن المنصور العباسي؛ أمُّهُ أُمّ ولدٍ اسمُها طاووس روميّة، توفيت في خلافته. خطب له والدُه بولاية العهد من بعده في يوم الجمعة مستهل ذي الحجة سنة سبع وأربعين وخمس مائة، وبويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه في يوم الأحد ثاني شهر ربيع الأوّل سنةَ خمس وخمسين وخمس مائة، ووُلد سنة ثمان عشرة وخمس مائة، وتوفي يومَ السبت ثامن شهر ربيع الآخر سنة ست وستين وخمس مائة، وكان عمرُه ثمانياً وأربعين سنة، وولايتُه إحدى عشرة سنة وشهراً واحداً وكانت أمراضُه قولنجيّة، وأُضيفَ هلاكُه إلى الطبيب. وكان طويلَ القامة جسيماً، أسمر اللون، كثيفَ اللحية، وكان نقشُ خاتمه «من أحبَّ نفسَه عمل لها». وخلّف من الولد ابنين: أبا محمد الحسن المستضيء، وأبا القاسم، وابنة تُعرف بالعباسيّة؛ وأوّل من بايعه عمُّه أبو طالب، ثمّ أخوه أبو جعفر، وهو أسنُّ من المستنجد، ثم الوزيرُ عون الدين، ثم قاضي القضاة، قال: «رأيت رسول الله ﷺ في المنام منذ خمس عشرة سنة»، فقال له الوزير عون الدين: «يبقى أبوك في الخلافة خمس عشرة سنة».

قال صاحب كتاب «المناقب العباسية والمفاخر الهاشمية»: كانت أيامه أيّام خصبٍ ورخاء وأمن عام، ودولتُه زاهرةٌ، وسياستُه قاهرة، وهيبته رائعة، وسطوتُه قامعة، ذُلَّتْ له رقابُ الجبابرة في الآفاق، وخضعت له منهُمُ الأعناق، وأشحن بالظَلَمَةِ الحبوس، وأزال قوانين الظلم ورفع سائر المكوس، وتمكّن تمكُّنَ الخلفاء المتقدّمين، وكان آخر من عمل في أيامه بقوانين الأئمة الماضين، من مواظبةِ وزيره على عمل المواكب ورفع القصص إليه والمظالم، فما انتهت إليه حالةٌ مكروهة إلاّ أزالها، وعثرةٌ إلاّ أقالها؛ ويقال إنّه رأى في منامه في كفّه أربَع خاءات فعبّرها على عابرٍ فقال: «تلي الخلافةَ سنة خمس وخمسين

(١) انظر ترجمته في «البداية والنهاية» (١٢/ ٢٦٤)، و«شذرات الذهب» (٤/ ٢١٨)، و«مرآة الزمان» (٨/ ٢٣٣).

وخمس. مائة».

قال الوزير عون الدين بن هبيرة: قال لي المستنجد يوماً وقد جرى بيننا قراءةُ من قرأ: ﴿فتبيّنوا﴾ [النساء: ٤/ ٩٤؛ الحجرات: ٤٩/ ٦] بالنون، فقال: من قرأ بالنون أحسنُ ممن قرأ بالثاء لأن من تبيّن تثبّت، وقد يتثبّتُ من لا يتبيّن.

وكتب كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري القاضي إليه لمّا قدم بغداد رسولاً من قبل نور الدين محمود بن زنكي، إلى المستنجد قصةً على رأسها: «من محمد بن عبد الله الرَّسول»، فوقّع عند اسمه بقلمه: «صلّى الله عليه وسلّم».

وخطب علويٌّ بلخي تدريس المدرسة النظامية ببغداد بقصة رفعها إليه فوقّع المستنجدُ عليها: «لقد»، فعرضتِ القصةُ بالتوقيع على الوزير عون الدين، فعرضها على أصحابِ الدّيوان فأعياهم حلُّ رمز المستنجد التوقيع، فقال الوزير: هذا إشارة إلى قول القائل: [من الطويل]

لقد هزُلَتْ حتى بدا من هُزالها كُلاها وحتى سامها كلُّ مُفْلِسِ

فحكي ذلك للخليفة فتعجب من تفطّنه لذلك.

وامتدحه الحيص بيص الشاعر بقصيدة، واقترح فيها أنْ تجعل بعقوبا له معيشةً، وهي بلدةٌ تغلُّ في كل سنة اثني عشر ألف دينار، فوقع المستنجد على ظهر قصته: [من الكامل]

لو أنَّ خفَّةَ رأسِهِ في رجله لحق الغزالَ ولم يفُتْهُ الأرنبُ

وقيل: إنّ ليلتَه حانت من ابنة عمه، فلما توجّه إليها وجد في طريقه بعضَ حُجُرات جواريه مفتوحَ الباب غيرَ مغلق، فدخل إليها فقالت له الجارية امضِ إلى منامك فإنّني أخاف أنْ تعلم ابنةُ عمِّك، ولا آمن شرّها، فقال: في ساقها خلخال، إذا جاءت عرفت بها، فمضت إليها جاريةٌ ووشت بالحال، فرمت خلخالَها إلى أعالي ساقِها، وقصدت المقصورة ففاحت الروائحُ العطرةُ، فنمّ ذلك عليها فخرج من الباب الآخر ثم قال: [من الكامل]

استكتمت خُلخالها ومَشَتْ تحت الظلام به فما نطقا

حتى إذا هبَّتْ نسيمُ الصَّبا ملأ العبيرُ بنشرها الطُرُقا

وقد ذكرت هنا ما قلته في هذا المعنى، قلت: [المتقارب]

إذا شِئْتِ حليُك ألاّ يشي وقد زرتِ في الحندسِ المُظْلمِ

فرُدِّي السوارَ مكانَ الوشاح وخلّي وشاحَك في المعصم

وقلت أيضاً: [من السريع]

قالوا وشى الحليُّ بها إذْ مشت إليك من قبل ابتسام الصباحْ
فقلت لا، خلخالُها صامتٌ، ثم تذكرت فضولَ الوشاحْ

وقلت أيضاً: [من السريع]

قلت له زرني فلا بد أن يدري بنا الواشي ويُغرى العذولْ
فالريح ما تكتم سراً وما تبريح رياك تعاني الفضولْ

وقلت أيضاً: [من المنسرح]

بتنا وما نقلُنا سوى قُبَلٍ وَرَيِّقٍ فيه السُّلافُ مشروبي
نمنا وما نَمَّتِ الوشاةُ بنا لولا فضولُ الحلْي والطيب

ومن شعر المستنجد بالله قوله: [من البسيط]

إذا مرضنا نوينا كلَّ صالحةٍ وإنْ شُفينا فمنّا الزَّيْغُ والزللُ
نُرضي الإله إذا خفنا ونعصيه إذا أمِنَّا فما يزكو لنا عملُ

ومن شعره أيضاً: [من الخفيف]

عيّرتني بالشيب وهو وقار ليتها عيّرت بما هو عار
إنْ تكنْ شابتِ الذوائبُ منّي فالليالي تنيرُها الأقمارُ

ومن شعر المستنجد بالله: [من الكامل]

يا هذه إن الخيال يزورني لو كان يسعف أو يرد سلاما
ما إن رأيت كزائر يعتادني يُغْفي العيون ويوقظ النُّواما

ومن شعر المستنجد: [من السريع]

وباخلٍ أشعلَ في بيته طَرْمَذَةً منه لنا شمعهْ
فما جرت من عينها دمعةٌ حتى جرت من عينه دمعهْ

ومن شعر المستنجد بالله: [من الطويل]

وصفراءَ مثلي في القياس ودمعُها سجامٌ على الخدَّين مثلُ دموعي
تذوب كما في الحبّ ذبتُ صبابةً ويحوي حشاها ما حوته ضلوعي

١٤٨ ـ «الناصر صاحب الشام»[1] **يوسف بن محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان**، السلطان الملك الناصر صلاح الدين ابن السلطان الملك العزيز ابن السلطان الملك الظاهر ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين الكبير، هو صاحب حلب ثم صاحب الشام. ولد بقلعة حلب في رمضان سنة سبع وعشرين وست مائة، وتوفي سنة تسع وخمسين وست مائة. تولّى المُلك عند موت والده العزيز سنة أربع وثلاثين وست مائة، وقام بتدبير دولته الأميرُ شمس الدين لؤلؤ الأميني، وعز الدين بن المجلي، والوزير الأكرم ابن القفطي، والطواشي جمال الدولة إقبال الخاتوني، والأمر كلُّه لجدَّتِه الصّاحبة صفية خاتون بنت العادل. ولما توجّه القاضي بهاء الدين بن شدّاد إلى الكامل بعدّة العزيز، وكان قد مات وعمره أربع وعشرون سنة، فلما رآها الكامل حزن وحلف للناصر لأجل أخته، فلما توفيت سنة أربعين اشتدَّ الناصرُ وأمر ونهى، فلما كان سنة ست وأربعين سار من جهته نائبه شمس الدين لؤلؤ وحاصر حمص وطلب النّجدة من الصّالح نجم الدين أيوب فلم ينجده وغضب، ثم جرت أمورٌ واستمرت حمص في ملك الناصر، وفي شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وست مائة قدم إلى دمشق وأخذها بلا كلفة، وفي أثناء السنة قصد الديار المصرية فما تمّ له ذلك، وفي سنة اثنتين وخمسين دخل على بنت السلطان علاء الدين فولدت له علاء الدين في سنة ثلاث، وأمُّ هذه هي أختُ الصّاحبة. وكان الناصر، رحمه الله تعالى، سمحاً جواداً حليماً حسنَ الأخلاق، محبّباً إلى الرعية، فيه عدلٌ وصفح ومحبّة للفضلاء والأدباء، وكان سوقُ الشِّعر نافقةٌ في أيامه؛ وكان يذبح في مطبخه كل يوم أربع مائة رأس غنم، سوى الدجاج والطيور والأجدية، وكان يبيع الغلمانُ من سماطه شيئاً كثيراً عند باب القلعة بدمشق بأرخص ثمن من المآكل الفاخرة. حكى علاء الدين بن نصر الله أنّ الناصر جاء إلى داره بغتةً، قال: فمددت له شيئاً كثيراً في الوقت، سماطاً بالدجاج المحشي بالسكر والفستق وغيره. فقال: كيف تهيّأ لك ذلك، فقلت: هو من نعمتك اشتريته من عند باب

---

(١) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٢٣/ ٢٠٤)، «ذيل الروضتين» لأبي شامة (٢١٢)، «مرآة الزمان» لليونيني (١/ ٤٦١ـ ٤٦٩، ٢/ ١٣٤)، و«المختصر في أخبار البشر» لأبي الفدا (٣/ ٢١١)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (أيا صوفيا ٣٠٣)، ج ٢٠ الورقة (١٩٤ـ ١٩٥)، «دول الإسلام» (٢/ ١٢٥)، «العبر» للذهبي (٥/ ٢٥٦ـ ٢٥٧) «تاريخ ابن الوردي» (٢/ ٣٠٣)، «أمراء دمشق في الإسلام» للصفدي (طبعة مجمع اللغة العربية في دمشق ١٩٥٥) ص ١٠٢، «فوات الوفيات» لابن شاكر الكتبي (٤/ ٣٦١ـ ٣٦٦) «ترجمة» (٥٩٥) «مرآة الجنان» لليافعي (٤/ ١٥١)، و«النجوم الزاهرة» (٧/ ٢٠٣)، «شفاء القلوب في مناقب بني أيوب» (٤٠٨ـ ٤٢١)، «الترجمة» (١٠٧)، «الدارس في تاريخ المدارس» للنعيمي (١/ ١١٥، ٤٥٩)، «القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية» لابن طولون (٨٨)، «شذرات الذهب» (٥/ ٢٩٩)، «أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» لمحمد راغب الطباخ (٢/ ٣٠٢).

القلعة. وكانت نفقةُ مطابخه وما يتعلّق بها في اليوم أكثرَ من عشرين ألف درهم. وكان يحاضر الأدباء والفضلاء وعلى ذهنه كثير من الشعر والأدب، وله نوادر وأجوبة ونظم وحسن ظن في الصالحين. وبنى بدمشق مدرسة جوّا باب الفراديس، وبالجبل رباطاً وتربة، وبنى الخان عند المدرسة الزنجيلية، وبلغه عن بعض المتفقّرين من الأجناد أنه تسمّح في حقه، فأحضره ليؤدبه، فلما رأى وجله رقَّ له وأمر له بذهبٍ وقال: ليرجع بهذا قلبك ثم نعتبك، فلما اطمأن صرفه آمناً ولم يؤاخذه. وكان تمرّ له الأيام الكثيرة يجلس فيها من أول النهار إلى نصف الليل يوقع على الأوراق ويصل الأرزاق؛ وقيل إنه خلع في أقلّ من سنة أكثرَ من عشرين ألف خلعة. وكان الفرنج قد ضمنوا له أخذ الديار المصرية على أن يسلم إليهم القدس مع بلاد أخرَ غيرها، ودار الأمر بين أن يعطي ذلك للمصريين أو للفرنج، فبذل ذلك للمصريين اتّباعاً لرضى الله تعالى، وقال: «والله لا لقيتُ اللَّهَ وفي صحيفتي إخراج القدس عن المسلمين»؛ ولما بَعُدَ عن خزائنه واحتاج إلى قرض رهن أملاكه وضرب أواني الفضة والذهب، وقيل له في أخذ الفائض من الأوقاف فما مدّ يده إلى شيء منها بدمشق ولا بحلب.

قال ابن العديم: حضر بعض المدرّسين إلى المعسكر ورفع على يدي قصّةً بين يديه تتضمّن التضوّرَ من قلّة معلومه ويذكر أنّ عيالَه وصلوا من مصر وأنّه لا يطلب التثقيل على السلطان في مثل هذا الوقت الذي يعلم ما يحتاج فيه إلى الكلف بل يطلب زيادةً في المدرسة التي هو بها، فقال: «كيف شرط الواقف؟» فقلت: «شرط ما يتناوله الآن، لكن ذكر أن في كتاب الوقف ما يدل على أن للسلطان أنْ يزيدَه إذا رأى في ذلك مصلحة». فأطرق كما هي عادته إذا لم ير قضاء ما طُلب ولم يُرِدْ في ذلك جواباً ولم يهن عليه ردّه خائباً وتورّع عن مخالفةِ الواقف، فقرّر له ما طلبه على ديوانه دون الوقف.

وقيل له عن جلال الملوك وقد مرّ على مكانه في الجبل: «ما رأي مولانا السلطان منه؟» فقال: «رأيت شيخاً أشقر على جبل أحمر يأكل حشيشاً أخضر ويتكلم بالمنكر».

وكان عنده في ليلة جماعة من الأدباء فذكروا قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي: [من الطويل]

تَشَكَّى الكميتُ الجريَ لمّا جهدتُه ... وبيّن لو يَسْطيعُ أنْ يتكلّما

فقال بعضهم: «يا مولانا متى نعود إلى الكميت»، ويشير إلى الخمر، فقال له: «حتى تعود إلى الأدهم»، يريد القيد، وكان قد قُيِّدَ مرّة وسُجن.

وكان لبعض الشعراء عليه رسم في كل سنة، تشريف ودراهم، فأنشده قصيدة قال





